وزارة المعارف العراقية
لجنة الترجمة والتأليف والنشر ببغداد

كتاب النبراس

في

تاريخ خلفاء بني العباس

تأليف

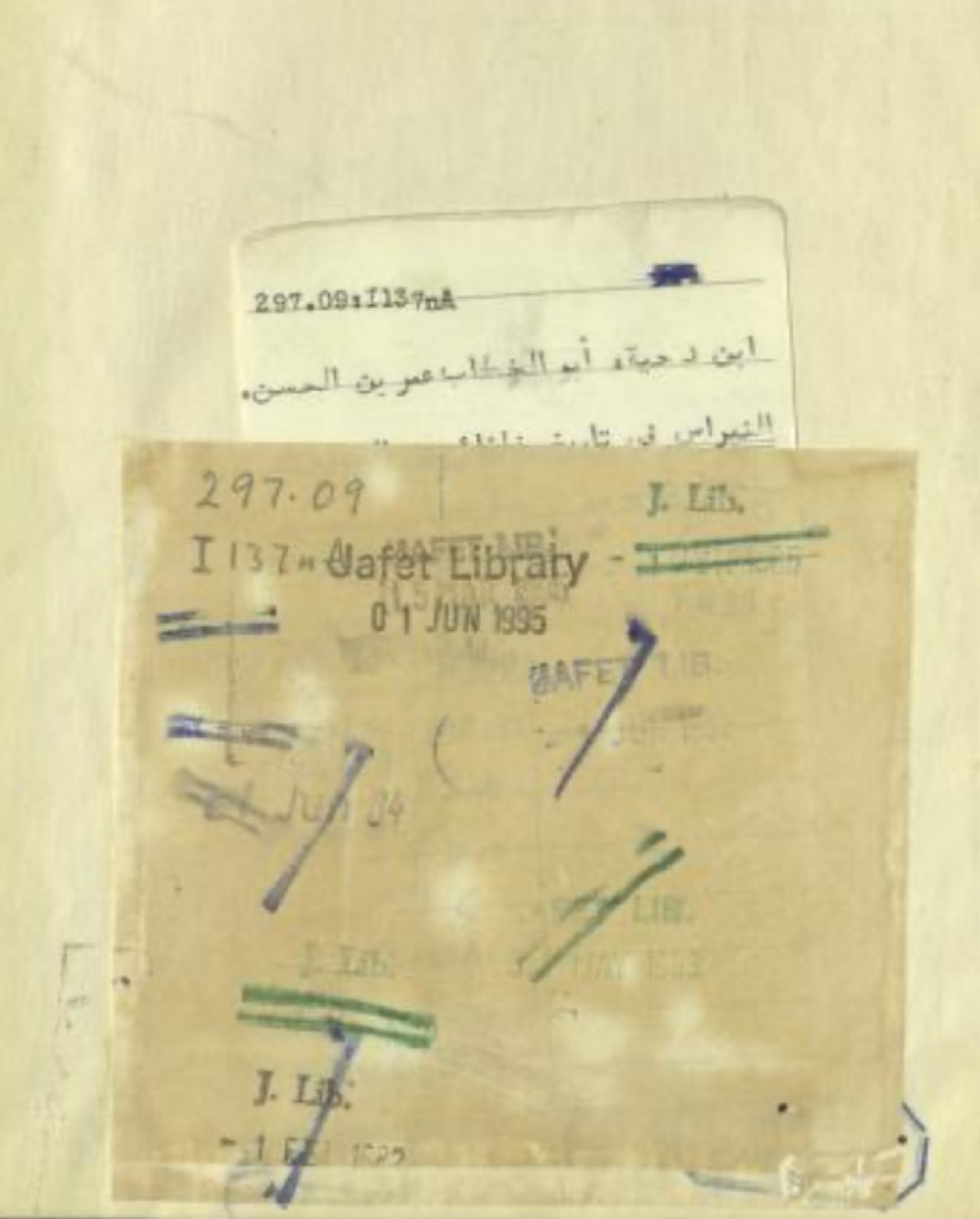
الامام العلامة الحافظ المحدّث أبي الخطّاب عمر بن الشيخ الامام
أبي عليّ حسن بن عليّ سبط الامام أبي البسّام الفاطمي
المعروف بذي النسبين دِحْية والحسين

صححه وعلق عليه

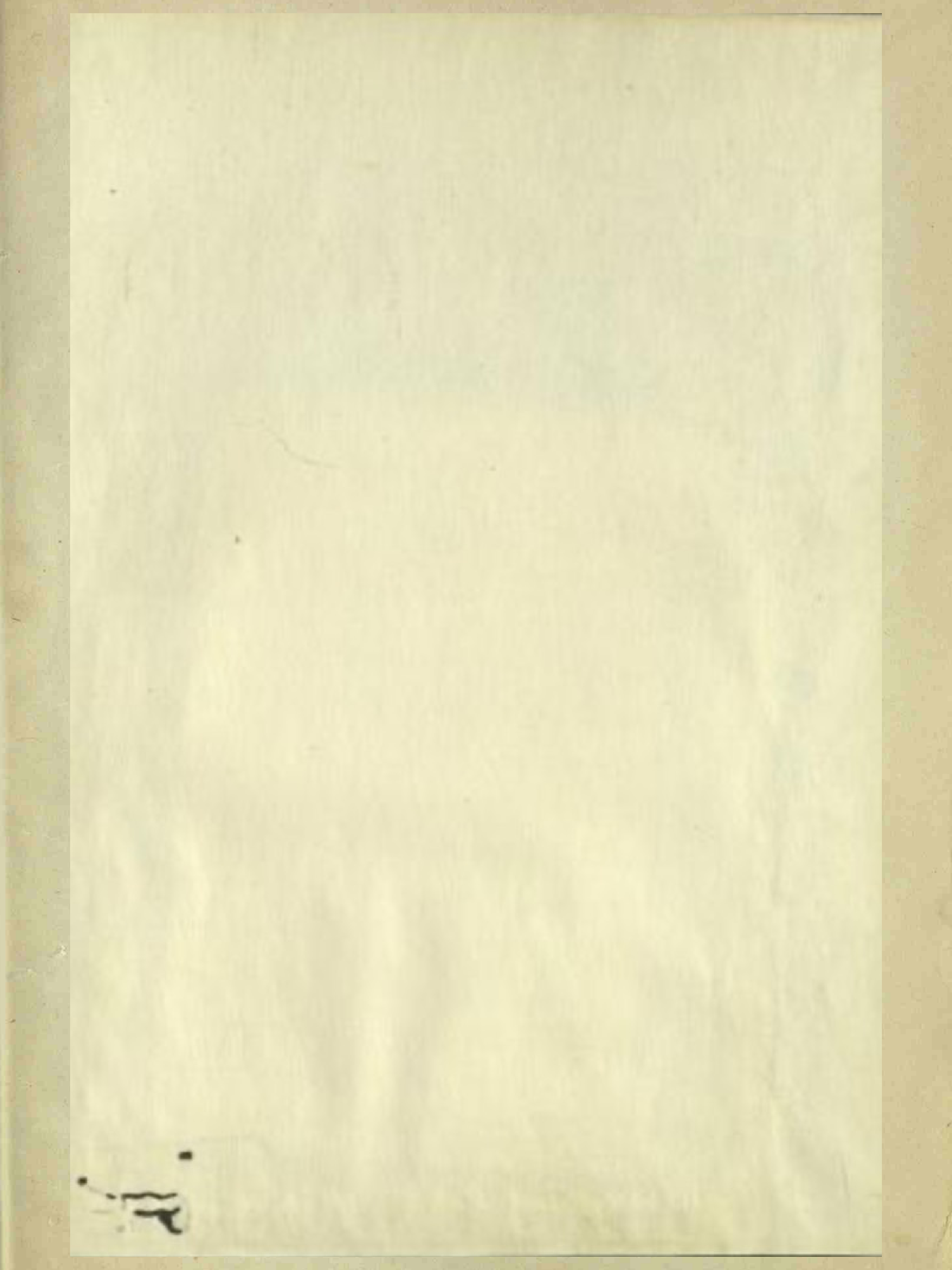
المحامي
عباس العزاوي

نائب رئيس لجنة الترجمة والتأليف والنشر

مطبعة المعارف - بغداد
١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

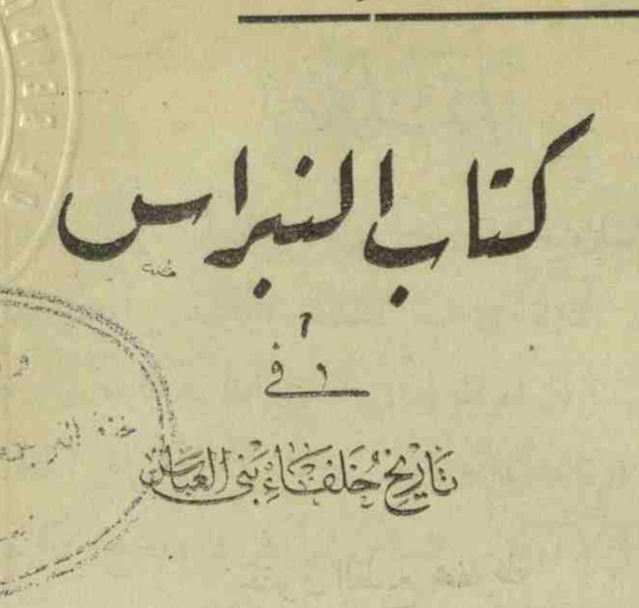


297.09:I137nA
ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن الحسن.
297.09
I137n
J. Lib.
Jafet Library
01 JUN 1995
J. Lib.



وزارة المعارف العراقية

لجنة الترجمة والتأليف والنشر ببغداد



كتاب النبراس

في

تاريخ خلفاء بني العباس

تأليف

ت ٦٣٣هـ (١٢٣٥م)

الامام العلامة الحافظ المحدّث أبي الخطّاب عمر بن الشيخ الامام
أبي عليّ حسن بن عليّ سبط الامام أبي البسّام الفاطمي
المعروف بذي النسبين دِحْية والحسين

صححه وعلق عليه

المحامي

عباس العزاوي

نائب رئيس لجنة الترجمة والتأليف والنشر

مطبعة المعارف - بغداد

١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

حياة النهضة الاسلامية تجلّت في إدارة (الدول العربية) وما عرض لها من تطورات ، فكانت الدولة في عهد الخلفاء الراشدين أفضل إدارة ، وأجل حكومة عرفت . ويهمنا أن نعرف إدارة الدول التالية لها ، ودرجة أخذها بنصيب من هذه الادارة الفاضلة، وماقامت به من مثل أعلى في الحالات التطبيقية، فكان الانكشاف في (دولة بني العباس) أكبر ، ونضج الفكرة أعم وأشمل ساعد على ذلك ذيوع الثقافة ، وسيرها نحو الكمال . ومن ثم شعرنا بالحاجة إلى المعرفة وصرنا نتطلع إلى الأغراض واضحة ، لا تشوبها شائبة .

ظهرت مخلدات في الحركات الفكرية ، وفي التيارات السياسية ، وفي تجلي رغبة الأمة وإرادتها إلا أن المعلومات لم تتهيأ لنا بالوجه المطلوب من الوضوح ، وإن التأريخ لم يمط اللثام عما يراد بحيث لا يدع ريباً لمرتاب ، بل لا يزال الغموض يسود (تأريخ بني العباس) خاصة من نواح كثيرة لما يحيط به في مختلف عهوده من الأهواء ، ولما يحفّه من الأوضاع ، ويعتريه من الابهام لما كان له من استقلال ، ولما طرأ عليه من تحكم واستغلال أو تغلب . . والوقائع تنبىء عما وراءها وتبين عن وجه الصواب فيما حدث من تغير سياسي ، أو ثورة على حكم، أو تحول فكري ، ونضج اجتماعي . فهذه التيارات للأمم والجماعات تحتاج إلى أمثلة كثيرة لا يستغنى عنها بوجه لما تجدد من أحداث .

عثرنا على جملة صالحة من المؤلفات التاريخية في أخبار (الدولة العباسية) ، ومن جملتها هذا الكتاب الذي أقدمه بين أيدي القراء الأفاضل ، فقد ركن مؤلفه الى مدونات عديدة لا يزال بعضها في زوايا الاهمال ، وهو أيضاً يعين نفسية خاصة في نهجها ، فحاجتنا اليه وإلى أمثاله شديدة ، نريد أن نسمع كل ما قيل ، لينكشف لنا التأريخ في صفحاته المختلفة والمتعارضة . ولولم تكن في هذا التأريخ إلا أن مؤلفه أكد به الصلات بين الخلافة العباسية ، والدولة الأيوبية تقوية لأواصر الالفة في حينها لكفى .

كنت كتبت مقالاً في مجلة (المجمع العلمي العربي) بدمشق [1] في المؤلف ابن دحية ، وتأريخه للتعريف بهما ، فرأيت هنا ان اقدمه بتعديل .

— ١ —

التاريخ ونقده

١ ـ التأريخ وتلقيه :

الشعوب أفراداً وجماعات قديماً وحديثاً قد أشغلتها الوقائع اليومية ، فلا تستطيع أن تكون عنها بنجوة ، وإنما تسوق هذه الحوادث أحياناً الى تفسيرات متنوعة ... وهناك الاتجاهات والنزعات التاريخية مما هو مشهود دائماً فلا يكتفي المرء بما توحيه اليه نفسه آنياً ، فيحكم بما شاء حسب أهوائه وميوله ، بل يسترشد غالباً بما يؤهله لصحة الحلّ ، فيمضي نحو الأقرب للواقع ، ومن ثم يزاول طرقاً عديدة ، من أهمها الرجوع الى الوقائع السابقة والاهتداء بنورها ، وما تلهمه مما يتعلق بنا أو يعود للآخرين .

وأمثلة ذلك كثيرة كأن يقال : (كذا فعل نابليون أو جنكيز) . . في

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ١٩ ص ٢٢١

الأمور الحربية أو الشؤون السياسية . وهكذا نهج الامام الغزالي في خطته العلمية أو الفلسفية .. فنعلم أن المرء في سيرته يجاري من سبقه ، ويتعقب ما حدث من أعمال ، أو صناعات ، أو علوم وآداب . وبهذا يستفيد من تجارب غيره .

وإذا كانت (الحياة الفردية) تراعي ما جرى ، فلا شك أن (الحياة الاجتماعية) أولى أن تستند الى الحالات القديمة العهد ، أو المشهودة الآن في الأمم من شرائع ،وعقائد ،وصنائع ،ونظم، فتجعل (نفسيات الأقوام) وأعمالها في هذه الحياة نموذجاً ، وقدوة ، لتقوية الغرائز الضعيفة والاعتبار بالأعمال الخالدة فتنشط ، وتنبعث فيها الهمة فتثور من خمولها بل قد تنتفع من الشعوب المنحطة ، والحيوانات العجم بتقليد بعض أوصافها أو التمرن على ما ترغب فيه منها . وقد رأينا الكثيرين عدّوا الصلاح في بعض الأقوام ناجماً من بعض السجايا والغرائز ، أو ما تحلت به من الفضائل .

ومن هذا نعلم أن في الأمم حاجة إلى ما ينبهها من غفلتها ، أو يوقظها من غفوتها ، ولا فرق بين أن تكون المنبهات فيما نراه من الحوادث اليومية ، أو الوقائع العظمى ، وتطورات الزمان ، أو تجليات العقليات وانكشافها ، أو أن تكون من حوادثنا التي هي ألصق بنا وأقرب الى تفهمنا ، أو انها أتتنا من الخارج كوقائع الأقوام والأمم في زماننا أو في أمد انقضى . والانتفاع ليس له وقت محدود ، أو أحداث خاصة .

هذا معوّل الأمم ، والأفراد ، وعليه ترتكز الحضارة ، ويترتب نظام الأقوام والشعوب ، فينظم الفرد أو الأمة ماجرى ، وينسق ما علم ، ويتألف من هذا كله (التاريخ) بضروبه وفروعه ، والأمة الصالحة هي التي تتكون لديها (مجموعات) منه صادقة صحيحة ، ترجع اليها ، وتعرض لاستفادتها ، فيسهل الأخذ ، لتكون خير مرشد في نهج الحياة ، وإلا فلا يعقل أن يغالط المرء نفسه .

« أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى ، أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم ؟ » .

وهذه أشمل من أن تتعلق بالانسان أو بأرضه ، أو بمواطن ربما لا تكون لها صلة به، بأن تتناول الكرة الأرضية والهيئة السماوية فتكون الاستفادة أعم.

٢ — التأريخ في نظر ابن دحية :

وموضوع بحثي مؤرخ أندلسي مصري مر بالشام ، وورد العراق وهو (ابن دحية الكلبي) ، وكان هذا قد كتب تأريخاً للدولة العباسية دعاه (النبراس في تأريخ خلفاء بني العباس) لزمان سبق ظهور المغول في بلاد الاسلام إلا أني أود قبل الدخول في التوضيح عن المؤلف وتأريخه أن أعين التلقي التأريخي في نظره ، قال :

« بالتاريخ تعرف المناقب والمفاخر ، ويدرك العلم الأول والآخر ، فكل علم من التأريخ يستنبط ، وحسبه ذا الفخر فقط .. فلولا التأريخ .. ما عرفت الرسل وأزمانهم .. وشرائعهم المخصوصة بكل منهم وأديانهم .. وفيه من التبحر بعلم الحديث والحديث المعل والصحيح ، والمواليد والوفيات ، والمحيا والممات ، ثم الفقه منه في الاتفاق ، والاختلاف يستشار ، والفصاحة فيه من الألسنة تستثار ، وأصحاب القياس عليه يبنون، وأصحاب المقالات به يحتجون، وثمار معرفة الناس منه تخترط ، ودرر أمثال الحكماء منه تلتقط ، ومكارم الأخلاق ومعاليها منه تقتبس ، وأدب سياسة الملوك وحيل الحروب منه تلتمس ، وكل غريبة منه تعرف ومن بحره تغرف ، وكل أعجوبة منه تستظرف .. يدخل في كل مقام .. ويتجمل به في كل محفل وناد ، ففضيلته في العلوم صحيحة بينة ، وله على فضله شهود بينة .. » اهـ [1]

---

(١) النبراس ص ٣

وفي هذا بيان واف لمعرفة مطالب التأريخ للعلوم وتطورها ، وللسياسة وضروبها ، وللحروب وزعازعها ، والحقوق وتكاملها ، والأخبار وصحتها ، والآداب وبيانها . . فلا مجال للتعليق . . وإنما تصح الاستفادة منه في كل حين، ولكل علم وفن وأدب وسياسة ودين . .

—٢—

ابن دحية الكلبي

١ — حياته :

هذا المؤرخ أندلسي، عاش بمصر كثيراً ، وصار من مشاهير علمائها ، وهو مجد الدين أبو الخطاب عمر بن الشيخ الامام أبي علي حسن بن علي سبط الامام أبي البسام الفاطمي المعروف بذي النسبين ، دحية والحسين . . وساق ابن خلكان نسبه مما وجده بخطه كما جاء في تأريخه النبراس أيضاً .

اشتهر المترجم في ثقافات متعددة ، عرف بالتأريخ ، كما ذاع صيته في الحديث ، وهو من النبوابغ في الآداب والعلوم ، وأثره التاريخي أبقته الأيام فخراً لمصر والعراق ، ، دفعه الى تحريره أسفاره إلى بغداد وإلى الأقطار الاسلامية الأخرى فكشف عن صفحة من تاريخ قطرنا ، ودلّ على العلاقة المكينة . وهكذا فعل عراقيّ ذهب إلى مصر فكتب تاريخها أعني به الموفق عبد اللطيف البغداديّ المعروف بـ (ابن اللّباد [١]) .

والمعاصرون نقلوا منه نصوصاً عديدة كما تكلموا على المترجم ، ونقدوه ، وأيدوا الكثير من أحواله . إلا أنهم لم يتعرضوا لتأريخه (النبراس) ، إلا

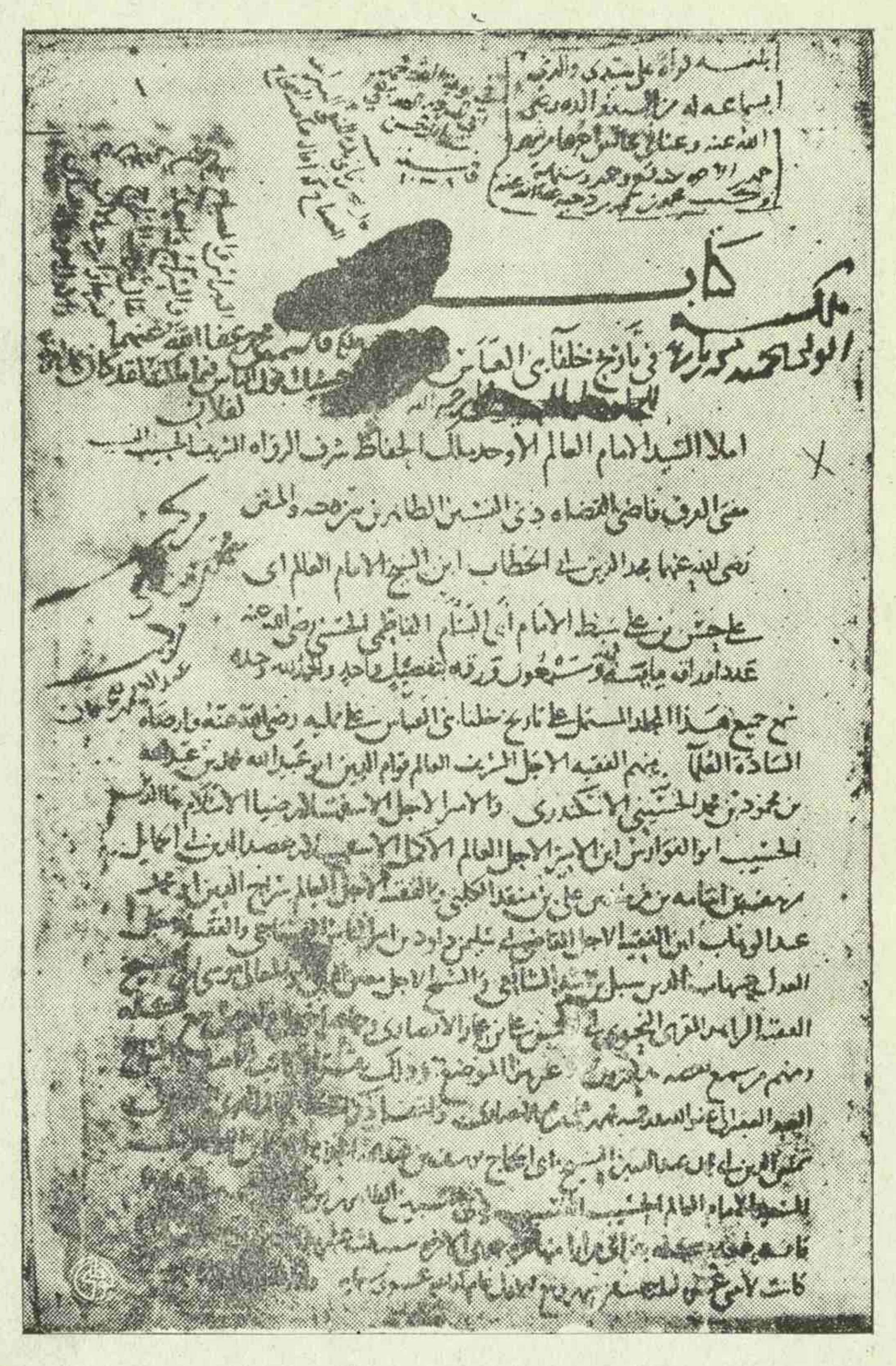
(١) الموفق البغدادي توفي سنة ٦٢٩ هـ — ١٢٣١ م وله كتاب الافادة والاعتبار ، وتأريخ مصر الكبير . وهذا الأخير نقل منه الذهبي كثيراً في تاريخ المغول ، وكان معاصراً وترجمته في (الوافي بالوفيات) .

قليلاً ، والظاهر أنه لم يقع لهم ، أو وقع ولم نعثر لهم على نقل منه ، أو إيراد نص من نصوصه إلا في وقت متأخر ، فبقي مطموراً في زوايا الاهمال مدة ... كتبه لولي العهد بمصر باحثاً عن الدولة العباسية في بغداد ، وكان قد عاد اليها بعد تجولات كثيرة في مختلف الأقطار ..

٢ — أقوال المؤرخين فيه :

لا أجد حاجة للتوغل في تأريخ ابن دحية من جميع الوجوه ، وقد علمنا تلقياته للتأريخ ، ولا ريب أن أثره هذا ينبىء عن قدرته العلمية ، وفيه تعرض لبيان أسماء بعض مؤلفاته خلال المباحث . والتحليل النفسيّ يسوقنا قطعاً إلى أنه كان من فحول العلم والأدب . وكفى أن نعين ما قاله بعض المؤرخين فيه لنتبين ما أحدثه من نفسيات متعاكسة إلا أنه إذا لم يكن أعظم من ناقديه فلا يقل عنهم مكانة ، ولا نتبسط فيه كثيراً ، فكل أحد يؤخذ من قوله ويرد . . إلا أننا راعينا المطالب بقدر واقتصرنا على الصفوة . .

قال ابن خلكان : « كان من أعيان العلماء . . ومشاهير الفضلاء ، متقناً لعلم الحديث النبوي وما يتعلق به ، عارفاً بالنحو واللغة ، وأيام العرب وأشعارها واشتغل بطلب الحديث في أكثر بلاد الأندلس الاسلامية ولقي بها علماءها ومشايخها ، ثم رحل منها الى بر العدوة ، ودخل مراكش ، واجتمع بفضلائها ، ثم ارتحل الى افريقية ومنها الى الديار المصرية ، ثم الى الشام والشرق والعراق ، وسمع ببغداد من بعض أصحاب ابن الحصين ، وسمع بواسط من أبي الفتح محمد ابن أحمد ابن الميداني ودخل الى عراق العجم وخراسان وما والاها ، ومازندران . كل ذلك في طلب الحديث ، والاجتماع بأئمته والأخذ عنهم ، وهو في تلك الحال يؤخذ عنه . ويستفاد منه .



في تاريخ خلفاء بني العباس

املا السيد الامام العالم الاوحد الحافظ شرف الرواه الشهيد الحسيب النسيب

مفتي الفرق قاضي القضاه ذي النسبين الطاهرين [illegible]

رضي الله عنهما مجد الدين ابي الخطاب ابن الشيخ الامام العالم ابي

علي حسن بن علي سبط الامام ابي القاسم الشاطبي الحسني رضي الله عنه

عدد اوراقه مايه وتسعون ورقه بتفصيل واحد والحمد لله وحده

سمع جميع هذا المجلد المشتمل على تاريخ خلفاء بني العباس على مليه رضي الله عنه وارضاه

السادة الفقها منهم الفقيه الاجل الشريف العالم قوام الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله

بن محمود بن محمد الحسيني الاسكندري والامير الاجل [illegible]

[illegible]

١ — ما كتب على غلاف الصفحة الأولى من أصل الكتاب

قدم مدينة إربل في سنة ٦٠٤ هـ - (١٢٠٧ م)، وهو متوجه الى خراسان، فرأى صاحبها الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين - رحمه الله - مولعاً بعمل مولد النبي - صلى الله عليه وسلم، عظيم الاحتفال به، فعمل كتاباً سماه (التنوير في مولد السراج المنير) وقرأه عليه بنفسه.. وكانت ولادته في مستهل ذي القعدة سنة ٥٤٤ هـ (١١٥٠ م)، وتوفي يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) بالقاهرة...» اهـ.(١)

وفي ابن كثير: «الحافظ، شيخ الديار المصرية في الحديث، وهو أول من باشر مشيخة دار الحديث الكاملية بمصر، وتكلم الناس فيه بأنواع الكلام» اهـ.(٢)

وفي أبي شامة أبيات حسنة في المترجم للشيخ السخاوي، وأطنب الذهبي في ترجمته ونقل عن معاصرين كثيرين أنه كان كثير الوقيعة في الأئمة، وكان على كثرة علمه وفضائله معروفاً بالمجازفة والدعاوى العريضة، أو أنه يدعي أشياء لا حقيقة لها. ومن هؤلاء من اختبر حفظه، أو امتحن فهمه. ولم يكتف الذهبي بما أورده من النقد المر حتى اعده مدلساً.(٣)

وقال سبط ابن الجوزي: «كان في المحدثين مثل ابن عنين(٤) في الشعراء يثلب علماء المسلمين، ويقع في أئمة الدين، ويزيد في كلامه، فترك الناس الرواية عنه، وكذبوه، وكان الكامل مقبلاً عليه، فلما انكشف حاله أعرض عنه،

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٤ و ص ٩٥

(٢) البداية والنهاية: ابن كثير ج ٣ ص ١٤٤

(٣) تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ٢٠٥

(٤) ترجمته في ابن كثير ج ١٣ ص ١٣٧ قال كان هجاء: وقل من سلم من الدماشقة من شعره، وله (مقراض الأعرض). طبع المجمع العلمي العربي ديوانه طبعاً متقناً.

وأخذ منه دار الحديث ، وأهانه . » اهـ [1]

وجاء ذكر ابن دحية في (منتخب المختار) نقلاً عن الصاحب كمال الدين ابن النديم كما في ص ٩ .

وترجمته في كتاب الفلاكة والمفلوكين في صفحة ٨٨ .

وترجم ابن دحية العلامة المقري في كتابه (نفح الطيب) مفصلا وبيّن أنه ظاهري المذهب فقال :

« وتكلم فيه جماعة فيما ذكره ابن النجار ، وقدره أجلّ مما ذكروه . » [2]

ولعل التحامل ناجم من أنه ظاهري ، فخاف القوم على مكانتهم المذهبية ، فتعصبوا عليه .

وهنا أدت المناقشة العلمية إلى مهاترة فتجاوزت حدها . وإن الخلاف ربما لا يقف احياناً عند المباحثة العلمية ، فيلجأ المرء إلى العداء الشخصي فتتولد النفرة ، فيعدّ المناظر أن ذلك سوف يفقده مكانته ويضيع عليه منزلته .

كتب ابن دحية كتاب (الصارم الهندي في الرد على الكندي) ، ألفه لما ان حضر هو والتاج الكندي عند الوزير ابن شكر ولما بلغ ذلك الكندي عمل مصنفاً سماه (نتف اللحية من ابن دحية) . [3]

والموضوع لغويّ وكان الأولى ألا يتجاوز حدود ما ورد في اللغة ، والاستدلال بالنصوص ، ولكن النفسيات في تهيجها وحرصها قد تشذ عن الغرض .

---

(١) مختصر مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي اختصار القطب اليونيني ج ٨ ص ٤٦٢ طبعة أميركا .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٧ طبعة مصر سنة ١٢٧٧ هـ

(٣) كشف الظنون ج ٢ ص ٧٣ .

وفي معجم الادباء نعته ياقوت بالمحدث الفاضل ، ونقل عن ابن عنين الشاعر المولع بالهجو قوله :

دحيـة لم يعقب فلم تعتزي ... اليـه بالبهتان والافك
ما صحّ عند الناس شيء سوى ... أنك من كلب بلا شك (١)

٣— قيمة النقد الموجّـه عليه:

لا نريد أن نزكي ، أو ندافع ، وإنما نشاهد غالب النقد الموجه عليه شخصياً، ومجرداً . والسند في الحديث اليوم ، بل وفي عصر المترجم زالت قيمته بما دوّن من كتب الحديث المتداولة ، والرجوع اليها سهل ، وفي متناول كل أحد ، كما أن نقد الرجال ثابت في آثار عديدة ، من المتيسر الحصول عليها ، وان الحافظة يطرأ عليها بعض الضعف من تراكم المعلومات والاضطراب في التذكر . وهذا عيب محدود ، لا يؤاخذ عليه بهذه القسوة ، والنقد له ميزان في (الجرح والتعديل) والأمر - كما يظهر - ناشيء من منافسة دنيوية ، أو اختلاف في الاتجاه . وكان بعض انداده من المعاصرين يراعون التحزب والتعصب بكل شدة . هذا في حين أن صاحب (نفح الطيب) يذكر حادث اختباره . وظهور قدرته العلمية في الحديث.

والمؤرخون مجمعون على أنه رجل عظيم ، يعدّ بين أكابر رجال العلم ، وأعاظم المؤلفين ، ومشاهير الأدباء والمحدثين . وقد مضى الزمن الذي يقبل فيه القول من كل قائل بل يجب أن ينبه على جهات الغلط والنقص . ومن راجع تأريخ الرجل وهو موضوع بحثنا ، علم أنه لم يعدل في تاريخه عن بيان النص ، وإيراد مرجعه في مواطن تضطرب فيها الأوهام أو تلتبس الظنون . والأمور النقلية لا يطلب منها أكثر من تصحيح النقل .

---

(١) ارشاد الأريب ج ٧ ص ١٢٤ .

والنقد العلمي ما كان من ابن خلكان في بعض المواطن وقد أشرت اليها، ذكر النبراس وناقش بعض نصوصه مع التسليم له بالقدرة العلمية . ولم يسلك سبيل من سبقه من علماء.

هذا . وما يشاهد في الكتاب من لسان أدبي وسجع في الغالب لا يزال يراعيه الكثيرون من الكتاب إلى الآن ، إلا أن قدرة بيانه ، وقوة إفادته ، وتلاعبه في ضروب البلاغة ،وسيطرته على اللغة مما حبب الأسلوب ، وإن كان عصرنا ينبو منه ، فصار يؤخذ ، ولا ينفر منه، فلم يتعثر به المؤلف ، ولا أخفى المعاني تحت ستار السجع ، فكأنه جاءته عفواً ، وأتته طوعاً ، بلا تعب ولا عناء ، ولا زيادة كلفة أو تكلف .

٤ — أفراد أسرته :

وهنا أعين ما وصل إليّ خبره من أفراد أسرته فأقول :

١ ـ أخوه أبو عمرو عثمان بن الحسن، أسن، من أخيه أبي الخطاب ، وكان حافظاً للغة العرب ، قيماً بها . ولما عزل الكامل أبا الخطاب المذكور عن دار الحديث التي كان أنشأها بالقاهرة ، رتب مكانه أخاه المذكور ، ولم يزل الى أن توفي يوم الثلاثاء ١٣ جمادى الأولى سنة ٦٣٤ بالقاهرة ، وله رسائل استعمل فيها حوشي اللغة [1] . وقال ابن كثير : « وكان ندر في صناعة الحديث ايضاً رحمه الله تعالى » اﻫ [2]

٢ ـ شرف الدين أبو طاهر (أبو جعفر) محمد ابن صاحب النبراس . ولد سنة ٦١٠ ﻫ (١٢١٣ م) وسمع أباه وجماعة وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية مدة ، وكان فاضلاً ، مات في العشرين من شهر رمضان سنة ٦٦٧ ﻫ (١٢٦٩ م)

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٥٤٤ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٤٦ ونفح الطيب ج ١ ص ٣٧٢ .

بالقاهرة ودفن بالقرافة، قاله في عقد الجمان [1]. ومثله في ابن كثير. وجاء في (سماع التاريخ) أنه سمعه من أبيه، وكناه بأبي جعفر.

٣ ـ عبد السلام بن أبي الخطاب. ورد ذكره في منتخب المختار ص ١٠٩.

٤ ـ محمد بن شرف الدين. وهذا جاء عنه في سند سماعه في التأريخ الموضوع البحث بما نصـــه: «بلغته قراءة على سيدي والدي بسماعه له من السيد والده ـ رضي الله عنه وعنا ـ في مجالس آخرها من شهر جمادى الآخرة سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) وكتب محمد بن محمد بن دحية عفا الله عنه» اهـ.

ومن هذا كله نعلم بعض مشاهير الأسرة.

—٣—

تآليفـــه

١ ــ النبراس في تأريخ خلفاء بني العباس:

يدل على قدرته العلمية، ومكانته الأدبية، قال في مقدمته:

«ان المقام المولوي الأجلي السلطاني: الملكي الكاملي، سلطان الاسلام والمسلمين، ناصر الدنيا والدين، عز الملوك والسلاطين، ولي العهد. أبا المظفر محمد بن مولانا السلطان الأعظم ... الملك العادل ... سيف الدنيا والدين، خليل أمير المؤمنين، أبي بكر محمد بن السيد الأجل ملك الأمراء وأبي الملوك العظماء.. نجم الدين، ذي المروءة المرضية، والسيرة الرضية، أبي منصور أيوب بن شادي. سألني إملاء كتاب في التأريخ يصغر جرمه ويكثر علمه .. الخ» اهـ [2]

وهنا يعين من قدم الكتاب إلى جنابه ويبين منزلة المعروض إلى حضرته.

وأطال حتى قال:

(١) عقد الجمان ج ١٩

(٢) التأريخ نفسه ص ٢.

ه كان تقدم لي في التأريخ تواليف كثيرة ومصنفات مأثورة وأثيرة فاقتصرت الآن على تاريخ خلفاء بني العباس ، أولي الأصل الشامخ والفرع الثابت الأساس ، ففيها كفاية ، وهي اللباب وغيرها نفاية ، فذكرها أجدى من كل مطلوب ، وأندى على النفوس والقلوب ، من قوم ينتمون الى أكرم المناصب والمناسب ، يحيون بالريحان يوم السباسب[1] ، فرفعت بأسمائهم المنابر ، وتوفرت على صفاتهم الأقلام والمحابر ، وكانوا بالامامة أظهر البنين ، وقاربت مدة الخلافة فيهم خمسمائة من السنين ، فأتيت بالخبر من فصه ، وبالحديث على نصه ، أنظم تارة وأنثر ، وأمرّ هوناً في حديثهم ولا أعثر ، وذلك على الايجاز والاختصار ». وهكذا مضى .. وفي هذا ما يغني عن وصف الكتاب .

٢ — الخلفاء في تاريخ النبراس :

يوضح هذا ذكر أول خليفة ، فقد عين المراد بالسفّاح ووجه تلقيبه به ، وأطنب في حياته حتى أنهى خلافته ، فلم يترك لفظاً إلا أوضح معناه ولا حديثاً إلا قرر سنده وما قيل فيه ، ولا مرجعاً تاريخياً إلا ذكره ، ولا نقداً موجهاً على مؤرخ إلا أورده .[1]

وهكذا بيّن قوله في الخلفاء حتى الخليفة الناصر ، وفصل أخبارهم وأعمالهم وفي خلال ذلك رثى الخلفاء الماضين وندبهم ، ولسان حاله ينشد :

يا سائل الدار عن أناس ليس لهم نحوها معاد
مرّت كما مرّت الليالي أين جديس ؟ وأين عاد ؟

وبعد أن مدح الخليفة الناصر تكلم عليه بلسان أدبي فقال :

« وزعم المؤرخون أنه كان أيضاً يملأ القلوب رعباً ، ويسوم أصحابه قتلاً وصلباً ، مع الطمع في المال ، وعدم النظر في عقبى المآل .. » اهـ

(١) يوم الشعانين ، عيد لملوك العجم يعرف بالنيروز والمهرجان . (هامش الأصل) .
(٢) النبراس ص ٥

وبيانه في سائر الخلفاء مما تغني مطالعة الكتاب عن الاطناب فيه وقد طبع وصار في متناول القراء الأفاضل .

ثم التجأ الى الله ، وسأله العفو عن الاساءة وطلب المغفرة . ـ رحمه الله ـ .

هذا . وكل التحريات في الآثار لم نظفر منها بطائل في وصف النبراس أو نقده والكلام عليه إلا ما ذكره ابن خلكان ، وإلا ما أورده العلامة المقري في (نفح الطيب فقال :

« ما أحسن قول أبي الخطاب ابن دحية الحافظ » بعد كلام ما صورته (ثم ذكر ما ذكرته في النص المبين أعلاه ، وقال) : « وهو آخر كتابه النبراس في تاريخ بني العباس وذكرته بطوله لمناسبة وقد سلكت هذا المنحى نظماً في خطبة هذا الكتاب . . » اه (1)

٣ — مراجع النبراس :

رجع المؤلف في كتابه النبراس الى كتب تاريخية عديدة ومهمة ، منها المتداول المعروف مثل المعارف لابن قتيبة ، وكتاب ابن واضح والمسعودي إلا أن التواريخ الأخرى لا تزال في طي الخفاء ، او مطمورة في زوايا الاهمال ، وبينها ما نحن في حاجة ماسة اليه ، والاطلاع على نصوصه للاستفادة منه ، والاستقاء من معينه ، وإذا كنا عرفنا أن هذه الآثار لأكابر المؤرخين ، ونوابغ المؤلفين في عصور النهضة العربية ، وأيام التكامل الاسلامي علمنا أنها تستحق كل عناية ورعاية ، بل تستدعي البحث الصحيح والتحري الصادق في الاهتمام بشأنها وإحيائها .

وإني أذكر جملة من هؤلاء المؤرخين الذين ورد ذكرهم في النبراس :

١ ـ ابن أبي خيثمة . الامام أبو بكر أحمد بن زهير بن حرب بن أبي خيثمة

---

(1) نفح الطيب ج ٣ ص ٦٢ .

النسائي البغدادي ، وترجمته في الخطيب البغدادي (ج ٤ ص ١٦٢) . توفي في جمادى الأولى سنة ٢٧٩ هـ ـ ٨٩٢ م . قال الخطيب : وله كتاب التأريخ الذي أحسن فيه وأجاد . وفي تذكرة المخطوطات ذكر النسخ الموجودة منه . ووالده زهير له (كتاب العلم) عندي نسخة منه . وفي الظاهرية نسختان منه في مجموعة ٩٤ و ١٢٠

٢ ـ الطرقي . وهو الحافظ موفق الدين أبو نصر أحمد بن محمد . وله (كتاب بيان الفرقة الناجية) . ذكره في معجم البلدان في مادة (طرق) ، ولم يعين تأريخ وفاته . وفي لسان الميزان ج ١ ص ١٤٣ سماه أحمد بن ثابت . والظاهر أنه غيره . ونقل عن أنساب السمعاني ص ٣٧٠ ـ ١ وعدّه ياقوت من المتأخرين في حين أن ذلك توفي بعد سنة ٥٢٠ هـ .

٣ ـ ابن حزم . نقل في النبراس عن كتابه (نقط العروس في غريب التواريخ) وعندي نسخة منه وهو تأريخ صغير . وترجمته في ابن خلكان ج ١ ص ٤٨٣ . توفي سنة ٤٥٦ هـ ـ ١٠٦٣ م وكتابه الملل والنحل طبع مرات .

٤ ـ أبو عبد الله بن أبي مريم . سعيد بن الحكم المعروف بـ (ابن أبي مريم) وله تأريخ مصر . توفي سنة ٢٢٤ هـ ـ ٨٣٨ م . وترجمته في تهذيب التهذيب ج ٤ ص ١٧ و ٨٢ وفي معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٣٨ ، وفي فهرست ابن النديم ، وفي حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٦ .

٥ ـ ابن خدّاع . وله (كتاب المعقبين من ولد أبي طالب) .

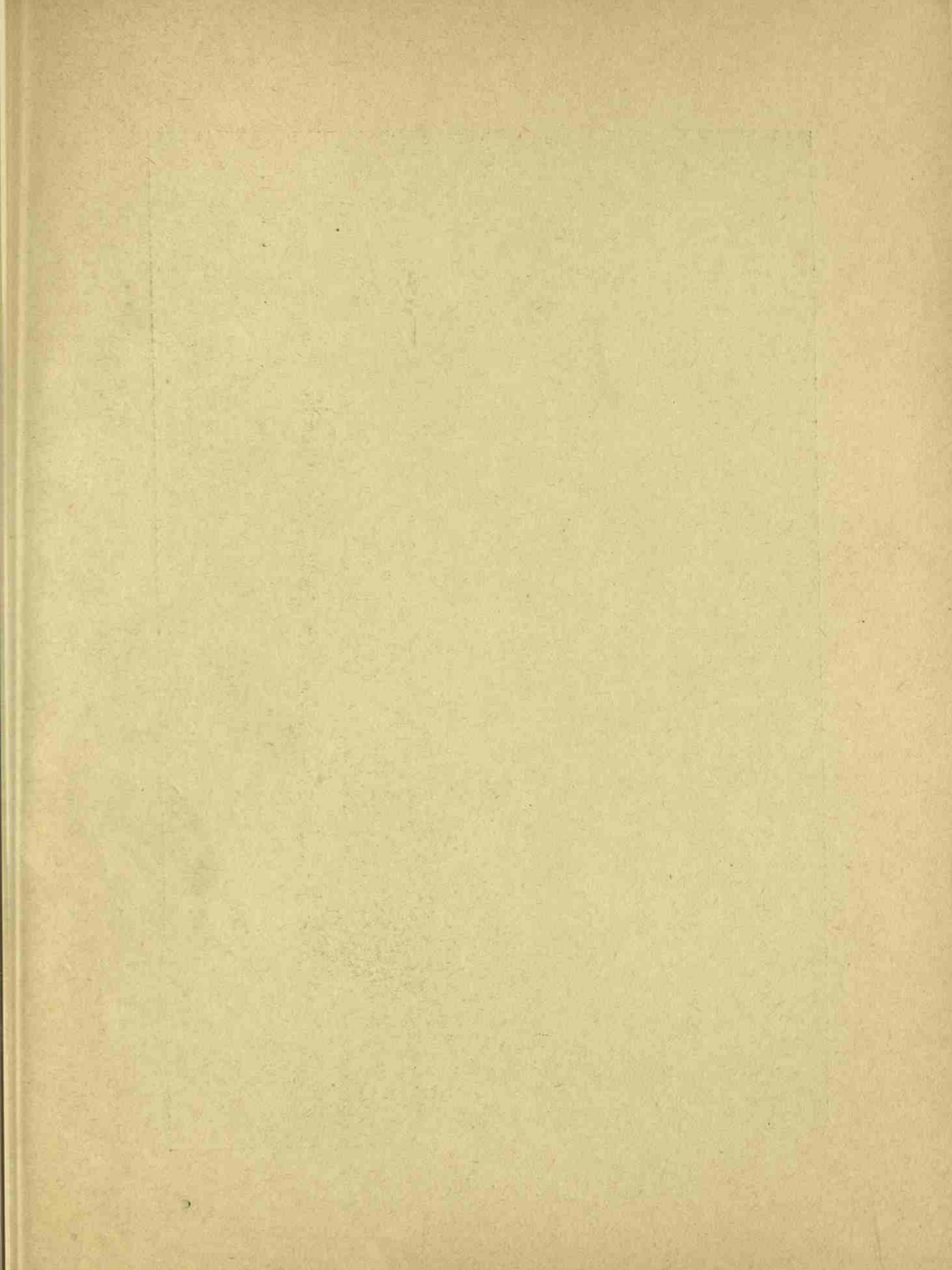
٦ ـ الطرطوشي . أبو بكر محمد بن الوليد القرشي الفهري المالكي الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ ـ ١١٢٦ م . وترجمته في نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٨ ، وفي الشذرات ج ٤ ص ٦٢ ، وفي ابن خلكان ج ١ ص ٦٠٦ ، وفي معجم الأدباء

لا إله إلا الله محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مالك الملك ومؤتيه، ومنتزعه ممن يشاء
ومعطيه، ومعز من يشاء من عباده ومغنيه، ومذل من
يشاء منهم ومقصيه، الملك الحق في الدنيا والآخرة يوم
تخشاه الملوك وترتجيه، المتفرد برداء الكبرياء الذي قصم
من نازعه رداءه أو يبتغيه، المخصوص بالعظمة التي هي فوق
كل عظمة على ما يشتهيه، رب العزة التي جاء سلطانها
تأبى من يبتغيه، ذي الجلال والإكرام الذي
أنشأ الممالك والملوك على ما يقدره فيهما ويقتضيه
والصلاة على سيد ولد آدم محمد أشرفه على نجيبه
وتوجيه، المستهتر بأمر الله وتوفيقه، والقائم

٢ — الصفحة الأولى من أصل الكتاب



ج ٣ ص ٥٢٩ وكتابه (سراج الملوك) طبع مرات . وفي معجم المطبوعات بيان طبعاته .

٧ ـ أبو بكر أحمد بن كامل القاضي . يعدّ من مجتهدي القضاة . توفي سنة ٣٥٠ هـ ـ ٩٦١ م . قال المؤلف : من ثقات علماء التأريخ . وترجمته في الخطيب البغداديّ ج ٤ ص ٣٥٧ ، وينقل منه الخطيب كثيراً . وفي معجم الأدباء ج ٢ ص ١٦ . ومن مؤلفاته كتاب التأريخ ، وأخبار القضاة .

٨ ـ أبو القاسم الأصبهاني . عالم أصبهان ، إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني وله (كتاب سير السلف) من أجلّ الآثار . منه نسخة في خزانة الأوقاف ببغداد كتبت سنة ٧٧٧هـ وبرقم ١٢٧٨ وأخرى في خزانة راغب باشا باستانبول ورقمها ١٠١٧ كتبت سنة ٩٩٣ هـ . وفي الكتاب ترجمة والده .

٩ ـ العباس بن محمد . ذكره في صفحة ١٠٨ وذكره في الاعلان بالتوبيخ وبين أنه أندلسي كما في ص ١٥٥

١٠ ـ محمد بن عبد الملك الهمذاني . وله من المؤلفات (عنوان السير) ، والذيل على تأريخ أبي شجاع محمد بن الحسين الهمذاني المتوفى سنة ٥٠٩هـ ـ ١١١٥م وقد ذيّل على كتاب الوزراء للصوليّ ، وذيل على تأريخ الطبري . وتوفي سنة ٥٢٦ هـ ـ ١١٣٣ م .

١١ ـ المأموني أو ابن المأمون . وهو الشريف أبو محمد هارون بن العباس ابن المأمون ، توفي سنة ٥٧٣هـ ـ ١١٧٧ م ، وتأريخه أكمل به تأريخ أستاذه ابن الزاغونيّ المتوفى سنة ٥٢٧ هـ ـ ١١٣٢ م على السنين ، ألفه ومضى به الى قريب من وفاته .

١٢ ـ أبو إسحاق بن حبيب . وهو أبو إسحاق ابراهيم بن حبيب بن الشهيد

الأزدي مولاهم وجاءت ترجمته في (تهذيب التهذيب) ج ۹ ص ۱۱۳ ، ومن مؤلفاته التي نقل منها ابن دحية (تأريخ البصرة) ، و (لوامع الأمور وحوادث الدهور) جاء ذكره في ص ۱۱۲ أيضاً وفي هذا تصحيح لما جاء في (كشف الظنون) . توفي سنة ۲۰۳ هـ - ۸۱۸ م .

۱۳ - ابن زولاق . وهو أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق المصريّ . وله (أخبار قضاة مصر) . وجاء ذكره في صفحات عديدة من النبراس ، وتعرّض له في كشف الظنون في تواريخ مصر ، وكذا في (الاعلان بالتوبيخ) . وتوفي سنة ۳۸۷ هـ - ۹۹۷ م . وترجمته في ابن خلكان ج ۱ ص ۱۸۸ . وفي معجم الأدباء ج ۳ ص ۷

١٤ - ابن الأعرابي . هو ابو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيي ابن الأعرابي وله (كتاب الفاضل) .

١٥ - الزبير بن بكّار . وله أنساب قريش ، منه نسخة مخطوطة في خزانة راغب باشا في إستانبول ، وجاء ذكره في نوادر المخطوطات ، وترجمته في ابن خلكان ج ۱ ص ۲٦٥ ، وفي معجم الأدباء ج ٤ ص ۲۱۸ . توفي سنة ۲٥٦ هـ - ۸٦۹ م .

١٦ - الهيثم بن عدي . وهو طائي . نقل من تأريخه وقال : متهم بالكذب عند العلماء . ونبّه على جرحه في صحيفة ١٦٥ وله تواريخ عديدة ولعلّ المراد تأريخه على السنين ، وجاء ذكره في الاعلان بالتوبيخ ص ١٥٩ وترجمته في ابن خلكان ج ۲ ص ۳۰۲ ، وفي معجم الأدباء ج ۷ ص ۲٦۱ . توفي سنة ۲۰٦ هـ - ۸۲۱ م .

وفي هذه المراجع ما يجلو صفحة عن جملة من مؤرخينا ، وجاء فيه ذكر مؤرخين معروفين مثل ابن واضح وابن قتيبة والمدائنيّ والمسعوديّ وأبي الفضل

الغزنوي البغدادي وغيرهم ممن أوضحت عنهم في الهامش عند ورود ذكرهم . فاذا كان العظيمي اعتمد تواريخ مهمة ، فان ابن دحية عوّل على أخرى فتكون لنا منها مجموع كبير .

٥ — سماع الشيوخ :

جاء في صفحة من هذا الكتاب خارجة عن أصله :

« سمع جميع هذا المجلد المشتمل على تأريخ خلفاء بني العباس على ممليه ـ رضي الله عنه ـ وأرضاه السادة العلماء :

منهم الفقيه الأجلّ الشريف العالم قوام الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن محمود بن محمد الحسينيّ الاسكندريّ .

والأمير الأجل الاسفهسلار ضياء الاسلام بهاء الدين الحسيب أبو الفوارس ابن الأمير الأجلّ العالم الأكمل الاسفهسلار عضد الدين أبي الحمائل مرهف ابن أسامة بن مرشد بن عليّ بن منقذ الكلبيّ .

والفقيه الأجل العالم سراج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن الفقيه الأجل القاضي أبي سليمان داود بن أمير الناس الصنهاجي .

والفقيه الأجل العدل شهاب الدين شبل بن أسد الشافعي .

والشيخ الأجلّ معين الدين أبو المعالي موسى بن الشيخ الفقيه الزاهد المقري النحوي أبي الحسن علي بن عمار الأنصاري ، وجماعة آخرون منهم من سمع كله ، ومنهم من سمع بعضه مذكورون في غير هذا الموضع . وذلك بقراءة كاتب الأصل والسماع العبد الفقير الى عفو الله ورحمته محمد بن علي بن محمد الأنصاري.[١]

وأغفل ذكر الحافظ العالم النحوي الأصولي شمس الدين أبي محمد عبد الله ابن

---

(١) هو والد المذكور في مجلة المجمع العلمي العربي ج ٢٠ ص ٥٢٤ في مقالي عن البرزالي

الشيخ أبي الحجاج يوسف بن عبد الله الجذامي ، ويعرف بابن اللمط ، قريب السيد الامام العالم الحسيب النسيب ذي النسبين الطاهرين ابن دحية والحسين - رضي الله عنهما . فانه جمعه كله بقراءتي مراراً منها غرة جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وستمائة .

وهذه القراءة الأخيرة كانت لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام أربعة عشر وستمائة .

والحمد لله وصلاته على محمد . » اهـ .

وجاء في آخر الكتاب :

« قرأت جميعه على مؤلفه الشيخ الامام الحافظ ، ملك الحفاظ ، شرف المحدثين ، سلطان العلماء ذي النسبين الطاهرين ابن دحية والحسين - رضي الله عنه - وأبناه مراراً وآخرها في العشر الأول من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة وستمائة . وكتب محمد بن عبد الله بن محمود بن محمد الحسيني بعد حمدالله والصلاة على محمد نبيه وآله والسلام .

وسمعه بقراءتي الشريف الأجل جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز (كلمة لم تقرأ) في المرة الأخيرة .

وسمعه أيضاً الفقيه الحافظ العالم شمس الدين أبو محمد عبد الله بن الشيخ أبي الحجاج يوسف الجذامي قريب المؤلف في التأريخ . والحمد لله وحده . » اهـ

وجاء أيضاً :

« قرأ جميع هذه المجلدة من لفظه على مصنفه (وذكر نعوته المبينة أعلاه) ولده السيد الشريف الامام الحافظ الفاضل شرف الدين أبو جعفر محمد ، أمتعه الله بالعلم ، وزينه بالحلم ، في مجالس عدة ، آخرها يوم الجمعة العاشر من ربيع الآخر

سنة ثلاثين وستمائة (كلمة لم نقرأ) كلام المصنف بالقاهرة المحروسة . » اهـ

ومن هذا علمنا من كانت له رغبة في التأريخ، فأخذ، كما عرفنا كاتب الكتاب.

مؤلفاته الأخرى

وللمؤلف في التأريخ تواليف كثيرة، ومصنفات مأثورة وأثيرة، غير النبراس ومن مؤلفاته التي عرفناها :

١ ـ التنوير في مولد السراج المنير . كانت عندي نسخة منه في مجموعة، فلم يتيسر لي العثور عليها وجاء ذكر النسخة في كشف الظنون وفي نفح الطيب ص ٣٧٧ .

٢ ـ كتاب العلم المشهور في فضائل الأيام والشهور . ذكره المؤلف خلال سطور تأريخه النبراس مراراً، ونقل من الجلد السادس منه .

٣ ـ الصارم الهندي في الرّد على الكندي . وقد ردّ عليه الكندي [1] في رسالة سماها (نتف اللحية من ابن دحية) كما مرّ .

٤ ـ المستوفى من اسماء المصطفى . ذكره في كشف الظنون وقال : لخصه القاضي ناصر الدين ابن الملبق في كراسة كما ذكره السخاوي في القول البديع، وأشار اليه أيضاً في الاعلان بالتوبيخ ص ٩٠ .

٥ ـ المعراج . ذكره في الاعلان أيضاً ص ٩١ .

٦ ـ كتاب سلسلة الذهب في نسب سيد العجم والعرب . ذكره في ص ١٩.

---

(١) الكندي أبو اليمن تاج الدين زيد بن الحسن البغدادي ثم الدمشقي النحوي . ولد ببغداد سنة ٥٢٠ هـ وتوفي بدمشق سنة ٥٩٧ هـ وترجمته في معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٢٢ . وجاءت ترجمته موسعة في مقال للاستاذ محمد أحمد دهمان في مجلة المجمع العلمي ج ٢١ ص ٢٤٨ وهناك تصحيح تأريخ وفاته.

٧ ـ الآيات البينات في ذكر ما في أعضاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المعجزات . ذكره في نفح الطيب .

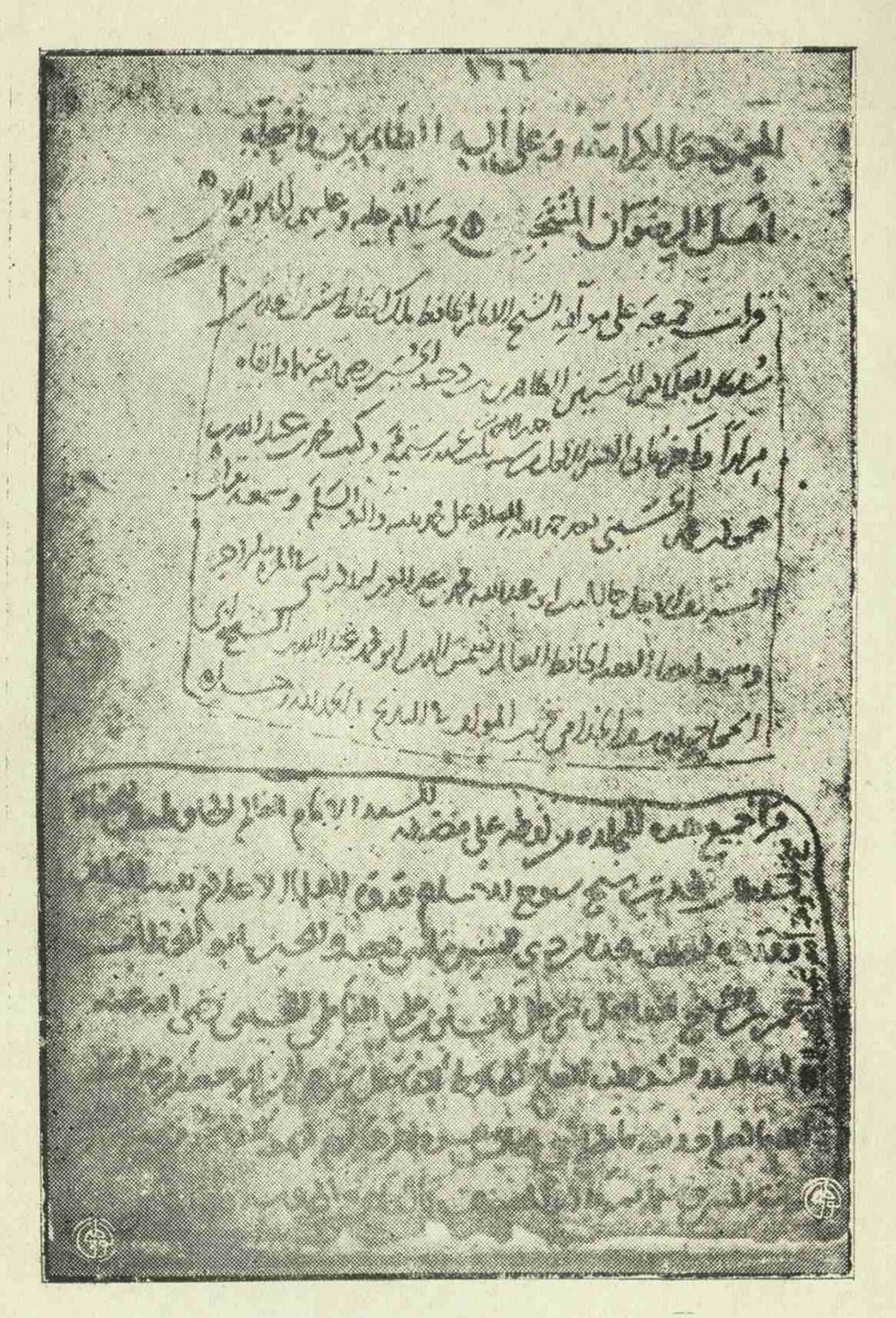
٨ ـ كتاب شرح أسماء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

٩ ـ كتاب الاعلام المبين في المفاضلة بين أهل صفّين . ذكره في نفح الطيب.

١٠ ـ كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب . ذكر أدباء كثيرين منهم ابن زهر الأندلسي ، وابن دحمان المالقي ، والفتح بن خاقان ، وابن سعيد الاشبيلي وكثيرين . ذكره في كشف الظنون. وفي ابن خلكان في ترجمة الفتح بن خاقان ج ١ ص ٥٨٠ .

ولعل الأيام تكشف عن باقي آثاره ، فتبرز للوجود فنعلم درجة النقد الموجه عليه وقيمته العلمية أكثر . والله ولي الأمر .

(بغداد) عباس العزاوي



المحبو بالكرامة، وعلى آله الطاهرين وأصحابه

أهل الرضوان المنتجبين، وسلام عليه وعليهم أجمعين

٣ — آخر صفحة من أصل الكتاب

لا إله الا الله محمد رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم



الحمد لله مالك الملك ومؤتيه، ومنتزعه ممن يشاء ومفنيه، ومعزّ من يشاء من عباده ومدنيه، ومذلّ من يشاء منهم ومقصيه، الملك الحق في الدنيا والآخرة يوم تخشاه الملوك وترجيه، المتفرد برداء الكبرياء، الذي يقصم من نازعه رداءه أو يدعيه، المخصوص بالعظمة التي هي فوق كل عظمة على ما يقتضيه رب العزة التي حسام سلطانها سابق من ينتضيه. ذي الجلال والاكرام، الذي أجرى المالك والمملوك على ما يقدره فيهما ويقضيه، والصلاة على سيد ولد آدم محمد أمينه على وحيه ومؤدّيه، المنتهض بأمر الله العظيم وموفيه، والقائم بما يظهر الله به الدين القيم ويعليه، الذي آتاه الله الكتاب والحكمة والملك العظيم وارثاً جده ابراهيم إذ هو سيد بنيه، وجعل الخلافة في أهل بيته وهم خلائف الأرض فيما ينصر الدين ويحميه، صاحب المقام المحمود يوم يكون كل أحد مرتهناً بما فيه، وصاحب الحوض المورود يوم تدنى الشمس من الخلق ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه، صلى الله عليه صلاة تيسر المزيد لصاحبها وتسنيه، وعلى آله وصحبه السارعين الى ما يؤثره ويرضيه.

أما بعد فان المقام المولوي الأجليّ السلطاني الملكي الكاملي سلطان الاسلام والمسلمين ناصر الدنيا والدين، عزّ الملوك والسلاطين، ولي العهد الذي لم تزل مخايل الملك لائحة بين عينيه مذ كان في المهد ظهير أمير المؤمنين، السامي الجناب

الهامي الرباب ، المتبلجة صفحات مجده ، المتأرّجة نفحات حمده ، المتجاوز مناط الجوزاء المجرر على المجرّة أذيال السمو والعلاء ، أبا المظفر محمد[1] ابن مولانا السلطان الأعظم الذي خضعت لعظمته الأملاك ، وكان به القوام والملاك الملك العادل[2] ، المحامي عن الدين والمناضل، المجاهد المرابط سيف الدنيا والدين، خليل أمير المؤمنين أبي بكر محمد ابن الصيّد الأجل ملك الأمراء وأبي الملوك العظماء نجم الدين ذي المروءة المرضيّة ، والسيرة الرضية أبي منصور أيوب ابن شاذي خلد الله سلطانه، وأوضح بين الملوك برهانه ، وخفض شانيه ورفع شأنه ، ومكنه في الأرض وأسمى في السماء مكانه ، سألني إملاء كتاب في التأريخ يصغر جرمه ، ويكثر علمه ، إذ بالتاريخ تعرف المناقب والمفاخر ويدرك العلم الأول والآخر .

فكل علم من التاريخ يستنبط، وحسبه ذا الفخر فقط ، إذ أوّله بدء المخلوقات وخلق الأرضين والسموات ، ومعرفة السابق منها واللاحق ، وتقدير الأقوات للناطق وغير الناطق ، ومعرفة عدد الأيام التي تختص منها بكل مخلوق ، والأزمان المخصوصة بالسابق في الخلق والمسبوق ، فلولا التأريخ ما عرف أن الأرض قبل السماء مخلوقة ، ولا أن الأرض في بدء الخلق سابقة والسماء مسبوقة ، ولا عرف أن خلقها كان في ستة أيام ، وخلق فيها مبادىء موجودات ساير الأنام ، وأن هذه الأيام بينها في الخلق متوزعة ، وعلى تقدير المخلوقات والأقوات متنوعة ، فاختصت الأرض في الخلق والدّحو وإخراج المرعى وإرساء الجبال بأربعة أيام

---

(١) هو الملك الكامل وترجمته في ابن خلكان ج ٢ ص ٧٢ طبعة بولاق سنة ١٢٧٥ ﻫ .

(٢) الملك العادل بويع له بالملك سنة ٥٩٦ ﻫ ــ ١١٩٩ م ، ولابنه الملك الكامل بولاية العهد . وتوفي العادل في ٧ جمادى الآخرة سنة ٦١٥ﻫ ــ ١٢١٨ م فخلفه ابنه المذكور وتوفي في ٢٢ رجب سنة ٦٣٥ ﻫ ــ ١٢٣٨ م وهو الذي قدم له هذا الكتاب أيام ولاية عهده . وترجمة الملك العادل في ابن خلكان ج ٢ ص ٦٩

والسماء بيومين ، على ما فسره ابن عباس للكتاب العزيز بلا ريب فيه ولا مين .

وكذلك لولاه ما عرفت أوقات الرسل وأزمانهم ومواضعهم التي دعوا فيها إلى الله تعالى وأوطانهم وشرائعهم المخصوصة بكل منهم وأديانهم ، والعقوبات الحالّة بمن خالفهم من الطغاة ، والساعات التي حلّ فيها العذاب بالعصاة .

وفيه من التبحر في علم الحديث والرسوخ ، ومعرفة الناسخ فيه من المنسوخ ، والتعديل والتجريح ، والحديث المعلّ والصحيح[1] ، والمواليد والوفيات ، والمحيا والممات .

ثم الفقه منه في الاتفاق والاختلاف يستشار ، والفصاحة فيه من الألسنة تستثار ، وأصحاب القياس عليه يبنون ، وأصحاب المقالات به يحتجون ، وثمار معرفة الناس منه تخترط ، ودرر أمثال الحكماء منه تلتقط ، ومكارم الاخلاق ومعاليها منه تقتبس ، وأدب سياسة الملوك وحيل الحروب منه تلتمس ، وكل غريبة منه تعرف ، ومن بحره تغرف ، وكل أعجوبة منه تستطرف .

وهو علم يستمتع بسماعه العالم والجاهل ، ويستعذب موقعه العاقل والغافل ، ويأنس الخاصّي والعاميّ بوروده من مكانه ، ويرتع العربي والعجمي في رياض بيانه ، وبه يستدل على فعل الله جلّ وعز بالأمم السوالف ، ويجري بذلك اعتبار الخالف بالسالف . ويوصل به كل كلام ، ويدخل في كل مقام ، ويتجمل به في كل محفل وناد ، وحاضر وباد .

ففضيلته في العلوم صحيحة بينة ، وله على فضله شهود بينة ، وكفاه أنه أسّ معرفة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاعدة أصلها وما لا يكاد محدث يستغنى عنه في بعض علومه بل في كلها .

وقد كان تقدم لي في التأريخ تواليف كثيرة ، ومصنفات مأثورة وأثيرة ،

---

(١) المفعول من العلة معل ، والمعلول هو الذي سقي العلل وهو الشراب الثاني (هامش الأصل)

فاقتصرت الآن على تأريخ خلفاء بني العباس ، أولي الأصل الشامخ الفرع الثابت الأساس ، ففيها كفاية ، وهي اللباب وغيرها نفاية ، فذكرها أجدى من كل مطلوب ، وأندى على النفوس والقلوب ؛ من قوم ينتمون إلى أكرم المناصب والمناسب يحيّون بالريحان يوم السباسب (١) .

وقد نطق بخلافة أهل البيت القرآن العظيم ، في قول الله وهو العزيز الحكيم ، يخاطب نبيه محمداً عليه الصلاة والتسليم ، ومعرضاً بقومه وأهل بيته الذين لهم الحسب الصميم ، والشرف القديم ، حيث قال : « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض (٢) ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » .

والحكمة في ذلك أن يذكرهم نبيه وصفيه وعبده محمد العربيّ القرشيّ الكريم ، فأصبح ذكرهم تاج الأذكار ، وأمسى سراج الاذكار ، فرفعت بأسمائهم المنابر ، وتوفرت على صفاتهم الأقلام والمحابر ، وكانوا بالامامة أظهر البنين ، وقاربت مدة الخلافة فيهم خمسمائة من السنين .

فأتيت بالخبر من فصّه ، وبالحديث على نصه ، أنظم تارة وانثر ، وأمرّ هوناً في حديثهم ولا أعثر ، وذلك على الايجاز والاختصار ، وأصرف إلى ذكر آبائهم دون امهاتهم عنان الاقتصار ، رغبة في ذكر الرجال عن النساء . مع أن أكثرهم من الاماء ، فذكر الرجال أليق بشرفهم في النجوى ، « ادعوهم لآبائهم هو اقرب للتقوى » .

وكذلك الدعاء بالآباء يوم القيمة ، على ما ثبت في الصحيحين عن نبيّ الهدى

---

(١) يوم السباسب هو يوم الشعانين عيد لملوك العجم يعرف بالنيروز والمهرجان (من هامش الأصل)

(٢) خلائف جمع خليفة وخليف جمع خلفاء ، والمصدر الخلافة والخليفى (من هامش الأصل)

والـكرامة ، والحديث في دعاء الناس بالأمهات من الموضوعات . ترجم البخاري في صحيحه في كتاب الأدب :

باب: يدعى الناس بآبائهم. حدثنا مسدد ، قال: حدثنا يحيى عن عبدالله عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال: ان الغادر ينصب له لواء يوم القيمة فيقال: هذه غدرة فلان ابن فلان. وفي رواية منه (يرفع) وقد رواه القعبني عن مالك عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر مثله سواء .

وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب القضاء بأسانيد منها . قال: وحدثنا محمد بن عبد الله بن محمد واللفظ له، قال: حدثنا أبي قال: حدثنا عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيمة يرفع لـكل غادر لواء فقيل هذه غدرة فلان ابن فلان فهو حديث صحيح باتفاق العلماء ، وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لـكل غادر لواء عند استه يوم القيمة[١] .

فأول الخلفاء

أبو العباس عبدالله

ابن الأمير السيد الشريف الامام العدل المحدث أبي عبد الله ابي إبراهيم محمد[٢] وكان إماماً عالماً محدثاً عدلاً حدث عنه من الأئمة جماعة منهم هشام بن عروة ابن الزبير . وذكره الدارقطني فيمن انفرد به مسلم في صحيحه، وقال الحاكم: هو ممن اتفقا عليه والصواب ما وافقه عليه الامام أبو الحسن الدارقطني ابن الامير

---

(١) صحيح مسلم ج ٢ ص ٤٧ طبعة بولاق سنة ١٢٩٠ هـ

(٢) افرده بالتأليف أبو الحسن علي بن محمد المدايني المتوفى سنة ٢٢٩ هـ ـ ٨٤٤ م ذكره في فهرست ابن النديم ص ١٤٨ وترجمته في ابن خلكان أيضاً ج ١ ص ٦٤٨

السيد الشريف الامام أبي محمد في قول الزبير بن بكار وأبي عبد الله في قول الهيثم بن عدي، ولد ليلة قتل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة (٦٦١ م)(١) فسمي باسمه(٢) وكان أصغر ولد عبد الله سناً وكان إماماً عالماً محدثاً زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة يسجد كل يوم ألف سجدة أسند ذلك من طرق الامام الحافظ أبو نعيم في كتاب الحلية له(٣)

وحدثنا جماعة من شيوخنا ـ رحمهم الله ـ عن الثقة أبي عليّ الحداد قال: سمعت الحافظ أبا نعيم يقول: حدثنا أحمد بن محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن إسحق الثقفي قال: حدثنا محمد بن زكريا قال: حدثنا محمد بن عبد الرحمن التيمي قال: حدثني أبي عن هشام بن سليمان المخزومي أن عليّ بن عبد الله بن العباس كان إذا قدم مكة حاجاً أو معتمراً عطلت قريش مجالسها في المسجد الحرام وهجرت مواضع حلقها ولزمت مجلس علي بن عبد الله إعظاماً وإجلالا وتبجيلا، فان قعد قعدوا، وان نهض نهضوا، وإن مشى مشوا جميعاً حوله. وكان لا يرى لقرشي في المسجد الحرام مجلس يجتمع إليه فيه حتى يخرج عليّ بن عبد الله من الحرم.

روى عنه جماعة من التابعين، منهم الزهري وسعد بن ابراهيم. ومنصور بن المعتمر وعبدالله بن أبي بكر والمنهال بن عمرو، وحدث عنه أولاده محمد وداود وعيسى وسليمان وصالح.

أسند عامة حديثه عن أبيه الامام عبد الله بن العباس رضي الله عنه وهو

---

(١) ذكرت ما يقابل السنين الهجرية من السنين الميلادية بين قوسين

(٢) أفرده المدائني بالتأليف أيضاً كما في الفهرست لابن النديم ص ١٤٨

(٣) كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم تم طبعه بمصر في مطبعة السعادة سنة ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨م بنفقة مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة

الامام ابو العباس عبدالله بن العباس (١) بن عبد المطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصي بن كلاب القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم والملازم له وخالته ميمونة بنت الحارث الهلالية تحته فكان يلج بيته ويبيت من أجل ذلك فيه معه وتعلم منه صلاة الليل وكيف سنة المنفرد مع الامام فانه قام عن يسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ففتل اذنه واداره عن يمينه.

وفيه من الفقه أن العمل القليل في الصلاة لا يبطلها وانما حوله من وراء ظهره لأنه صلى الله عليه وسلم كان في الصلاة فلو حوله الى الشق الأيمن من بين يديه لكان ماراً بين يدي المصلي وذلك منهي عنه.

ودعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم لما جعل له وضوءاً حين دخل الخلاء فقال اللهم فقهه في الدين هكذا في صحيح البخاري في كتاب الوضوء في باب

(١) العباس بن عبد المطلب عم النبي (ص) جاءت كتب عديدة في مناقبه :

١ ـ كتاب ابي بكر ابن ابي الدنيا

٢ ـ كتاب الحسين بن المظفر

٣ ـ كتاب ابي القاسم حمزة بن يوسف السهمي

٤ ـ مناقب العباس لابي طاهر السلفي

٥ ـ كتاب ابي القاسم اسماعيل بن احمد السمرقندي المسمى (فضائل العباس) وهذا خرج منه ابو منصور بن علي الجرباذقاني (عروس الاجزاء) رأيته في مجموعة رقم ١٧ من قسم الحديث في الخزانة الظاهرية

٦ ـ الايناس في مناقب العباس لابن الساعي

٧ ـ الايناس لابن حجر

٨ ـ عمدة الناس في مناقب العباس للسخاوي صاحب الضوء اللامع ومنه نسخة في فهرس دار الكتب المصرية (ج ٥ ص ٢٧٢)

وفي رجال الحديث قد تكرر ذكر ترجمته وفي الموجود من الآثار ما يعين مكانته. والمؤلف لم يتعرض لتفصيل حياته ، وان من اقدم من كتب في حياته المدايني ذكره في الفهرس ص١٤٨ ولهشام الكلبي اخبار العباس في فهرس ابن النديم ايضاً ص ١٤٠

وضع الماء عند الخلاء ، وفي صحيح مسلم مثله ذكره في المناقب في فضائل عبدالله بن عباس اللهم فقهه في الدين (١) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم علمه الكتاب ، ترجم عليه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة والكتاب القرآن العظيم باجماع من الصحابة الكرام فكان أعلم الناس به .

وكذلك دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم علمه الحكمة ذكره البخاري في صحيحه في المناقب والحكمة السنة قال الله العظيم مخاطباً لأزواج نبيه عليه الصلاة والتسليم « واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة » .

قال مجاهد كان ابن عباس يسمى البحر لكثرة علمه . وقال عطاء بن أبي رباح ما رأيت مجلساً اكرم من مجلس ابن عباس اكثر فقهاً واعظم جفنة وان أصحاب القرآن عنده واصحاب الفقه عنده وأصحاب الشعر عنده يصدرهم كلهم في واد واسع .

قال ذو النسبين ايده الله وصفه بالعلم والكرم فانهم كانوا يسمون الرجل الكريم جفنة وهو أحد أئمة الصحابة فى تعديل المحدثين وتجريحهم على ماثبت عنه في مقدمة صحيح مسلم ، وكان شجاعاً حضر مع علي رضي الله عنه الجمل وصفين وقاتل فيها قتالا شديداً . ولد بالشعب ايام حصار قريش لرسول الله صلى عليهوسلم ولبني هاشم وبني المطلبوذلك قبل الهجرة بثلاث سنين فحنكه رسول الله صلى الله عليه وسلم بريقه المقدس وازجاه لا نعلم احداً حنك بريق النبوةغيره اسنده الطبراني . قلت فلزيادة علمه وفهمه يرجع اليه كبار الصحابة رضي اللهعنهم في عضل المسائل ومشكلات الحوادث كعمر ابن الخطاب رضي الله عنه فى علمه وفضله فمن دونه ، وهو الذي حفظقصيدة عمر بن أبي ربيعةمن سمعة واحدة :

---

(١) صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٥٧ طبعة بولاق سنة ١٢٩٠ ه

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غدٍ أم رائح فمهجّر ؟

وكان زاهداً في الدنيا ، راغباً في الآخرة ، سئل الخلافة فامتنع منها ، وكان أجمع الناس لشروط الخلافة لكنه صدف عنها ، وأثنى على ابن الزبير ، وذكر حسبه من جميع الأطراف من جدٍ وهو الصديق صاحب الغار وجدّة وهي عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية بنت عبد المطلب وأب وهو حواريّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمّ وهي أسماء ذات النطاقين وخالة وهي أمّ المؤمنين عائشة. ثم عفيف في الاسلام ، قارىء للقرآن على ما ذكره البخاريّ في صحيحه في التفسير في باب قوله تعالى : « ثاني اثنين إذهما في الغار » ثم بايعه على رغم كثير من المهاجرين والأنصار ،فجزاه جزاء سنمار ، فأخرجه من مكة موضع رياسة أبيه وجدّه ، وأبعده عنه وبئس ما صنع في بعده . فاجتمع عليه آلاف من طلبة العلم والحسب من قريش وسادات العرب فخاف منه ابن الزبر فبعث اليه قاضيه أبا بكر وقيل يكنى أبا محمد عبدالله بن أبي مليكة القرشيّ التيميّ فقال له فيما حكاه البخاريّ أيضاً في صحيحه منفرداً به أتريد أن تقاتل ابن الزبير فتحلّ حرم الله فقال : «معاذ الله إن الله كتب ابن الزبير وبني أمية محلين وإني والله لا أحله أبداً» الأثر إلى آخره .ومات بالطايف[1] سنه ثمان وستين (٦٨٧ م) ، وقيل سنة سبعين وهو ابن سبعين سنة وقيل ابن إحدى وسبعين سنة وقيل ابن أربع وسبعين وصلى

---

(١) وجاءت مناقب ابن عباس مفردة او مقرونة بالطائف فى مؤلفات منها :

١ ـ بهجة المهج في فضائل الطائف ووج للشيخ أحمد بن علي العبدري الميورقي المالكي كتب سنة ١٠٧٩ هـ . وفيه فضائل ابن عباس .

٢ـ تحفة الطائف في فضائل الحبر ابن عباس ووج والطائف . للشيخ محمد جار الله ابن عبد العزيز بن عمر بن فهد المكي الهاشمي الشافعي . زار الطائف سنة ٩١٥ هـ فكتب هذا الكتاب .

٣ ـ كتاب رفع الالباس فى فضائل سيدنا عبدالله بن عباس للحافظ عبد الله بن عبدالعزيز

عليه ابن عمه السيد الشريف الامام العالم أبو القاسم محمد بن الحنفية[1] وكبر عليه أربعاً وقال: «اليوم مات ربانيّ هذه الأمة»، وضرب على قبره فسطاطاً.

قال ذو النسبين أيده الله: أصل الفسطاط عمود الخباء الذي يقوم عليه وفيه لغات ضم الفاء وكسرها وفسطاط بالطاء وفستاط بالتاء مكان الطاء الاولى وفساط بالسين من غير طاء ولا تاء والسين مثقلة. وانما كبّر عليه أربعاً على مذهب بحر العلم عبد الله بن عباس وهو مذهب كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت وأحفظ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي هريرة وحجّتهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصفّ بهم وكبر أربع تكبيرات وهو حديث مجمع على صحته وعليه العمل بالمدينة. ومثل هذا يحتج فيه بالعمل لأنه قلّ يوم أو جمعة إلا وفيه جنازة وهو قول عامة فقهاء الأمصار الذين تدور عليهم الفتيا مالك وأصحابه والشافعي ومن اتبعه وأبو حنيفة وأصحابه وسفيان الثوري والأوزاعي والحسن بن حيّ[2] والليث بن سعد وأحمد بن حنبل

= ابن عبد القوى الهروي وهو دون الكراس.

٤ ـ استيناس الناس بفضائل ابن عباس. تأليف ملا علي القاري المتوفى فى شوال سنة ١٠١٤ هـ منه نسخة فى دار الكتب المصريه.

٥ ـ اهداء اللطائف من أخبار الطائف.

٦ ـ نشر اللطائف فى قطر الطائف. وفيه بيان مناقب ابن عباس وابن الحنفية منه نسخة في دار الكتب المصرية.

٧ ـ كتاب عبد الله بن العباس المدائني المتوفى سنة ٢١٥ هـ وهو من اقدم من كتب. ذكره في الفهرس لابن النديم ص ١٤٨

(١) أبوه علي بن أبي طالب (رض) وأمه من بني حنيفة. مات بالمدينة فى سنة ٨١ هـ وقبره بالبقيع.

(٢) هو الحسن بن صالح بن حي ويعرف بابن حي توفى سنة ١٦٩ هـ أو سنة ١٦٧ هـ وترجمته في تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٢٨٥

وداود بن علي الظاهري ومحمد بن جرير الطبري وجماعة من التابعين منهم سعيد بن المسيّب.

وقد خالف في ذلك من الصحابة أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه فكان يكبر على أهل بدر ستاً أو سبعاً وعلى سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعلى سائر الناس أربعاً وكذلك ابن أبي ليلى فانه قال: «يكبر خمساً» واحتج بحديث زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكبرها، وهو حديث صحيح أخرجه مسلم في صحيحه (١).

مسألة

اختلفت فقهاء الفتيا إذا كبر الامام خمساً، فقال مالك والثوري: قف حيث وقفت السنة، قال ابن القاسم وابن وهب عن مالك: لا يكبر معه الخامسة ولكنه لا يسلم إلا بسلامه. وعن الحسن بن حيّ وعبيد الله بن الحسن نحو ذلك. وقال الشافعي لا يكبر إلا أربعاً وإن كبر الامام خمساً فالمأموم بالخيار إن شاء سلم وقطع وإن شاء انتظر تسليم الامام فسلم بسلامه ولا يكبر خامسة البتة. وقال أبو حنيفة: إذا كبر الامام خمساً قطع المأمومون بعد الأربع بسلام ولم ينتظروا تسليمه. وقد روي ذلك عن الثوري وهو قول أبي يوسف قديماً ثم رجع عنه إلى قول زفر: التكبير على الجنائز أربع فان كبر الامام خمساً فكبر معه وهو قول الثوري في رواية أخرى

وذكر جماعة من أئمة المحدثين أنه رأى جبريل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه أنه سيفقد بصره فعمي بعد ذلك في آخر عمره وهو القائل في ذلك:

---

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ٢٦١ طبعة بولاق سنة ١٢٩٠ ه

إن يأخذ الله من عيني نورهما ... في لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل ... وفي فمي صارم كالسيف مأثور

وروي أن طائراً أبيض خرج من قبره فتأولوه علمه خرج إلى الناس ويقال بل دخل قبره طائر أبيض فقيل إنه بصره في التأويل ، وقال أبو الزبير : مات ابن عباس بالطائف فجاء طائر أبيض فدخل في نعشه حين حمل فما رؤي خارجاً منه .

قال ذو النسبين - أيده الله - : ولولا شهرة هذه الأحاديث لم ألتفت منها إلى حرف لكن أعرضها على سوق النقد للصرف (١) . حدثني غير واحد من شيوخي بجزيرة الأندلس ثم رحلت إلى المشرق ودخلت مدينة أصبهان وقرأت بميورد منها على الشيخ المسن الصالح الثقة أبي جعفر محمد بن أحمد بن نصر بن أبي الفتح سبط حسين بن مندة جميع المعجم الكبير وهو أكبر مسانيد الدنيا فيه ستون ألف حديث في أصل الطبراني (٢) على أبي جعفر المذكور في أصل سماعه ثم انتخبت منه أيضاً على الحرة الستيرة فارس بانوية بنت محمد يعرف بالبناء وفيه سماعها لجميعه سنة ثماني عشرة وخمسمائة وسماع شيخنا سنة عشرين ثم حدثتني أيضاً بذلك الحرة الزاهدة عفيفة الفارقانية (٣) بحق سماعها أيضاً لجميعه قالوا : حدثتنا أم الغيث ويقال لها أيضاً أم الخير وأم ابراهيم فاطمة بنت عبد الله ابن

(١) وجاء مثل هذه الأخبار في مناقب بغداد قال الشيخ أبو بكر الخطيب وكل هذه الأحاديث واهية الأسانيد عند أهل العلم والمعرفة بالنقل لا تثبت بامثالها حجة (تاريخ الخطيب ج ١ ص ٤٣) وهكذا يقال في مناقب المدن الأخرى .

(٢) ابو القاسم سلمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني نسبة الى طبرية مدينة بالأردن . كان حافظ عصره ، صاحب رحلة الى ديار مصر والحجاز واليمن والجزيرة والعراق وترجمته في الأنساب للسمعاني ص ٣٦٦ - ١ ومعاجمه في كشف الظنون ومعجمه الصغير طبع في الهند . توفي سنة ٣٦٠ هـ

(٣) الفارقانية نسبة الى ميا فارقين كما في السمعاني

أحمد بن القاسم بن عقيل الجوزدانية سماعاً عليها وكانت عابدة قوية على التعبد وكانت ولادتها في نحو الخمس والعشرين وأربعمائة وتوفيت -رحمها الله- يوم الأربعاء في أول شعبان سنة أربع وعشرين وخمسمائة في قريتها التي نسبتها اليها .(١) قالت : حدثنا الامام العدل المحدث النحوي أبو بكر محمد بن عبد الله بن ريذة سماعاً عليه وأنا آخر من يروي عنه في الدنيا كما هو آخر من بقي من أصحاب الطبراني .

قال ذو النسبين -أيده الله- وهو بكسر الراء المهملة وسكون الياء وفتح الذال المعجمة ، توفي -رحمه الله- في شهر رمضان المعظم سنة أربعين وأربعمائة (١٠٤٩ م) ويشتبه به زبدة بضم الزاي وسكون الباء المعجمة بواحدة من أسفل أخت بشر بن الحارث (٢) الزاهد روت عن أخيها قال : حدثنا الامام الحافظ بقية المحدثين أبو القاسم سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني من طبرية الشام سماعاً عليه قال : حدثنا علي بن عبد العزيز البغوي سماعاً عليه قال : حدثنا المنهال ابن بحر أبو سلمة قال : حدثنا العلاء بن برد قال : حدثنا الفضل بن حبيب عن فرات عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : مررت برسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي ثياب بيض وهو يناجي دحية بن خليفة الكلبي (٣) وهو جبريل وأنا لا أعلم قال : فلم أسلم فقال جبريل : يا محمد من هذا؟ قال : هذا ابن عمي هذا ابن عباس قال : ما أشد وضح ثيابه ! أما إن ذريته ستسود بعده ، ولو سلم علينا

---

(١) ذكرها السمعاني في انسابه وهي على باب اصبهان .

(٢) ورد الحرث وتسهيلا لقراءته راعينا رسم الخط المعروف وهكذا فعلنا في غير هذه اللفظة .

(٣) ترجمته في الاصابة في تمييز الصحابة ج ٢ ص ١٦١ وهو صحابي مشهور شهد مشاهد عديدة وشهد اليرموك . نزل دمشق وسكن المزة وعاش الى أيام معاوية .

لرددنا عليه ، فلما رجعت قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ابن(١) عباس ما منعك أن تسلم ؟قلت: بأبي وأمي رأيتك تناجي دحية بن خليفة الكلبي فكرهت أن تنقطع عليكما مناجاتكما . قال : وقد رأيته ؟قلت نعم قال أما إنه سيذهب بصرك ويرده الله عليك في موتك قال عكرمة :فلما قبض ابن عباس ووضع على سريره جاءه طائر شديد الوهج فدخل في أكفانه فأرادوا نشر أكفانه فقال عكرمة :ماتصنعون ؟هذه بشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم التي قال له فلما وضع في لحده تلقي بكلمة سمعها من كان على شفير القبر : « يأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » . وقد رواه الحافظ أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوي عن يحي بن عبد الحميد الحماني.

حدثنا الحجاج بن تميم عن ميمون بن مهران عن ابن عباس . وقيدناه بالأندلس عن أصحاب الخولاني عنه عن القاضي أبي بكر حمام بن أحمد عن أبي محمد الباجي عن أبي عمر أحمد بن خالد عن أبي الحسن علي بن عبد العزيز البغوي فكرهت أن تقطعا مناجاتكما .

وسمعت فقيهاً كبيراً من أشياخ الأندلس يكسر التاء من مناجاتكما ظناً منه أنها تاء الجمع وجريت على هذه الرواية مدة على طريقة السلف ، كانوا يوردون الحديث كما سمعوه ، وينبهون عليه في حواشي كتبهم ، فلما علمت أن الحديث بحمد الله لا يصح من طريق من الطرق أصلحته على الصواب، وولجت المنزل من الباب ، وأسندت الحديث إلى واضعه، بينت مثالب صانعه وانما للائمة في ذكر هذه الأحاديث الموضوعة غرض وهو أن يعرفوا الحديث من أين مخرجه؟ والمنفرد به أعدل هو أو مجروح ؟وكان يجب عليهم شرعاً أن يبينوها خوفاً من الوقوع في الوعيد النبوي الوارد فيها وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « من حدث عني

(١) وردت (يابن) بالتخفيف فرجعناها الى أصلها اذ لا تختلف في النطق .

بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » أخرجه مسلم في صحيحه من طريقين عن صاحبين(١) يرى بضم الياء أي يظن فهما كاذبان أحدهما كذب حقيقة والآخر كذب ظناً وهذا انذار من سول الله صلى الله عليه وسلم لما علم بالوحي أنه كائن في أمته وأنه صلى الله عليه وسلم مكذوب عليه. وفيه وعيد شديد للمحدث إذا حدث بما يظن أنه كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن لم يكن هو الكاذب في روايته.

وثبت في الصحيحين عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تكذبوا علي فانه من يكذب علي يلج النار، وان الزبير قال له ابنه عبد الله: إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يحدث فلان وفلان، قال أما إني لم فارقه ولكن سمعته يقول: من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار (٢)

قال ذو النسبين - ايده الله - ولم يذكر في هذين الحديثين الصحيحين متعمداً فمن أجل هذا هاب بعض من سمع الحديث أن يحدث الناس بما سمع وهو بين في اعتذار الزبير - رضي الله عنه - إذ «من» من حروف العموم ففيها دليل على أن الاحتياط في رواية الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم واجب وأن نقلها بغير ثبوت السند ومعرفة الصحة حرام.

وقد تقرب بوضع الحديث قوم لبني العباس كما وضع غياث بن ابراهيم القاضي (٣) على المهدي حديث الحمام إذ كان المهدي تعجبه الحمام فأمر المهدي بذبح الحمام، قال ابن أبي خيثمة فقيل يا أمير المؤمنين: وما ذنب الحمام قال من

---

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ٥ طبعة بولاق سنة ١١٩٠ هـ

(٢) راجع الهامش السابق.

(٣) ترجمته في تاريخ الخطيب البغدادي ج ١٢ ص ٣٢٣

أجلهن كذب هذا على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأما فرات فهو ابن السايب الجزري أبو سليمان ويكنى أيضاً أبا المعالي . قال أبو حاتم بن حبان كان ممن يروي الموضوعات عن الأثبات ويأتي بالمعضلات عن الثقات لا يجوز الاحتجاج به ولا الرواية عنه ولا كتبة حديثه إلا على سبيل الاعتبار .

وقال الامام أبو بكر بن أبي خيثمة : سألت يحي بن معين فقال : فرات بن السائب ليس حديثه بشيء .

وأما يحي بن عبدالحميد الحماني فقال : الامامان إمام أهل السنة الصابر على المحنة أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل كان يحي بن عبدالحميد الحماني يكذب جهاراً . وقال العبد الصالح ريحانة العراق ابو عبدالرحمن محمد بن عبدالله بن نمير كان يحي بن عبدالحميد الحماني يكذب . وقال الامام أبو بكر أحمد بن ابى خيثمة في أول تاريخه[1] : وسمعت يحي بن معين يقول : يحي بن عبدالحميد الحمانى ثقة وما كان في الكوفة في أيامه رجل يحفظ معه .

قال ذو النسبين - أيده الله - والجرح عند فقهاء الاسلام أعمل من التعديل لأنه شهد بأمر خاص وعلم من باطن الحال ما لم يعلمه من شهد بظاهرها وهو أمر طار عليه مخالف للاصل المستصحب .

قال ذو النسبين - ايده الله - وأما لفظه ونحوه فالوضح البياض وبه سمي الرجل الأبيض وضاحا ومنه وضاح اليمن ، وكان جذيمة الأبرش يسمى الوضاح لما به من البرص ، ويقال أوضح الرجل إذ اولد له البيض من الأولاد ومنه الموضحة لأنها شجة تظهر بياض العظم .

(١) ابن أبي خيثمة هو أبو بكر أحمد وتاريخه ذكر في مقدمة الكتاب وكان من مؤرخي المحدثين .

وأما قوله «جاءه طائر شديد الوهج» فالوهج في اللغة ضوء الجمر واتقاده فكأنه يريد طائراً شديد الضوء سريع الطيران كالوهج في السرعة والضياء لأنه قد روى أنه كان طائراً أبيض أسنده الطبراني أيضاً في معجمه الكبير في ذكر وفاة ابن عباس رضي الله عنه .

وقال عن الراوي الذي شهد الجنازة وهو يامين قال : يقال له الغرنوق هكذا قرأته في أصل الطبراني وهو عندي .

وقال أهل اللغة: الغرانيق عند العرب طير الماء واحدها غرنيق وليس في كلام العرب على هذا الوزن غيره والعامة تضع ذلك غير موضعه فيقولون للكراكي غرانيق وليس كذلك .

وإنما تكلمت عن لفظة الوهج لأني وجدتها في أصل الطبراني الذي هو عندي وفيه سماع جميع أهل اصبهان وغيرهم وهو مائتان وواحد وثلاثون جزءاً وقرأته في نسخة المازني أبي نعيم «شديد الوضح» بالضاد المعجمة ، وكذلك ذكره في كتاب دلائل النبوة له وقد تقدم أن الوضح البياض . وقد قرأت جامع غريب الحديث[1] للامام أبي محمد ثابت بن الحسن الخجندي وشرح هذا الحديث وأغرب به ولم يعرف علته .

وأما اعرابه فالمناجاة مفاعلة من النجوى كالمداعاة والمغازاة وأصلها مناجوة فقلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ولا تكون إلا من اثنين فصاعداً ، وإعرابها إعراب الصحيح بالحركات الثلاث والتنوين تقول: بينهما مناجاة، وتناجيا مناجاةً وأحسن مناجاة ومن كسر التاء فقد أخطأ لأنه تكلم بما لم تتكلم به العرب.

وإن كانت المنـــاجاة للباري جل وعلا كانت من باب راقبته وعاقب اللص وطارق النعل لأنه يجل ويتقدس عن المفاعلة المخلوقية .

(١) لم يتعرض له صاحب كشف الظنون ، وهو مما فاته ويستدرك عليه .

وأما رؤيته للروح الامين جبريل فقد روي من وجوه ثابتة منها ما رواه الامام الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير وقد تقدمت أسانيدي له.

قال حدثنا علي بن عبد العزيز وأبو مسلم الكشي قالا حدثنا حجاج بن المنهال قال حدثنا حماد بن سلمة قال أخبرنا عمار بن أبي عمار عن ابن عباس قال كنت مع أبي عند النبي صلى الله عليه وسلم ومع النبي صلى الله عليه رجل يناجيه فكان كالمعرض عن أبي فخرجنا من عنده فقال أبي ألم تر ابن عمك كالمعرض عني؟ فقلت يا أبه كان عنده رجل يناجيه فقال وكان عنده أحد؟ قلت: نعم! فرجعنا فقال يا رسول الله إني قلت لعبدالله كذا وكذا فقال لي كذا وكذا، هل كان عندك أحد؟ قال: نعم، رأيته يا عبدالله؟ قلت: نعم! قال: ذاك جبريل عليه السلام هو الذي شغلني عنك.

قلت: هذا سند صحيح لا مطعن فيه. وحجاج بن المنهال أبو محمد الانماطي البرساني [1] ثقة باجماعهم قال أبو حاتم هو ثقة فاضل. وقال أبو حفص الغلاس: ما رأيت مثل حجاج بن منهال فضلاً وديناً. وقد أخرجا عنه في الصحيحين، قال البخاري [2]: مات سنة سبع عشرة ومائتين (٨٣٢ م) وحماد بن سلمة يكنى ابا سلمة إمام فقيه ثقة عدل. وعمار بن أبي عمار من ثقات التابعين وعدولهم، وقد أخرج مسلم أحاديثه عن ابن عباس والناس وقد أخرج هذا الحديث أيضاً الامام أحمد في مسنــده.

وأما لبس السواد فقد ثبت باجماع أهل النقل أن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) جاءت ترجمته في تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٢٠٦.

(٢) أي في تأريخه. وله التأريخ الكبير منه نسخة مخطوطة كامــلة في مجلد واحد في خزانة كتب (سراي طوبقبو) باستانبول. طبع قسم منه في المطبعة العثمانية في الهند ولم يتم بعد. وتوفي البخاري ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦هـ — ٨٧٠م. أما التاريخ الصغير فقد طبع على الحجر في الهند أيضاً.

وسلم لبس عمامة سوداء يوم فتح مكة .من حديث جابر بن عبدالله ومن حديث عمرو بن حريث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس وعليه عمامة سوداء والأحاديث في هذا المعنى صحيحة والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم سنة واجبة وباقي هذا النسب ذكرته في كتاب سلسلة الذهب في نسب سيد العجم والعرب .

ولما عرضت الخلافة على ابن عباس رغب عنها فعوضه الله في بنيه خيراً منها ، فلما كان يوم الجمعة الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة (٧٤٩م) خطب الخليفة الامام أمير المؤمنين أبو العباس السفاح بعد ما اشتفت من نفوس أعدائه صدور الصفاح ، وولغت في دمائهم ثعالب الرماح ، وتبلجت بمحو ليل الدولة الاموية الدولة العباسية تبلج الصباح ، وطهر الله ببني هاشم ضواحي البسيطة وسبلها وأقر الخلافة في بيت ابن عم نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وكانوا أحق بها وأهلها .

ولقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دماء المبطلين ، لأنه يقال : سفح الدمع انصب وسفحته أيضاً يتعدى ولا يتعدى ، قال الأديب أبو الخير ابن الأنباري والسفاح القادر على الكلام .

وصدق لعمري في هذا الكلام لأن أول خطبة أحيا بها السنة وقام فيها وأتى من الافصاح والبلاغة ما لم يسبقها . وقد وضع في تسمية السفاح وأخيه المنصور أحاديث موضوعة وجعلت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مرفوعة أسندها الطبراني في معجمه وأبو نعيم الاصبهاني [1] في دلائل النبوة من تأليفه

---

(١) أبو نعيم الاصبهاني استاذ الخطيب البغدادي وكتابه دلائل النبوة قد طبع في الهند وله كتاب حلية الأولياء أيضاً وتاريخ اصبهان ومنه نسخة مخطوطة في تذكرة نوادر المخطوطات ص ٨٢ وطبع في اوربا في مدينة ليدن سنة ١٩٣١ م ، والامامة مخطوط رأيته في الآستانبول راجع تاريخ اليزيدية . وتوفي أبو نعيم في المحرم سنة ٤٣٠ هـ - ١٠٣٧ م وترجمته في معجم المطبوعات ص ٣٥٠

ولم يبينا ها ولا أوضحا وضعها ووهاها وأسندا في ذلك أولادهم وعقبهم وأسماء بعضهم ولقبهم .

والأحاديث كلها تدور على قوم كذابين وضاعين مثل محمد بن زكريا الغلابي[١] وهو في الوضع من المتقنين يحدث عن قوم مفتعلين، وربما تحيل بهم على المعروفين، وان لم يكونوا من المخلوقين ، وهو من الداخلين تحت الوعيد النبوي عند كافة أهل الدين . وإنما هم ممن باع في دنياه الدين بالدنيا ، ووضع لأولي الأمر ما يتقرب به عندهم ويبعد من الأخرى ، نعوذ بالله من شهوة تغلب على عقل ، وتؤدي الى وضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم في النقل .

وكان السفاح كريماً سخياً بالأموال ، حسن الأخلاق متألفاً للرجال ، ماضي العزيمة ، صعب الشكيمة ، ذا سطوة على الأعداء متواضعاً للاصحاب والأولياء ، زاد في أعطيات الناس[٢] وكان يأكل معهم الطعام .

بويع بالكوفة ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة وصعد منبر الكوفة يوم الجمعة وخطب قائماً وكانت بنو أمية تخطب قعوداً فناداه الناس يا ابن عم رسول الله أحييت سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعث عبد الله بن علي عم أبي العباس أشياخاً من أهل الشام فحلفوا لأبي العباس أنهم ما علموا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ولا أهل بيت يرثونه إلا بني أمية والله يشهد أنهم لكاذبون ، ستكتب شهادتهم ويسألون .

وكتب الخليفة إلى عمه عبد الله بن علي يأمره بالمسير إلى مروان بن محمد الجعدي وقد اختلف أشياخنا في تسميته بذلك فقيل نسب إلى مؤدّبه الجعد

---

(١) الغلابي بصري جاءت ترجمته في لسان الميزان ج ٥ ص ١٦٨ وتوفي بعد سنة ٢٨٠ هـ

(٢) عطاء وأعطية وأعطياء وأعاطي (هامش الأصل)

وكان يرمى بالزندقة فنسب اليه على طريق الذم لمروان وقيل نسب إلى خاله الجعد بن درهم . ويلقب أيضاً بالحمار وبحمار الجزيرة .

وقال ابن حزم اختلف في أمه فقيل أمّ ولد وقيل من بني جعدة بن كعب من بني عامر بن صعصعة . ورأيت بخط الفقيه الامام أبي محمد بن زيدون أن أمه كردية واسمها بنانة وكانت لابراهيم بن الأشتر أصابها محمد بن مروان يوم قتل ابن الأشتر وهي نسء قال الخليل بن أحمد وغيره من أئمة اللغة يقال للمرأة أول ما تحمل نسء والجمع انساء ونساء انسأ وهو من التأخير . وذلك انها إذا حبلت تأخر حيضها فولدت مروان على فراشه وكان أحزم بني مروان ولكنه تولى الخلافة والأمر مدبر عنهم فلم يستقر له حال ولا ثبت في مكان واحد لخروج بني عمه وغيرهم عليه فزحف مروان إلى عسكر بني العباس فاقتتلوا فهزم مروان وفضّ جمعه واتبعه عبد الله بن علي حتى نزل بنهر أبي فطرسّ من ارض فلسطين واجتمعت اليه بنو أمية حين نزل النهر فقتل منهم بضعة وثمانين رجلاً .

وخرج صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بعد مقتلهم في طلب مروان حتى لحقه بقرية من قرى الفيوم من أرض مصر يقال لها بوصير فقتله وكان الذي تولى قتله رجل على مقدمة صالح يقال له عامر بن اسماعيل من أهل خراسان ولم يمكن من نفسه ولم يزل يقاتل بسيفه إلى أن سقط ميتاً . كذا قال ابن حزم في المرتبة الرابعة وذلك يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول .

وقال ابن قتيبة في المعارف : قتل في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة . وهو أولى بالصواب وله تسع وخمسون سنة . وقال ابن حزم تسع وستون سنة.

وقال أحمد بن أبي يعقوب بن وهب بن واضح الكاتب [1] في تاريخه : قتل في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة وهو ابن أربع وستين سنة . وقيل

---

(١) ابن واضح الكاتب هو (اليعقوبي) . يأتي الكلام عليه .

ابن ثمان وستين وله عقب من ولده عبد الله فكانت ولايته خمس سنين وشهراً .

ولما وجه برأس مروان عبد الصمد إلى عبد الله بن علي عم الخليفة فنظر اليه وعزل الرأس ناحية فاقتلعت لسانه هرة وجعلت تمضغه فقال عبد الله لولم يرنا الدهر من عجائبه إلا لسان مروان في في الهرة لكفانا ذلك .

ولما ورد على الخليفة أبي العباس رأس مروان وان عبدالحميد الطائي نبش هشاماً بالرصافة وصلبه وأحرقه بالنار، خرّ ساجداً وقال :الحمدلله قد قتلت بالحسين بن علي عليهما السلام من بني أمية مائتين وصلبت هشاماً بزيد بن علي وقتلت مروان بأخي ابراهيم ، وهو ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو الرضي دعي اليه ونصّ بالأمر على أخيه أبي العباس عبدالله السفاح قتله مروان بن محمد .

قلت:وافترقت في أيام بني العباس كلمة الناس فخرج عليهم من منقطع الزابين إلى البحر وبلاد السودان إلى بلاد افريقية إلى بلاد البربر ففي بلاد البربر جماعات من ولد ادريس وسليمان ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام (١) وظهر بالأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان فتغلب عليها وعلى كثير من بلاد البربر واستولى على الملك سنة ثمان وثلاثين ومائة (٢) (٧٥٥م) ولم يزل الأمر فيهم إلى هشام بن الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله .

وكانت بيعة هشام بالخلافة صبيحة يوم الاثنين لخمس خلت من صفر سنة ست

---

(١) دولتهم في المغرب الاقصى ، دامت من سنة ١٧٢ ه الى سنة ٣٦٤ ه (الدول الاسلامية ص ٤١) .

(٢) وفي صبح الاعشى ج ٥ ص ٢٤٤ انه دخل الأندلس سنة ١٣٩ ه . وهناك تفصيل لمن جاء بعده ، وفي دول اسلامية لخليل ادهم قائمة باسماء ملوكهم ص ٢٤-٢٨ وكذا في نفح الطيب ج ١ ص ١٤١ وغيره .

وستين وثلثمائة (٩٧٦م) وتغلب على الامر محمد بن أبي عامر المعافري الملقب بالمنصور صاحب الفتوحات العظيمة والمشاهد الكريمة لكنه أبقى الخطبة على بني امية الى أن توفي مجاهداً في أقصى الثغور ودفن بمدينة سالم في ليلة الاثنين التي هي ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة (١٠٠٢م) فصار مكانه ابنه[١] عبدالملك بن محمد الملقب بالمظفر فجرى على ذلك أيضاً الى أن مات فصار مكانه أخوه عبدالرحمن بن محمد الملقب بالناصر فخلط وتسمى ولي العهد وبقي كذلك أربعة أشهر إلى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبدالجبار ابن عبدالرحمن بن[٢] الناصر المتسمي بالمهدي فخلع هشاماً وأسلمت الجيوش عبدالرحمن فقتل وصلب وبقي الأمر كذلك الى أن قتل المهدي المذكور .

وبويع هشام بالخلافة كما كان فبقي الى أن قاتله سليمان بن الحكم المستعين فدخل قرطبة بجيوش البربر وقتل هشام ،وذلك لخمس خلون من شوال سنة ثلاث وأربعمائة (١٠١٣م) ولم يولد لهشام قط ، ثم ملكت ملوك الطوائف[٣] على عادة الامم السوالف .

وتوفي الخليفة أبو العباس السفاح في مدينته التي بناها وسماها بالهاشمية يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة (٧٥٣م) وله ثلاث وثلاثون سنة وبقي في الخلافة أربع سنين وثمانية أشهر ويوماً[٤] .

---

(١) وترجمة المنصور محمد بن أبي عامر المعافري مفصلة في نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ وكذا ذكر أخلافه . راجع طبعة بولاق سنة ١٢٧٩هـ ، وقد تكرر ذكر المنصور في مواطن عديدة منه .

(٢) (بن) هنا زائدة .

(٣) أوضح في صبح الأعشى عن ملوك الطوائف ج ٥ ص ٢٤٧ وما بعدها ودول اسلامية ص ٢٨ وما تلاها ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٤) وقد أفرد له المدائني المتوفى سنة ٢١٥هـ كتاباً سماه « أخبار السفاح » وكذا الخزاز كتب أخبار (أبي العباس) وهو السفاح أيضاً . وترجمته في الخطيب ج ١٠ ص ٤٦ وفي الطبري وابن واضح . وفي ابن أبي عذية تفصيل عنه .

ثم صارت الخلافة الى أخيه

أبي جعفر عبدالله بن محمدبن علي بن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ الملقب بالمنصور يوم الاحد ثالث عشر ذي الحجة وقيل ثاني عشر، سنة ست وثلاثين ومائة (٧٥٤م) وكان أسن[١] منه وهو أول خليفة لقب نفسه وهو أبو الخلفاء الى اليوم، وهو أول من نزل بغداد من الخلفاء، ومصر الجانب الغربي وكان مجمع سوق في أيام الأكاسرة وهدم دار كسرى والمدائن وبنى المدينة المنصورية وأدأب نفسه في التحصين والحراسة، وشكا الناس إليه ضيق المسجد الحرام فكتب الى زياد بن عبدالله الحارثي أن يشتري المنازل التي تلي المسجد حتى يزيد فيه ضعفه، فامتنع الناس من البيع فذكر ذلك لجعفر بن محمد الصادق[٢] فقال: سلهم، أهم نزلوا على البيت أم هو نزل عليهم؟ فكتب بذلك إلى زياد، فقال لهم فقالوا: نحن نزلنا عليه. فقال جعفر بن محمد: فان للبيت فناءا. فكتب أبو جعفر الى زياد أن يهدم المنازل التي تليه فهدمت المنازل، وادخلت عامة دار الندوة فيه، حتى زاد فيه ضعفه. وكانت الزيادة مما يلي دار الندوة وناحية باب بني جمح ولم تكن مما يلي الصفا والوادي فكان البيت في جانبه وكان ابتداء الأمر في سنة ثمان وثلاثين ومائة (٧٥٥م) وفرغ منه سنه اربعين ومائة (٧٥٧م) وبنى مسجد الخيف بمنى وصيره على ما هو عليه من السعة ولم يكن بها قبل ذلك.

---

(١) وفي الخطيب البغدادي بويع له في ١٤ أو ١٢ ذي الحجة سنة ١٣٦هـ ـ ٧٥٤م. (ج ١٠ ص ٥٣)

(٢) الصادق هو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رض) وهو المشهور بالصادق لقب به لصدقه في مقاله وفعاله وامه ام فروة بنت القاسم بن محمدبن أبي بكر الصديق (رض) ... توفي سنة ١٤٨هـ قاله في لباب الانساب ج ٢ ص ٤٤ طبع سنة ١٣٥٦هـ ولم يتم بعد. وهذا الحادث يعرف اليوم بالاستملاك للمصلحة العامة.

وحج أبو جعفر سنة اربعين ومائة لينظر الى ما زيد في المسجد الحرام.

ثم اتصل به أن الراوندية هم ينسبون الى أبي الحسين عبدالله الراوندي[(١)] وقال سعد بن علي الزنجاني : هو ابو الحسين احمد بن محمد بن يحيي بن محمد بن إسحق ،وهم يزعمون أن كل كتاب نزل من الله عز وجل العمل به حق حتى الناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، لأنه لا يحسن من الحكيم أن يقول فيندم في مقالته ثم يرجع عنه . وكذبوا . قال الله العظيم « ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها . » ونحو ذلك .

وقال ابن حزم في «النحل والملل »له :قالت الراوندية بالهية ابي جعفر المنصور فخرج إليهم بنفسه وامر بقتلهم فقتلوا كلهم الى لعنة الله .

وقال غيره زعموا أن ابا مسلم نبيّ وابا جعفر المنصور هو الاله -تعالى الله عن ذلك- . فطلبهم ابو جعفر واستتابهم فرجع عن ذلك قوم وثبت عليه قوم فلم يتوبوا فقتلهم وصلبهم . ذكر ذلك في كتاب «بيان الفرقة الناجية »الحافظ موفق الدين ابو نصر احمد بن محمد بن الحسين الطرقي[(٢)] . وحدثني عنه غير واحد من اشياخي بأصبهان .

وكان المنصور احزم الناس،قد عركته الايام أيّما عرك، وحكّنه بتقلبه فيها قبل إفضاء الامر اليه بكل محكّ ، فكان يجود بالاموال حتى يقال هو اسمح الناس، ويمنع في بعض الاوقات حتى يقال هو ابخل الناس ، ويسوس سياسة الملوك ، ويثب وثبة الاسد العادي على الناس ، ويتذكر ما فعل بنو امية ببني علي وبني العباس.

وهو الذي قتل أبا مسلم صاحب الدعوة امير خراسان حكمها سبع سنين متصلة . وولي ثلاثة اشهر ، من خراسان الى اول عمل مصر مجموعاً له .

---

(١) وردت بلفظ « الروندي » فحذفت الألف وأثبتناها كما ينطق بها .

(٢) وترجمة الطرقي في لسان الميزان ج ١ ص ١٤٣ وفي مقدمة هذا الكتاب .

وكانت طبوله من جلود الكلاب فاذا أراد أن يركب ضرب في عسكره بتلك الطبول فكان لها صوت هائل ودخل قلوب الناس منها رعب عظيم وفزع شديد .

وقتل من لا يحصى صبراً من قريش ومضر وربيعة واليمن وأهل البيوتات من العجم والفقهاء والشعراء .

قال ابن زيدون: وذلك ستمائة الف رجل سوى من قتل في الحروب والوقائع.

وله ابنة واحدة اسمها فاطمة من جارية ، لأنه كان لا يطأ في العام إلا مرة أو مرتين ويرى النكاح ضرباً من الجنون مع شدة الغيرة .

ولحق(١) بالخليفة أبي جعفر المنصور بالرومية التي بالمدائن وهو في مضاربه فاجتمع به أحسن اجتماع ثم اتاه يوماً وقد هيأ له عثمان بن نهيك وكان على حرسه في عدة من وجوه الناس وتقدم إلى عثمان وقال : إذا علا صوتي وصفقت بيدي فدونك العمل .

ودخل أبو مسلم فأجلس في الحجرة ، وقيل له إن امير المؤمنين عليه شغل . فجلس ملياً ، ثم اذنله . وقيل له: انزع سيفك قال: ولم ؟ قيل: وما عليك!؟فنزع سيفه ثم دخل ، وليس في البيت إلا وسادة ،فجلس عليها . ثم قال يا أمير المؤمنين فعل بي ما لم يفعل بأحد ، أخذ سيفي عن عاتقي ، قال : ومن فعل هذا بك قبحه الله ؟ فأقبل أبو مسلم يتكلم ، فقال له: يا ابن اللخناء(٢) . إنك تستعظم غير العظيم ألست الكاتب الي بيدك تبدأ باسمك على اسمي ؟ وجعل يعدّد عليه اموراً . فلما رأى أبو مسلم ما قد دخله قال يا أمير المؤمنين إن قدري أصغر من أن يدخلك ما أرى ! وعلا صوت أبي جعفر المنصور وصفق بيديه ، فخرج القوم

(١) ولحق يريد أبا مسلم .

(٢) اللخناء : المنتنة الريح . اللغـــة . (هامش الأصل)

فضربوه بأسيافهم فصاح : ألا مغيث ألا ناصر ؟ وهم يضربونه حتى قتلوه .

فلما قتلوه قال أبو جعفر المنصور :

اشرب بكأس كنت تسقي بها　　أمرّ في فيك من العلقم

كنت حسبت الدين لا يقتضى　　كذبت والله أبا مجرم

ولفّ في مسح وصيّر في جانب المضرب .

ثم قيل لأصحابه : اجتمعوا فان أمير المؤمنين قد أمر أن تنثر عليكم الدراهم . فنثرت عليهم بدرة ، فلما أكبوا يلقطونها طرح عليهم رأس أبي مسلم . فلما نظروا اليه تخاذلوا وتفرقوا . وذلك يوم الخميس لخمس بقين لشعبان سنة تسع وثلاثين ومائة (٧٥٦ م)

وكان يدعي أنه من ولد سليط ابن عبد الله بن عباس وإنما هو مملوك لبكير ابن ماهان ابتاعه من عاصم بن موسى العجلي بأربعمائة درهم[١] .

ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لو كانت الدنيا تعدل عندالله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ، ويروى تزن أي تعادل جناح بعوضة . أخرجه الترمذي[٢] في جامعه قال : حدثنا قتيبة قال حدثنا عبد الحميد ابن سليمان عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الترمذي : هذا حديث صحيح وصدق إذ لا خلاف في صحةهذا السند عند أهل التعديل والتجريح ، وفيه بيان هو أن الدنيا عند الله تعالى لأنه أعطى من كفر ووسع عليه منها فملكها مثل أبي مجرم فتسلط على كل مسلم .

وقرأت بخراسان على الثقة الزاهد أبي الحسن عبد الرحيم بن عبد الرحمن

---

(١) وترجمة أبي مسلم في تاريخ الخطيب ج ١٠ ص ٢٠٧ .

(٢) الترمذي الامام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩ ه وكتابه (جامع الترمذي) . ويقال له سنن الترمذي . والتفصيل في كشف الظنون .

الجرجاني -رضي الله عنه- قال: سمعت فقيه الحرمين أبا عبدالله محمد بن الفضل الصاعديّ يقول سنة أربع وعشرين قال حدثنا العدل أبو الحسين عبدالغافر بن محمد الفارسيّ سنه ثمان وأربعين وأربعمائة قراءةً عليه وأنا أسمع، قال: قرأت على الحاكم الثقة أبي أحمد الجلودي قال: سمعت الفقيه الامام عابد خراسان أبا إسحق بن سفيان يقول سمعت الامام أبا الحسين مسلم بن الحجاج يقول:

حدثنا عبدالله بن مسلمة بن قعنب قال: حدثنا سليمان (يعني ابن بلال) عن جعفر عن أبيه عن جابر بن عبد الله: أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بالسوق داخلاً من بعض العالية والناس كنفيه فمرّ بجدي أسكّ ميت، فتناوله، فأخذ بأذنه ثم قال: أيكم يحبّ أن هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ قال: تحبّون أنه لكم؟ قالوا: والله لو كان حيّاً كان عيباً فيه لأنه أسكّ فكيف وهو ميت؟: فقال فوالله لَلدنيا أهون على الله من هذا عليكم.

وله طريق آخر في صحيح مسلم عن عبد الوهاب الثقفي عن جعفر عن أبيه عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم بمثله غير أن في حديث الثقفي (فلو كان حيّاً كان هذا السكك به عيباً).

(العالية) كل ما كان من جهة نجد من المدينة من قراها وعمارها فهي العالية، وما كان دون ذلك من جهة تهامة فهي السافلة. والعوالي من المدينة على أربعة أميال وقيل ثلاثة أميال وذلك أدناها وأبعدها ثمانية أميال

وقوله: (والناس كنفيه) أي ناحيتيه، وقوله: (بجدي أسكّ) هو الصغير الأذنين ملتصقها.

وفيه من الفقه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتوضأ من مس الميتة، وفيه ان الشعر لا ينجس بالموت، لأن الجدي من المعز، وهي من ذوات الشعر بنص كتاب الله العظيم.

والمنصور هو الذي ضرب أبا حنيفة على القضاء فامتنع وقال : لا أصلح. فقال له : أنت أبو حنيفة الفقيه كيف لا تصلح ؟ فقال له : إما أن أكون صادقاً فيجب أن تقبل قولي ، وإما أن أكون كاذباً فقاضٍ لا يكذب ولا يكون كذاباً . فضربه وحبسه ومات في حبسه ، ولما مات صلى عليه المنصور سنة خمسين ومائة. ومولده سنة سبعين في رواية ابن كأس ، وفي رواية حماد أنه سنة ثمانين وهو الصحيح (١) .

وتوفي الخليفة أبو جعفر المنصور يوم السبت لست ليال خلت من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة وله ثلاث وستون سنة عند بئر ميمون على أميال من مكة وهو محرم وصلى عليه ابنه صالح ودفن بالحرم الشريف (٢)

وسنّة المحرم إذا مات ما ثبت عن ابن عباس أن رجلا كان مع النبي صلى الله عليه وسلم فوقصته ناقته وهو محرم فمات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبيه ولا تمسوه بطيب ولا تخمروا رأسه فانه يبعث يوم القيامة ملبيا .

اخرجاه في الصحيحين فرواه البخاري . قال حدثنا يعقوب بن ابراهيم .قال حدثنا هشيم وأخرجه مسلم. قال وحدثنا محمد بن الصباح قال حدثنا هشيم قال اخبرنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وله طرق في الصحيحين غير هذا .

---

(١) كتب في مناقب الامام ابي حنيفة كثيرون اورد اسماء كتبهم صاحب كشف الظنون . ومشهده مشهور في ناحية الاعظمية ، ومدرسته هناك . واليوم قامت مقامها دار العلوم . وينسب اليه من المؤلفات الفقه الأكبر ، وكتاب الوصية ، ومسند ابي حنيفة .

(٢) ولعمر بن شبة النميري المتوفى في ٢٦ جمادى الآخرة سنة ٢٦٢ هـ ـ ٨٧٦ م (اخبار المنصور) وجاءت اخبار ابن شبة في الفهرست لابن النديم ص ١٦٣ وابن خلكان ج ١ ص ٢٧٨ والخطيب البغدادي ج ١١ ص ٢٠٨ قال الخطيب: كان ثقة عالماً بالسير وايام الناس . وله تصانيف كثيرة .

وأبو بشر هو جعفر بن إياس وإياس يكنى أبا وحشية .

وفيه فضل كبير لمن مات محرماً . وان الله جلّت قدرته يبعثه يوم القيامة ملبّياً والناس قد ألجمهم العرق وخامرهم الفرق . ولم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تؤدى عنه بقية الحج . وفيه حجة لمن قال : لا ينقطع حكمه . قال أحمد ابن حنبل : لا ينقطع الاحرام بالموت . وقال مالك وأبو حنيفة : ينقطع .

وقوله (فوقصته) الوقص كسر العنق يقال وقصه وأوقصه . ولم يذكر صاحب الأفعال[1] فيه إلا وقصه لا غير ومنه الأوقص القصير العنق والاسم الوقص كأنه وقص فدخل عنقه في جسمه .

فكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً[2] وكان حافظاً لكتاب الله العظيم متبعاً لآثار رسول الله عليه أشرف الصلاة وأفضل التسليم ، فقيهاً محدثاً كاتباً بليغاً ، كتب الى عامل افريقية وقد شكا إليه جفاء أهل المغرب : « خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . وجمع من الاموال ما لا يحصى كثرة ووجد له من العين تسعمائة ألف ألف دينار وستون الف الف درهم ، وكان يقول : من قل ماله قل رجاله ، ومن قل رجاله قوي عليه عدوه ، ومن قوي عليه عدوه اتضع ملكه . ومن اتضع ملكه استبيح حماه . ذكر ذلك ابن واضح الكاتب في تاريخه[3]

---

(١) لعله يريد كتاب الافعال وتصاريفها لأبي بكر محمد بن عمر القرطبي المعروف بابن القوطية النحوي المتوفى سنة ٣٦٧ ﻫ . راجع كشف الظنون .

(٢) ترجمة الخليفة المنصور في الخطيب البغدادي ج١ ص ٦٥ و ج ١٠ ص ٥٣ .

(٣) هو المعروف في هذه الايام بـ (اليعقوبي) واسمه أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر ابن وهب ابن واضح الكاتب العباسي . كان جده من موالي المنصور . يحب الاسفار وساح في بلاد الاسلام شرقاً وغرباً . ودخل ارمينية سنة ٢٦٠ ﻫ ثم رحل الى الهند ، وعاد الى مصر وبلاد المغرب وله التأريخ وطبع في اوربا وفي النجف وكتاب البلدان طبع ايضاً . توفي سنة ٢٨٤ ﻫ — ٨٩٧ م وترجمته في معجم الأدباء ج ٢ ص ١٥٦ وفي كتاب الكنى والالقاب ج ٣ ص ٢٤٦ وآداب اللغة العربية ج ٢ ص ١٩٦ .

ثم صارت الخلافة لولده المهدي

أبي عبدالله محمد بويع له يوم التروية سنة ثمان وخمسين ومائة (٧٧٥م) بين الركن والمقام على يدي الربيع مولى المنصور ووزيره فعقدها على من حضر من الهاشميين والقواد ، وحضر صالح بن المنصور وموسى بن المهدي وأنفذ الربيع له الخبر مع منازة مولى أبي جعفر فسار اثني عشر يوماً الى بغداد والمهدي بها فبايعه الناس .

وكان أكرم أهل زمانه ، إذا أعطى الف دينار استقلها ، وفرق جميع ما ترك أبوه فأزال المظالم وأحيا المعالم وقمع الظالم ونصر المظلوم وأكرم أهل العلم والدين وحلم عنهم وأخباره مع سفيان الثوري مشهورة . وهو أول من مشي بين يديه بالسيوف المصلتة والقسي والنشاب والعمد . وأول من لعب بالصوالجة في الاسلام وقتل الزنادقة والثنوية[1] . فالزنديق اسم يقع على من لا يثبت للمصنوعات صانعاً وعلى من لا يثبت الرسالة أصلا وإن أثبت الصانع ، وعلى من يتترّس فيستتر بالشهادتين ولا يعتقد شيئاً وأنه ليس مكوّن ولا مدبر وأن هذا الخلق بمنزلة النبات يموت منه شيء ويحيي منه شيء . وإنما تغلب عليه الطبائع الأربع في أبدانهم فاذا غلبت عليه إحداهن قتلته وان أباه هو الذي خلقه حتى توهموا أن لآدم أباً تعالى الله عن قولهم وكرم دينه عن إفكهم .

---

(١) الزنادقة : اوضح المؤلف عنهم وعما يراد بالزندقة ، وما حصل فيها من توسع وكانت تطلق على المانوية ، او كما قال صاحب الفهرست المنانية ص٤٥٦ وما بعدها وعبر عنهم بالزنادقة وهنا فرق بين الزنادقة والثنوية واوضح المراد من الزندقة وما يقصد من معانيها . واللفظ في الاصل مأخوذ من زندا - ويستا فشاع استعماله في الزندقة . وفي مجلة الرسالة بحث مهم عن الزندقة (عدد : ٦٤٤ و ٦٤٥ و ٦٥٢) وفي كتاب الالحاد في الاسلام ايضاً توسع في الموضوع .

والثنوية(١) هم الذين يزعمون أن الانسان ما دام يحسن فهو يعمل بروح اللاهوت وإذا أساء فهو يعمل بروح الشيطان وأن الخير من الله والشر من إبليس ومن أنفسنا . وكذبوا ، هل من خالق غير الله ؟ وكذلك رد عليهم بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم من طريق اللغة منسوبون الى اثنين لزعمهم أن خالق الشر غير خالق الخير .

والمهدي هو الذي بنى جامع الرصافة(٢) وتربته بها وحج سنة ستين ومائة فجرد الكعبة وكساها القباطي والخز والديباج وطلى جدرانها بالمسك والعنبر من أعلاها الى أسفلها . وكانت الكعبة في جانب المسجد لم تكن متوسطة فهدم حيطان المسجد الحرام وزاد فيه زيادات واشترى من الناس دورهم ومنازلهم وأحضر الصناع والمهندسين من كل بلد وكتب الى مولاه وعامله على مصر واضح في حمل الأموال الى مكة فكان ذلك كذلك وصيرت الكعبة في الوسط على ماهي عليه الآن لأنه آخر من زاد فيها .

وحمل الى المسجد الحرام من مصر أربعمائة وثمانين اسطوانة طول كل اسطوانة عشرة أذرع وصير فيه أربعمائة طاق وثمانية وتسعين طاقاً وجعل للمسجد من الأبواب ثلاثة وعشرين باباً وبناه بالذهب والفسيفساء وجعل سلاسل قناديله ذهباً وجعل ذرعه مكسراً مائة الف ذراع وعشرين الف ذراع . وطول المسجد من باب بني جمح الى باب بني هاشم عند العلم الأخضر اربعمائة ذراع وأربعة أذرع وعرضه

(١) وفي الفهرست لابن النديم لم يفرق بين المانوية والثنوية أو كان أحدهما قريباً من الآخر وهنا فرق المؤلف ، واعتبر المؤلف الزندقة معاني غير المقصودة من الثنوية . وفي كتب الفرق البحث موسع في كل منهما .

(٢) الرصافة محلة ببغداد عند باب الطاق وبها الجامع الحسن الكبير للمهدي ، ويسمى « جامع المهدي » بني سنة ١٥٩هـ — ٧٧٦م ولم يبق له أثر في هذه الايام . وجاءت تواريخ عديدة موضحة عنه ويعرف بـ « جامع الرصافة » أيضاً وفي أنساب السمعاني قد تعين موقع الرصافة وكذا في معجم ياقوت .

من باب دار الندوة إلى باب الصفا ثلثمائة ذراع وأربعة أذرع . وبنى العلمين اللذين يسعى بين الصفا والمروة بينهما . وبينهما من الذرع مائة ذراع واثناعشر ذراعاً فصار بين الصفا والمروة لمـا أخرج المسجد الذي هو فيه الساعة سبعمائة وأربعة وخمسون ذراعاً .

ووسع مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وزاد فيه وحمل إليه عمد الرخام والفسيفساء والذهب ورفع سقفه وألبس خارج القبر المقدس الرخام .

وثبت في الصحيحين عن عثمان بن عفان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من بنى مسجداً لله تعالى بنى الله له في الجنة مثله .

وفي الحديث حثّ على بناء المساجد لأن عثمان بن عفان - رضي الله عنه- قال ذلك عند قول الناس فيه حين بنى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم أكثرتم ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من بنى مسجداً ، قال بكير : حسبته أنه قال : يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة .

وفي قوله :«لله» إشارة الى الاخلاص لأنه قد يبني الانسان مسجداً ليقال . وفيه أيضاً المجازاة فانه كما بنى يبنى له ، ولا يخفى أن المجازاة إنما تكون على قدر العمل الذي وقع الجزاء عليه وهي إشارة إلى المماثلة والفرق بين الدنيا والآخرة أن الدنيا عمل والآخرة جزاء وأن البناء في الدنيا بالحجر والمدر وفي الآخرة بالدرر والياقوت الأحمر .

وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :ولقاب قوس أحدكم من الجنة أو موضع قيد - يعني سوطه - خير من الدنيا وما فيها

رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أخرجه البخاريّ في صحيحه في كتاب الجهاد .

قلت :«قاب القوس»قدر طولها وقال المفسرون في قوله جل وعلا :«فكان قاب

قوسين »أي قدر قوسين وقيل : القوس ها هنا الذراع بلغة أزد شنوءة . وقيل : القاب ظفر القوس وهو ما وراء معقد الوتر ، يقال: هو قاب رمح وقاد رمح وقيد رمح وقدي رمح وقدة رمح وقيد سوطه أي قدره .

وأراد صلى الله عليه وسلم - والله أعلم - ذم الدنيا والزهد فيها والترغيب في الآخرة ، فأخبر أن اليسير من الجنة خير من الدنيا كلها ، وإنما ذكر قدر السوط والقوس على التقليل إلا أنه أراد قدر القوس ولا قدر السوط بل موضع نصف سوط وربع سوط وظفر سوط من الجنة الباقية خير من الدنيا الفانية .

وهذا مثل قول الله عز وجل : « ومنهم من إن تأمنه بقنطار » لم يرد القنطار بعينه . وكذلك قوله عز وجل: « ومنهم من إن تأمنه بدينار » لم يرد الدينـــار بعينه ، وإنما أراد التقليل أي أن منهم من يؤتمن على بيت مال فلا يخون ومنهم من يؤتمن على فلس أو نحوه فيخون .

وقدم خراسان وأصلح حال البلاد وأزال المظالم عن العباد ، ولما قدم من الريّ دخل عليه أبو دلامة الشاعر يهنئه بقدومه فأقبل عليه المهديّ وقال: كيف أنت يا أبا دلامة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين :

إني حلفت لئن رأيتك سالماً   بقرى العراق وأنت ذو وفر
لتصلينّ على النبيّ محمـــد   ولتملأنْ دراهماً حجري

فقال له المهديّ : أما الاولى فنعم . وأما الثانية فلا ! فقال : جعلني الله فداك إنهما كلمتان لا يفرق بينهما فقال يملأ حجر أبي دلامة دراهم فقعد وبسط حجره فنزلت فيه بدرة دراهم ، فقال له: قم الآن يا أبا دلامة فقال : يتخرق قميصي يا أمير المؤمنين حتى أشيل الدراهم وأقوم : فرد الدراهم الى كيسها وأخذها على صدره بثقلها ودعا له وخرج .

ووقّع المهدي على كتاب عامل الكوفة ورده بذكر سوء طاعة أهلها : « لا تطلب الطاعة ممن خذل علياً ، وكان إماماً مرضياً . » .

ومن أغرب أخبار الدنيا

أن المهديّ رأى رجلاً في المنام يعرفه بهدم قصره وبموته ، فمات بعد ذلك بعشر ليال من الرؤيا ، ولم يبق من القصر والدار أثر بعده يستدل به عليها ، وكرهت ذكر الرؤيا على نصها والأبيات التي فيها .

وتوفي في المحرم سنة تسع وستين ومائة (٧٨٥ م) يوم الخميس لثمان بقين من محرم بما سبذان .

وذكر الحافظ أبو محمد بن حزم في كتاب (نقط العروس في غريب التواريخ والحكايات والأخبار) [١] في باب من مات من الخلفاء مقتولاً وأنواع قتلهم ، قال : إن المهدي أرادت احدى حظيتيه طلة وحسنة أن تسم الأخرى في حلواء فأكلها هو فمات . وكانت تقول في بكائها عليه : أردت الانفراد بك فأوحشت نفسي منك . أو كلاماً نحو هذا . وتوفي وله اثنتان وأربعون سنة ، فكانت خلافته عشر سنين وشهراً ونصف شهر [٢] .

ثم صارت الخلافة الى ولده الهادي بالله

أبي محمد موسى فلم يطل مقامه فيها سوى سنة وثلاثة أشهر لأنه توفي ليلة الجمعة سادس عشر ربيع الأول من سنة سبعين ومائة (٧٨٦ م) وهو ابن خمس وعشرين سنة [٣] .

---

(١) هذا الكتاب عندي نسخة مخطوطة منه وهو صغير جداً .

(٢) ترجمته في تاريخ الخطيب البغدادي ج ٥ ص ٣٩١ .

(٣) وترجمته في تاريخ الخطيب البغدادي ج ١٣ ص ٢١ وفي الطبري ج ١٠ ص ٢١—٣٨ .

وفي هذه الليلة مات خليفة وهو الهادي ، وولي خليفة وهو الرشيد ، وولد خليفة وهو عبد الله المأمون .

ثم صارت الخلافة

صبيحة ذلك اليوم الذي هو يوم الجمعة سادس عشر شهر ربيع الأول من التاريخ إلى أبي جعفر هارون الرشيد بالله ، وفي أيامه كملت الخلافة بكرمه وعدله وتواضعه وزيارته العلماء في ديارهم كمالك بن أنس ،وسفيان بن عيينة ، وعبدالرزاق ابن همام المحدث ، والفضيل بن عياض وغيرهم.

وكان يحج سنة ويغزو سنة .ولما ورد عليه كتاب صاحب الثغور وقد ذكر له فيه خروج طاغية الروم وقع على كتابه : « أنا في الأثر ، ومن الله الظفر » . ووقع أيضاً.وقد ورده كتاب ثان منه في المعنى:«وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار». ووقع على رقعة رجل يتظلم في عمرو بن مسعدة : « يا عمرو اعمر نعمة الله عندك بالعدل فان الجور يهدمها » . فحج تسع حجج ، وغزا ثماني غزوات .

وكان يعادله في المحمل إلى مكة القاضي أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم ابن حبيب بن حبيش بن سعد بن بجير من بجيلة وهو سعد بن حبتة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نسب إلى أمه حبتة بنت مالك الأنصارية . رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق يقاتل قتالا شديداً فمسح على رأسه ودعا له بالبركة في ولده ونسله فكان عماً لأربعين وخالاً لأربعين وأباً لعشرين (١) .

وكان الرشيد من أهل العلم متضلعاً من الأدب يقرض الشعر ويجيده . فمن شعره ما رواه أبو محمد عبد الله بن مروان العمري فيما ذكره الحميدي في

---

(١) وترجمة الامام أبي يوسف في الخطيب البغدادي ج ١٤ ص ٢٤٢ وفي كتب الطبقات لرجال الحنفية .

(جذوة المقتبس) (١) له :

مـلك الثلاث الآنسات عناني ... وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البريـة كلها ... وأطيعهن وهن في عصياني
ماذاك إلا أن سلطان الهوى ... وبه قوين أعز من سلطاني

قلت : عارضها الظافر المستعين بالله سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر (٢) فقال :

عجباً يهاب الليث حد سناني ... وأهاب لحظ فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال ، لا متهيبـاً ... منها سوى الاعراض والهجران
وتملكت نفسي ثلاث كالدمى ... زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظر ... من فوق أغصان على كثبان
هذي الهلال وتلك بنت المشتري ... حسناً . وهذي أخت غصن البان
حاكمت فيهن السلو إلى الصبا ... فقضى بسلطان على سلطاني
فأبحن من قلبي الحمى وثنينني ... في عز ملـكي كالأسير العاني
لا تعذلوا ملـكاً تذلل للهوى ... ذل الهوى عز وملك ثان
ما ضر اني عبدهن صبابة ... وبنو الزمان وهن من عبداني
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى ... كلفاً بهن فلست من مروان
واذا الـكريم أحب أمن إلفه ... خطب القلا وحوادث السلوان
وإذا تجازى في الهوى أهل الهوى ... عاش الهوى في غبطة وأمان

وقتل الرشيد البرامكة سنة سبع وثمانين ومائة واستوزر الفضل بن الربيع

(١) هو « جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس » للحميدي المتوفى سنة ٤٨٨ هـ ذكره في كشف الظنون .

(٢) جاء ذكره في نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٢

واختلفت أخباره وأفعاله بقتل البرامكة .

وجدهم برمك كان على دين المجوسية هو وأجداده . وأصله من الجبل من نوحي خراسان وكان كاتباً أديباً ظريفاً قد تبحر في أخبار ملوك الفرس وعلمائهم، ثم نظر في علوم الاسلام حتى حصل علوماً كثيرة وقصد من بلاده الى الشام الى دمشق إذ كانت حضرة الخلافة في أيام بني أمية فصحب خواص عبدالملك ابن مروان حتى اتصل بعبدالملك بن مروان بعد حكاية يطول ذكرها ، فحسن موقعه عند عبدالملك ، وعلا قدره عنده ، ورزق الأولاد والعدد والعتاد وانقضت دولة بني أمية .

وولد لبرمك خالد ،فوزر خالد بن برمك للخليفة أبي العباس السفاح بعد قتل الوزير أبي سلمة الخلال وزير آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو أول خليفة قتل وزيره في الاسلام وذلك برأي أبي مسلم الخراساني .

ثم وزر خالد أيضاً للخليفة أبي جعفر المنصور ، ثم غلب على الوزارة الربيع ابن سليمان . وولد لخالد يحيي ، فوزر يحيي لهارون الرشيد بعد موت أخيه موسى الهادي .وكثر تصرفهم في البلاد ، وولد ليحيي الفضل وجعفر ، فوزرا للرشيد . وانتشر ذكرهم وجودهم في الأقطار ، وحازوا في ذلك شرف الذكر وعلوّ الفخار . وبهم تضرب الأمثال في الجود العميم ،والكرم الجسيم . ثم زاد الخليفة هارون لجعفر مع الوزارة الملك،وقال له في الذي عقد له بالملك: يا أخي يا جعفر ،قد أمرت لك بمقصورة في داري ، وما يصلح لها من الفرش وعشر جوار ، يكنّ فيها ليلة مبيتك عندنا .قال جعفر :يا أمير المؤمنين ما من نعمة متواترة ولا فضل متظاهر إلا ورأي أمير المؤمنين فيّ أجمل وأتم .

ثم انصرف جعفر وقد خلع عليه وحمل بين يديه مائة بدرة دنانير ومائة بدرة دراهم ،وأمر الناس بالركوب اليه،والسلام عليه. وأعطاه خاتم الملك وأمره أن يختم به

كيف أراد بأمره ورضاه ، حتى بلغ من صيته في الدنيا ما لم يبلغه أحد سواه .

وهو الذي أمر بزيادة مائة دينار في دينـار[1] ، وقصته في ذلك مشهورة . وفي كتب البرامكة مذكورة . وكان يفرقها على الناس في النيروز والمهرجان ، وأمر أن يكتب على أحد الوجهين :

وأصفر من ضرب دار الملوك   يلوح على وجهه جعـفرا
يزيـد على مـائة واحـداً   إذا ناله معسر أيسـرا[2]

وهو بيت إعراب عند النحويين . واعلم أن في قوله يلوح روايتين إحداهما ما رواه الفرّاء ـ وهي الرواية الصحيحة ـ تلوح بالتاء المثناة باثنتين من فوق فلا إشكال في نصب جعفر على هذه الرواية لأنه مفعول بتلوح .

وذلك أنه يقال في ما حكى الفرّاء : لحت الشيء لوحاً ولوحة إذا أبصرته . يقال لاحت نظرت وتشرفت . فمعنى تلوح تبصر على وجهه جعفراً فيكون المعنى يرى جعفراً هذا الاسم المنقوش على وجه الدينار لائحاً وهذا بيّن لا إشكال فيه ولا تعسف في إعرابه .

وأما الرواية الثانية يلوح بالياء المثناة باثنتين من تحت ففي نصب جعفر إشكال

---

(١) هذه دنانير الصلات والأفراح ولم تكن من الدنانير المتداولة المتعامل بها ، ولا تعد بوجه من نقود الدولة كما توهم كثيرون ، جاء ذكرها في كتب الأدب في يتيمة الدهر للثعالبي وغيرهـا .

(٢) في كتاب « الوزراء والكتاب » للجهشياري ص ٢٤١ ذكر هذه الأبيات بوجه آخر . وهنا تفصيل في ابن دحية لا نراه في غيره ونقل ما في الجهشياري المرحوم أحمد تيمور باشا ولم يقطع في أن المراد تصويره أو اسمه كما في كتاب التصوير عند العرب ص ٣١ وعلق عليه الدكتور زكي محمد حسن بقوله : « يرجح عندنا أن المراد اسم جعفر لا صورته » وابن دحية قد رجح ذلك أيضاً . وما في مجلة الثقافة عدد ٣٠٢ منقول من الخطيب البغدادي ج ٧ ص ١٥٦ رجح به الدكتور مصطفى جواد تصويره . ومن هذه النصوص يعرف وجه الخـلاف .

فمن النحويين من قال: هو منصوب باضمار فعل تقديره اقصدوا جعفراً أو عليكم جعفـــراً .

ومنهم من جعله من باب المفعول المحمول على المعنى من جهة أن جعفراً قد دخل في الرؤية من جهة المعنى لأن الشيء إذا لاح لك فقد رأيته ، ومثل ذلك مما انتصب بحمله على المعنى قول ابن قيس الرقيات[1]:

لن تراها ولو تأملت إلا ... ولها في مفارق الرأس طيبا

فنصب طيباً لما دخل في الرؤية .

ومثله قول عمرو بن قميئة :

تذكرت أرضاً بها أهلها ... أخوالها فيها وأعمامها

فنصب أخوالها وأعمامها لما دخلا في التذكر وهذا على مذهب سيبويه .

وأما ما ذكر أبو الفتح ابن جني فانه بدل من الأرض وهو بدل الاشتمال ومثل القول الأول قول عبدالعزيز بن زرارة الـكلابي :

وجدنا الصالحين لهم جزاء ... وجنات وعينـاً سلسبيلا

فنصب جنات وعيناً لما دخلا في الوجدان

والاستشهاد بالشعر عليه يطول فهذا مما يحتج به لمن زعم أن جعفراً انتصب لدخوله في الرؤية من جهة المعنى ويقدر له الناصب ما دخل عليه يلوح من الرؤية كما تقدم في الأبيات .

وفي هذا ضعف من جهة أن يلوح يبقى بغير فاعل والفاعل لا بد منه لأن الفعل لا يخلو من فاعل إما ظاهر وإما مضمر .

ومن النحويين من نصب جعفراً بالمصدر الذي هو ضرب تقديره من ضرب

---

(١) هو عبيدالله بن قيس الرقيات . طبع ديوانه في أوربا وتوفي سـنة ٧٥ هـ « معجم المطبوعات » .

دار الملوك جعفراً على وجه الدينار وأضاف الضرب الى الدار ، وإنما هو لأهلها ولأصحابها على وجه الاتساع كما تقول: هذا الدينار من ضرب الدار ، وهذا الثوب من عمل الدار .

وفي هذا الوجه أيضاً ضعف من جهة الفصل بين المصدر وصلته بأجنبي ، ألا تراه قد فصل بقوله: «يلوح على وجهه» بين ضرب وجعفر وهو أجنبي منه . فعلم بهذا أن رواية الفراء في البيت هي الصحيحة التي لا إشكال فيها .

فضرب عشرة آلاف دينار على هذه الصفة ودفعها لرجل واحد مدلس ينفقها مع جاريته وكان دلس عليه بولاية مصر فعفا عنه وألحقه بالبرامكة .

وبعد هذا كله أمر الخليفة بضرب عنقه بحيلة حصله بها في جوف داره وقسم جسده نصفين فجعل نصفه في الجانب الشرقي ونصفه في الجانب الغربي ، ونهب ديار البرامكة وأمر بقتل غلمانهم وأصحابهم ، وأنفذ الى النهروان ، فأخذ جميع ما كان لجعفر من المال والسلاح والكراع ، وقبض على الشيخ الوزير يحيي أبي جعفر ، وعلى ولده الفضل ، فسجنها بعد أن نزعهما عن نعمتها وخرب ديارهما ونهب عيالهما واستعبد ذراريهما .

وكان الخليفة قد نذر الحج إلى بيت الله الحرام راجلا ، حافياً إن أظفره الله بالبرامكة ولم تثر عليه البلاد . وقال : لو علمت يميني بالسبب الذي له فعلت هذا لقطعتها . فخرج حاجاً تضرب له السرادقات مظللة ، ويخرج من سرادق إلى سرادق إلى أن وصل مكة .

وفي تلك الأيام مات يحيي في السجن بقيده ، فلما قدم الخليفة سأل عنه فأعلم بموته ، فقال : لا إله إلا الله ، مات الخير بأسره . وقال : والله لو وجدت يحيي حياً لأفرجت عنه ، ولكن لا بد أن أنظر في حال الفضل إن شاء الله . فلما كان في غداة غد توفي الفضل . فلما علم الرشيد بوفاته قال : إنا لله وإنا اليه راجعون .

مات والله الجود اليوم بأسره . هذا الفضل والله الذي يقال فيه :

ولولم تكن في كفه غير نفسه   لجاد بهـــا فليتق الله سائله

ولـكن كان قضاء الله قدراً مقدوراً .

وقد كان الخليفة ندم ، ويزور شلو جعفر بباب الطاق بحيث لا يعرفه أحد ، يخرج في زيّ العامة . وقد كان استشار زبيدة زوجه وكانت مبغضة لجعفر فأشارت عليه ، فهمّ بالموت الأحمر ، والفعل الأكدر ، والقول الأنكر .

وكان نكب البرامكة ، كما قدمنا ، في صفر سنة سبع وثمانين ومائة (٨٠٣ م) وقتل جعفر . وذلك لتسع عشرة سنة خلت من خلافته . ولا يلتفت فيهم إلى قول الحسن بن هانئ [١] وهجوه لهم فذلك بهت وزخرفة . لأنهم سجنوه على الزندقة .

وتوفي الخليفة أبو جعفر هارون الرشيد بأرض طوس من بلاد خراسان ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة . وقيل : للنصف منه . وقال ابن أبي مريم في تأريخه [٢] : توفي ليلة الخميس للنصف من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة (٨٠٩ م) ، وهو ابن أربع وأربعين سنة . ودام في الخلافة ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وستة عشر يوماً . أخطأ عليه طبيبه جبريل بن بختيشوع من دبيلة كانت به فكان ذلك سبب منيته [٣] .

قلت : وقد زرت قبره بطوس لما قصدت زيارة قبر الرضى ، رضي الله عنه .

---

(١) هو أبو نواس الشاعر المعروف . وذكره في الاغاني وابن خلكان وكتب عديدة . ويعتقد الباطنية فيه اعتقادات غلو فيدعون فيه الظهور ، ويزعمون ان له شعراً كثيراً غير المعروف من ديوانه يتداولونه فيما بينهم ويخفونه عن الآخرين .

(٢) في مقدمة هذا الكتاب ذكر ابن ابي مريم .

(٣) ترجمته في الطبري ج ١٠ ص ١١٠ وفي الخطيب البغدادي ج ١٤ ص ٥ وفي ابن واضح .

ثم صارت الخلافة الى ابنه الامين

أبي عبد الله محمد ،ويكنى أيضاً أبا موسى . بويع له يوم وفاة أبيه بعهده إليه . لأن أمه زبيدة بنت جعفر ابن أبي جعفر الأكبر أول خليفة . اجتمع له في جده لأمه وأبيه الخلافة ، ولم تجتمع لأحد من بني العباس ذلك إلى الآن ، ولا ولي الخلافة بعد عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ من كان ابواه هاشميين إلا الأمين محمد بن زبيدة (١) .

وقتل بالسيف يوم السبت خامس عشرين من محرم سنة ثمان وتسعين ومائة (٨١٣م) . وقيل : يوم الأحد لثمان بقين من المحرم . وقيل : لخمس ليال بقين من المحرم ، بمدينة السلام ، وله ثلاث وثلاثون سنة .

وقال ابن واضح الكاتب: كانت سنّه يوم ضرب عنقه مولى طاهر بن الحسين بأمر طاهر سبعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر . وقيل : بلغ ثمانياً وعشرين سنة ، وله ولدان موسى وعبد الله .

وكان يركب هواه ويهمل أمر دنياه . ولما خلعه المأمون كان يعيبه بصحبة أبي نواس ، ويقول : يا معشر المسلمين صحب رجلاً شاطراً ماجناً كافراً يحلّ ما حرّم الله ، يحضّه على شرب الخمور وإتيان المحذور ، وارتكاب المآثم ، ونيل المحارم .

وهو الذي يقول :

ألا فاسقني خمراً وقل لي : هي الخمر ... ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

وبح باسم من تهوى ودعني من الكنى ... فلا خير في اللذات من دونها ستر

وقوله منها :

---

(١) في هامش الاصل خبر طويل عن عيون التواريخ وغيره منقولا عن حياة الحيوان ونظراً لطوله نكتفي هنا بالاشارة ، اذ الكتاب معروف متداول .

وبتنا يرانا الله شرَّ عصابة ... نجرر أذيال الفسوق ولا فخر

فأين ما رواه مالك(١) في الموطا : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما جلد الرجل الذي اعترف على نفسه بالزنا ثم قال : أيها الناس قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله ، من أصاب من هذه القاذورة شيئاً فليستتر بستر الله ، فانه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله .

قال ذو النسبين - أيده الله - وهذا حديث مرسل عند جميع رواة الموطا .

رواه مالك عن زيد بن أسلم ولا أعلمه يستند بهذا اللفظ بوجه من الوجوه . ومن أصل مذهب مالك - رحمه الله - والذي عليه جماعة أصحابه ، أن مرسل الثقة تجب به الحجة ، ويلزم به العمل ، كما تجب بالمسند سواء .

وأما أبو حنيفة وأصحابه فانهم يقبلون المرسل ولا يردونه إلا بما يردون به المسند من التأويل والاعتلال على أصولهم المعلومة لهم .

وفيه من الفقه دليل على أن الستر واجب على المسلم في خاصة نفسه إذا أتى فاحشة . وواجب أيضاً ذلك عليه في غيره ما لم يكن سلطاناً يقيم الحدود .

والقاذورة : كل ما يتقذر بالشرع ويجتنب والمراد عموم المعاصي .

والحديث المجمع على صحته في هذا المعنى المتفق على إخراجه حديث سالم بن عبدالله ، قال : سمعت أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : كل امتي معافى إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه .

هذا نص صحيح البخاري في كتاب الأدب في باب ستر المؤمن على نفسه .

---

(١) أحد الأئمة المعروفين وهو أبو عبدالله مالك بن أنس الأصبحي المدني . ولد سنة ٩٥ هـ وتوفي سنة ١٧٩ هـ . والموطأ له طبع مراراً وله الرسالة ، والمدونة الكبرى منقولة عنه .

وأخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق إلا أن نصه عنده : كل أمتي معافى إلا المجاهرين ، وإن من الاهجار أن يعمل العبد بالليل عملا ثم يصبح قد ستره ربه فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا . وقد بات يستره ربه فيبيت يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه .

قال زهير : وإن من الجهار .

قال ذو النسبين - أيده الله : - رواه النسفي صاحب البخاري : وإن من المجانة . وهو عندهم تصحيف من المجاهرة ، وإن كان معناها لا يبعد ، لأنها ترجع الى الاستهتار في الأمور وعدم المبالاة بما فعل أو قال أو قيل له .

وأما الاهجار - وهي رواية العذري والسجزي في صحيح مسلم - فهو قول الفحش والخنا . وهو تصحيف من الاجهار وقلب ، ورواية ابن ماهان بروايته الى مسلم عن زهير بن حرب « من الجهار » .

ورواية شيوخنا الخراسانيين عن الفراوي عن الفارسي « من الاجهار » . والاجهار في اللغة والجهار والمجاهرة كله سواء وصواب وهو الاظهار والاعلان يقال : جهر بالشيء وأجهر به إذا أعلن به وأظهره . وكله راجع الى تفسير قوله - صلى الله عليه وسلم - : « إلا المجاهرين » .

وأما من رواه في صحيح مسلم « من الهجار » فتصحيف سخيف بدلقه العجم وغيرته من قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، لأن الهجار في اللغة الحبل أو الوتر تشد به يد البعير ، أو حلقة يتعلم فيها الطعن . ولا يصح ها هنا لفظاً ولا معنى

واتصل ذلك بالأمين فحبس أبا نواس برأي وزيره الفضل بن الربيع ، ثم أطلقه على ما ذكره المؤرخون ، فبقي في الخلافة أربع سنين وسبعة أشهر وعشرة أيام

وقيل : واحد وعشرون يوماً[١] . وليس من نسله خليفة الى الآن .

وكتب طاهر بن الحسين مولى خزاعة إلى المأمون عند قتله الأمين : أتى الله أمير المؤمنين تحفة وسلاماً وسلامة أوليائه بوفاة محمد بن الرشيد ما لا دافع له من القضاء . للاستبداد بالتفرّد والبقاء وإنفاذ المشيئة فيما أحب من إعزاز وإذلال، وموت وحياة ، فلتهن أمير المؤمنين فوائد الله وليعزه عن أخيه ما يؤول اليه أهل الأرض والسماء .

فكتب اليه الخليفة المأمون : لسروري بالتعزية أعم من سروري بالتهنئة والسلام .

(ثم صارت الخلافة الى الامام العالم

المحدث النحوي اللغوي) أبي العباس عبدالله المأمون بن الرشيد. بويع البيعة العامة بمرو من بلاد خراسان بعد قتل المخلوع الأمين ، وذلك يوم الأحد لخمس ليال بقين من المحرم .

وبايع للرضى[٢] أبي الحسن علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بالعهد بعده ، وأزال لبس السواد . ولبس الخضرة بدلاً منه .وذلك يوم الاثنين لسبع خلون من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين ، وسماه الرضى وكتب الى الآفاق بذلك[٣] .

---

(١) ترجمة الأمين الخليفة في تاريخ الخطيب البغدادي ج ٣ ص٣٣٦ .

(٢) ورد بلفظ « الرضى » مقصوراً ، وبالألف أيضاً . وفي ابن الأثير جاء « الرضا » كما في ج ٦ ص ١٢٠ وغيرها ، وكذا في تاج العروس .

(٣) ولم نعثر على نقود ضربت باسمه في ايامه الا انه عثر على نقد ضرب بفارس سنة ٢٠٣ ﻫ جاء فيه أنه مما أمر به الأمير الرضى ولي عهد المسلمين علي بن موسى بن علي بن ابي طالب في حين انه توفي في اول هذه السنة (في آخر صفر) . وفي نقد آخر ضرب بالمحمدية سنة ٢٠٤ﻫ . تأريخه لما بعد وفاته اذ يصح ان يكون النقد الأول ضرب ثم مات .٠/ مسكوكات =

ووافى الكتاب الى مصر بها الى أميرها السري ابن الحكم في المحرم سنة اثنتين ومائتين ، فدعا له بالعهد على المنابر ، وذكر ما خصه الله به من الشرف والمآثر ، حتى توفي الرضى بطوس ، ودفن أمام قبر الرشيد في أول سنة ثلاث ومائتين . مرض ثلاثة أيام .

وأظهر المأمون عليه جزعاً شديداً ، ومشى بين قائمتي النعش حاسراً يقول : الى من نفزع بعدك يا أبا الحسن ؟ . وأقام عند قبره ثلاثة أيام ، يؤتى كل يوم برغيف وملح فيأكله وكانت سن الرضى أربعاً وأربعين سنة .

ذكر هذا أحمد ابن أبي يعقوب بن وهب بن واضح الكاتب في تأريخه ، وابن خداع في كتاب « المعقبين من ولد أبي طالب » وهو الثاني من بني العباس ممن اسمه عبدالله وكنيته أبو العباس وإن كان المسعوديّ ذكر أنه يكنى أبا جعفر . فالمسعوديّ مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف(١)

وكان المأمون أحلم أهل زمانه . دخل عليه ابراهيم بن المهديّ قبل رضاه عنه فقال : يا أمير المؤمنين ، وليّ الثأر محكم في القصاص ومن تناوله الاغترار بما مدّ له من أسباب الرخاء أمن من عادية الدهر . وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب كما جعل كل ذي ذنب دونك . فان تأخذ فبحقك وان تعف فبفضلك .

ذنبي اليك عظيم ... وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا ... فاصفح بفضلك عنه

= اسلامية قتالوغي ص ١٩٧ وما بعدها) وابن الأثير ج ٦ ص ١٢٠ .

(١) المسعودي مؤرخ وهو ابو الحسن علي بن الحسين وله مؤلفات عديدة منها أخبار الزمان ، ومروج الذهب ، والتنبيه والاشراف . توفي سنة ٣٤٦ هـ — ٩٥٧م واخبار الزمان طبع المجلد الأول منه ، وكذا طبعت مؤلفاته المذكورة . وله مؤلفات اخرى في التأريخ . وترجمته في فهرست ابن النديم ص ٢١٩ وآداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣١٣ وكتب عديدة .

إن لم أكن في فعالي من الكرام فكنه

فقال : القدرة تذهب الحفيظة . والندم توبة . وعفو الله بينهما . وهو أكبر ما تحاول يا ابراهيم لقد جئت إلى العفو حتى خلت ألا أوجر عليه . لا تثريب عليك يغفر الله لك !

وعفا عنه وأمر برد ماله وضياعه . فقال :

رددت مالي ولم تبخل عليّ به وقبل ردك مالي ما حقنت دمي
فأبت عنك وما كافأتها بيد هما الحياتان من وفر ومن عدم
وقام علمك بي فاحتجّ عندك لي مقام شاهد عدل غير متهم
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به والمال حتى أسل النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عارية رجعت إليك لو لم تهبها كنت لم تلم

وهو أول من انتقل إلى سكن الجانب الشرقيّ وسكن القصر الحسنيّ وبنى بأهله به وهي بوارن واسمها خديجة بنت الوزير الحسن بن شهاب .

وكان يجلس مع العلماء والمتعلمين في مجلسه من أول النهار إلى آخره يتناظرون بين يديه فيرشدهم ويمدّهم بالأموال والكتب ويتفقدهم إذا غابوا عنه ويزورهم في بيوتهم ، مع كثرة العطاء والرغبة في حسن الثناء .

وكان أيضاً يحضر مع الناس على الطعام . ويخرج في الليل يطوف في عسكره خوفاً على خلافته ، لينظر من يحبها أو يبغضها .

وكان يحب معرفة أخبار الناس ويتقصّاها ، وعسى أن يفرج كربة ممن يتشكاها ، وجعل برسم الأخبار ببغداد ألف عجوز وسبعمائة عجوز ، فما كان يخفى عليه شيء من أمور الناس ظاهراً وباطناً . وكان لا ينام حتى يقف على جميعها .

وقد وقّع في يوم واحد بثلثمائة ألف دينار . وعرض عليه صُكاك وقصص

فوقع في جميعها « بنعم » ولم يقل في واحدة منها :« لا » وللشعراء في ذلك قصائد محفوظة عند الناس . وهو القائل : لو علم الناس ما عندي من حلاوة العفو لما تقربوا إليّ إلا بالذنوب .

كتب بعض الرؤساء إلى الخليفة المأمون رقعة ، وكان قد وعده باستخدامه فطال مقامه ببابه :

إن رأي أمير المؤمنين أن يفك أسير عدته من وثاق المطل بقضاء حاجته ، أو الاذن له بالانصراف إلى بلده .

فأعجب المأمون بايجازه فوقع على ظهرها : يكتب له تقليده ، وترغد عيشه أيامه بخمسين ألف درهم جزاءً على طول مقامه .

ولما مات عمرو بن مسعدة نظر فيما خلفه من المال، فاذا قيمته ألف ألف دينار فأشير على مخلّفيه أن ينهوا الخبر إلى المأمون ، لئلا يصل اليه من غيرهم فيجد عليهم بكتمانهم إياه . فكتبوا اليه رقعة يعلمونه بما خلفه والدهم من المال يسألونه قبول ما اختار منه ليحمل الى بيت المال :

فوقّع على ظهر رقعتهم :

إنما اجتهدوا في خدمتنا ، وبالغوا في نصيحتنا ، لنعزّهم في حياتهم ، ونتكفل بمخلفيهم بعد مماتهم ! وهذا المال وإن كثر لواحد ، فان نقل لجماعة فبارك الله لهم فيه ، والسلام .

وما عسى أن يقال في من خصه الله بهذا النسب ، ونشأ من صغره على الاشتغال بالعلم والأدب .

روينا بأسانيد كثيرة أن المأمون هذا كان جالساً بين يدي أبي الحسن الكسائي المقرىء النحوي يعلمه ، إذ حضر غلام صغير ، ومعه رقعة مختومة، فسلمها إلى المأمون ، فلما قرأها خرق من وسطها قطعة ووضعها في فيه ، ومضغها وأكلها .

فقال الكسائي : عرّفني السبب الموجب لذلك . فقال المأمون : أسألك إعفائي من الجواب . فقال له : والله لا بدّ أن تعلمني بحال الرقعة وما فعلت فيها . فقال في الحال :

أتاني كتاب فيه وعد زيارة وقد كان قلبي نحو ذلك يخفق
فخرّقت حرف الوعد ثم أكلته وأهديته للقلب ، لا يتعلّق

فقام الكسائي من ساعته ، واستأذن على هارون الرشيد، وعرّفه بما جرى . وقال له : يا أمير المؤمنين، هذا عنوان فضل ولدك. فاستحسن البيتين واستظرفها، وخلع على الكسائي خلعاً فاخرة ، وأمر له بعشرة آلاف درهم (١) .

وله عقب كثير ، وليس من نسله خليفة إلى الآن . وكان أمره نافذاً من إفريقية المغرب إلى أقصى خراسان ووراء النهر، وولاته بالسند .

وقدم ملك التبت ، ومعه صنم من ذهب كان يعبده على سرير من ذهب مرصع بالجوهر ، وأسلم الملك ، وأخذ المأمون الصنم ، فأرسله إلى الكعبة وشكر الله على هداية الملك ، وأمره أن يعرف الناس هداية الله تعالى .

وكتب إليه ملك الهند مع هدية نفيسة أهداها اليه :

من دهمى ملك الهند وعظيم أركان المشرق وصاحب بيت الذهب وإيوان الياقوت وفرش الدرّ ، الذي قصره مبني من العود الذي يختم عليه فيقبل الصورة قبول الشمع ، والذي توجد رائحة قصره من عشرة فراسخ ، والذي يسجد له أمام البدّ (٢) الذي وزنه ألف ألف مثقال من ذهب عليه مائة ألف حجر من

---

(١) ورد لفظ (هرون) بلا ألف وكذا (ألف) بدل (آلاف) فقتضى التنبيه الى أنه جاء أمثال هذه كثيراً .

(٢) يريد بالبد ما هو معروف عند الترك بـ (بت) أي: صنم، كما يقولون: تنكرى بتي أي: صنم الله. ومنهم من يقول: (بد) مأخوذ من بودا أو بوذا بتحوير ، وهو بت عند =

الياقوت الأحمر والدرّ الأبيض ، الذي ركب في السعادة في ألف موكب وألف راية مكلـلة بالدرّ تحت كل راية ألف فارس معلمين بالحرير والذهب ، والذي في مربطه ألف فيل خزائمها أعنة الذهب ، والذي يأكل في صحاف الذهب على موائد الدرّ ، الذي في خزائنه ألف تاج وألف حلة جوهر لألف ملك من آبائه والذي يستحي من الله أن يراه خائناً في رعيته إذ خصّـه بالأمانة عليهم والرئاسة فيهم . الى عند عبد الله ذي الشرف والرئاسة على أهل مملـكته .

أما بعد فان الذي تقدم به ذكرنا ، أيها الأخ ، من الملك والشرف والثروة ، فما خطر مما ترتحل به الأوقات وتنجرّ به الساعات ذهاباً وزوالاً ، والخطر الذي يجب على المستودعين من الله فضيلته العقل ، والاعتداد به ، والمـكاثرة له ، ولـكنا جرينا على ما جرت به سنة الملوك قبلنا ولم نجهل أن الله ـ تبارك وتعالى ـ الذي تفوت الألسن ذكره ، فان الابتداء بتحميده من أفضل الاعتداد ولـكنا أجللناه عن الافتتاح بذكره إلا في مواقف المناجاة عائذين .

وأخبارك ترد علينا بفضيلة لك في العلم لم نجدها لغيرك ، ونحن شركاؤك في المحبة والرهبة ، وان في أفئدتنا من ذلك مالم نزل به لله للفضل ذاكرين ، وقد افتتحنا استهداءك بأن وجهنا اليك كتاباً تسميته « صفو الأذهان » . والتصفح

= الترك فعرب بهذا اللفظ . وجاء في معرب الجواليقي : « والبد الصنم فارسي معرب والجمع البددة » وفي القاموس أنه معرب (بت) ، ويجمع على ابداد ويطلق على بيت الصنم ، وفي ابن دريد : البد الصنم الذي يعبد ، فلا أصل له في اللغة . وقال ابن سيده : هو بيت فيه اصنام وتصاوير معرب بت ، واللفظ وصل الى الترك ومن طريقهم أو رأساً الى الفرس . واصله من بودا أو بوذا .

وفي كتاب الفرق لأبي محمد : أن عباد البددة وهم الأصنام قوم بأرض الهند . وعد طبقاتهم مما يؤيد انهم عباد (بوذا) ويعرفون بالبوذية كما يعرف البراهمة هناك وفي الصين . وفي فهرست ابن النديم كلام عليه ص ٤٨٧ ولا شك انه في الأصل (تمثال) او صنم خاص ، ثم عم كل صنم . وفي دائرة المعارف الاسلامية تفصيل في ج ٣ ص ٤٣٦ .

له يسعد على صواب التسمية، وبعثنا اليك لطفاً بقدر ما وقع منا موقع الاستحسان له ، وإن كان دون قدرك .

ونحن نسألك أيها الأخ أن تنعم في ذلك بالقبول، وتوسع عذراً في التقصير.

وكانت الهدية جام ياقوت أحمر ، فتحه شبر في غلظ الاصبع مملوءاً دراً ، وزن كل درّة مثقال ، والعدد مائة . وفراشاً من جلد حية بوادي الديبراج تبتلع الفيل ، ووشي جلدها نقط سود كالدراهم في أوساطها نقط بيض لا يتخوّف، من جلس عليه السلّ ، وإن كان به سلّ وجلس عليه سبعة أيام برىء ، ومصليات ثلاثاً بوسائدها من جلد طائر يقال له : السمندل ، موشى إذا طرحت في النار لم تحترق فراوزها درّ ، ومائه ألف مثقال عود هندي يختم عليها فتقبل الصورة ، وثلاثة آلاف مناً من كافور محبب، كل حبة أكبر من اللوزة ، وجارية طولها سبعة أذرع ، تسحب شعرها ، لها أربع ظفائر ، طول كل شفر من أشفارها إصبع يبلغ إذا أطرقت نصف خدها ، ناهداً ، لها ثماني عكن ، في نهاية الحسن والجمال ونهاء البياض .

وكان الكتاب مكتوباً في لحاء شجرة تنبت بالهند يقال لها : الكاذي ، لونه إلى الصفرة ، والخط لازورد مفتّح بذهب .

قوله في الهدية : « طول كل شفر من أشفارها » « شفر العين » مضموم الشين . ويقال بفتح الشين أيضاً ، وهو حرف الجفن حيث ينبت الهدب .

فأما بر المأمون : من عبدالله، عبدالله الامام المأمون ، أمير المؤمنين ، الذي وهب الله له ولآبائه الشرف بابن عمه النبيّ المرسل - صلى الله عليه وأعلى ذكره - والتصديق بالكتاب المنزل .

إلى ملك الهند وعظيم من تحت يده من أركان المشرق :

سلام عليك ،فاني أحمد الله إليك ،الذي لا إآله إلا هو وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله وعلى أهل بيته .

وصل كتابك فسررت لك بالنعمة التي ذكرت ، ووقع اتحافك إلينا الموقع الذي أملت من قبول ذلك ، ولولا أن السنّـة لنا جارية بترك تقديم من لم يكن لنا على الشريعة موالياً ،ما تركنا ما يحسن من مبرّتك بالتقديم والاعتذار ، فهذا أحد المقدمتين ، وأنت له منا أهل . وقد أهدينا إليك كتاباً ترجمته (ديوان الأدب وبستان نوادر العقول) . ومطالعتك له تحقق عندك فضيلته . وجعلنا لذلك عنواناً من الهدية ، فهي لطف استقللنا قدرها لك ، ولو كانت الملوك تتهادى على أقدارها لما اتسعت لذلك خزائنها ، وإنما تجري ذلك بينها على قدر ما يدل على النية بالتوطين إن شاء الله .

وكانت الهدية فرساً بفارسه وجميع آلاته عقيقاً ، ومائدة جزع فيها خطوط سود وحمر وخضر على أرض بيضاء ، فتحها ثلاثة أشبار ، وغلظها إصبعان ، قوائمها ذهب . وثمانية أصناف بياض مصر ، وخز السوس ، ووشي اليمن ، وملحم خراسان ، والديباج الخسرواني ،وفرش قرمز ،وفرش سوسنجرد ، ومائة طنفسة حيرية بوسائدها .

كل ذلك مائة قطعة من كل صنف .

وجام زجاج فرعونيّ ، فتحه شبر ، في وسطه صورة أسد ، أمامه رجل قد برك على ركبتيه ، وفوّق السهم في القوس نحو الأسد . وكانت المائدة والجام مما أخذ من خزائن بني أمية . وكان الكتاب في طومار ذي وجهين ، وغلظ الخط إصبع .

ذكر هذا كله الخالديان: أبو بكر محمد وأبو عثمان أحمد ابنا هاشم في كتاب «الهدايا

والتحف[1] »من تأليفها . وحدثنا بذلك عن أبي العباس أحمد بن أبي خالد عن أبيه عن جده أحمد بن أبي خالد وزير المأمون .

قال ذو النسبين - أيده الله - : والناظر في كتاب المأمون يعلم أنه قاصر عن كتاب ملك الهند في الجواب . ولقد كان الواجب عليه أن يقابله على افتخاره بملكه ، ويدخل عليه في الفخر من كل باب . لأنه افتخر بأمر دنيوي ، وملك لا يبقى ، وكان للمأمون من الفخر بالآخرة وسلالة النبوة فخر صاحبه لا يشقى ، وغيره لمثل هذا الفخر لا يرقى .

فكان يكتب :

من عبد الله ، عبد الله المأمون أمير المؤمنين ، سلالة أهل البيت الطاهرين ، أهل مهبط الوحي ، ومصعد الأمر والنهي ، ومدار أفلاك العلاء ، ومزار أملاك السماء ، وموطن التنزيل ، وموطىء الروح الأمين جبريل ، ومقرّ الخلافة والامامة ، وموضع الكرامة ، ولنا تحجّ ملوك الأرض ، وذلك واجب عليهم وجوب الفرض ، فاز شرفنا بالسبق وفات ، وهيهات أن يدرك شأونا هيهات .

وكل ذلك ببركة ابن عمنا ، الذي بالبركة عمّنا ، الاسماعيليّ النسب ، الابراهيميّ المنتسب ، المنيف الطرفين ، الشريف السلفين ، المتلقى بالرسالة ، والمنتقى للأداء والدلالة ، المبعوث إلى الأحمر والأسود ، سيد ولد آدم وما ولد من ولد . الذي أيد بكتاب أنزل من الملكوت الأعلى عليه ، وأوصل على

---

(١) لم يذكر هذا الكتاب في الفهرس عند الكلام على الخالديين في ص ٢٤٠ ، ولا في كشف الظنون . والخالديان من قرية الخالدية في الموصل . وجاءت ترجمتهما في اليتيمة ج ١ ص ٥٠٧ وفي معجم الأدباء ج ٤ ص٢٣٦ وفي معجم البلدان في مادة (الخالدية) وفي فوات الوفيات ج ١ ص ٢١٨ . وطبع المختار من شعر بشار اختيار الخالديين بشرح أبي طاهر اسماعيل التجيبي البرقي سنة ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م . وهناك تفصيل .

يدي الروح الأمين إليه . أعجز الانس والجن حين تحدّاهم برهانه ، وأعجب الجن لما سمعوه منه بيانه ، فيه تبيان كل شيء وتفصيله ، وبرهان كل مشكل ودليله ، قد فصلت آياته بتقديس وتوحيد ، ووعد ووعيد . وحكم وإحكام ، ونقض وابرام ، وقصص وأخبار ، وسير وأسرار ، والحضّ على العمل الذي هو سبب دخول الجنة ، والتحذير من العمل الذي هو سبب دخول النار ، فهو بحر لا تفنى عجائبه ، ولا تنفد غرائبه .

والذي بشرت به الأنبياء ، وهتف (١) بمبعثه الكهان ، وقام على صدقه البرهان ، وردّ الله ببركته عن مكة الفيل ، وأرسل على الملك الذي جاء به وعلى أصحابه طيراً أبابيل .

والذي خمدت ليلة مولده نار فارس ، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ، وكانت تعبدها المجوس كعبادة الكفار للأوثان والأصنام . ورأت أمه حين ولدته نوراً أضاء لها قصور بصرى من أرض الشام . وإنشقّ أيوان كسرى ،وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وهو القصر الأبيض الباهر بحسنه أبصار المبصرين ، ونزلت الملائكة من الأفق المبين ، ورجمت بالشهب جميع الشياطين ، وغاضت بحيرة ساوة وذهب ماؤها المعين ، وفاض وادي السماوة ، آية حصل بها لمن خامره الشك اليقين .

والذي تظلله ظلل الغمام ، وتخاطبه البهم بفصيح الكلام ، وتسلم عليه بالنبوة الأحجار ، وتسجد له الأشجار ، ويدعو الشجر فيأتي إليه ، ثم يأمره بالرجوع

---

(١) هتف اذا نادى ودعا معلناً وصاح ، وفي صحيح مسلم في كتاب الايمان عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية : « وأنذر عشيرتك الأقربين » ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى صعد الصفا فهتف : ياصباحاه فقالوا :من هذا الذي يهتف؟ قالوا : محمد ، الحديث الى آخره برواية ابي كريب . وفي صحيح البخاري في وسط المغازي في قتل أبي رافع ، قال الأمير عبدالله بن عتيك فهتف به البواب :ياعبد الله، الحديث . (هامش الأصل)

فيرجع سامعاً مطيعاً بقدرة من أعانه عليه ، ويسبّح الطعام عند أكله له ، وذلك آية خصه الله بها وفضله .

والذي أسري به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ليلا ، وجرّ على المجرّة في درج المعراج ذيلا ، على دابة يقال لها البراق ، لا يستطاع ركوبها ولا يطاق ، إلا لمن سخرها له الاله الخلاق ، حتى انتهى ، إلى سدرة المنتهى ، وهي في السماء السابعة ، حيث تعنو وجوه الملائكة الطائعة ، ويغشاهم سنى الأنوار الساطعة .

فسار - صلى الله عليه وسلم - مسيرة سبعة آلاف سنة ، صاعداً ونازلاً في بعض ليلة بجسده وروحه دون نوم ولا سنة ، واستوى بمستوى يسمع فيه صريف الأقلام على الألواح ، وعاد إلى مضجعه عندما كاد جبين الشرق يرشح بنور الصباح ، وأصبح يحدث بأخبار الملكوت في أم القرى ، سنده عن حافظ ما كذب الفؤاد ما رأى ، افتمارونه على ما يرى ؟

والذي انشق له القمر المنير ، ونبع من بين أصابعه مراراً عدةً الماء النمير ، وزكا بيمن يمينه الطعام اليسير ، فأكل منه الجمّ الغفير ، وقد جعل الله في كل عضو منه آية ، وذلك دليل على مكانه عند ربه وإن له به عناية .

والذي حذّره الذراع المسموم عن أكله ، ثم لم يعد عليه بعد ما أكل منه لقمة لعصمة الله له في ذلك كله .

والذي حنّ الجذع اليابس إليه وسمع له صوت كأصوات العشار ، وهذه آية نظرت بعين الصحة وطارت بجناح الانتشار ، ورجف به وبخلفائه الجبل ، فركضه برجله وقال : اسكن . فسكن وامتثل ، وبث له شكواه الجمل .

والذي قرن الله تعالى اسمه باسمه وأعلن به في الدنيا في كل مكان ، وأجرى ذكره بأنواع المحامد على كل لسان .

والذي كان ينصر ويؤيد في الحروب ، بريح الصّبا وهي ذات الهبوب ، فهزمت ليلة الأحزاب جميع أعدائه وكانوا قد حاصروه في عدة ألوف ، فاقتلعت الخيام وأكفأت القدور وزحزحت جميع الصفوف ، ونصر بالرعب مسيرة شهر بين يديه ، ونزلت السكينة من الله عليه ، وانكسر سيف عكاشة بن محصن يوم بدر فأعطاه عرجوناً أو عوداً فصار بيده سيفاً يومئذ يفري الجماجم ، ويبري الأعضاد والبراجم ، وكذلك انقطع سيف عبد الله بن جحش يوم أحدٍ فأعطاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عرجونة نخلة فصار في يده سيفاً يقال : إن قائمه منه . ولم يزل يتناول حتى بيع من بغاء التركي بمائتي دينار ، وهذه معجزة قد بقيت بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهي واضحة المنار .

والذي خصه الله بالحوض والشفاعة ، وأخبر بما كان وما يكون الى يوم قيام الساعة . وهذا الحوض هو نهر الكوثر المفعم الملآن ، الذي مساحته من بصرى إلى عمان ، أو من صنعاء الى عمان ، وماؤه أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل في المذاق ، وأباريقه على عدد نجوم السماء ذوات الاشراق .

والذي زوى الله له الأرض فأراه مشارقها ومغاربها ، وأعطاه كنوزها ومطالبها ، وأخبره ـ جل وعلا ـ أن ملك أمته سيبلغ ما زوي له منها ، ولقي ربه ـ جلت قدرته ـ وهو معرض إعراض الزاهد عنها ، وقبض ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن خيّره الله في الدنيا فاختار لقاء ربه ، لرغبته فيما لديه وحبه ، فجمع الله له بين ملك الدارين : الدنيا والآخرة ، وأسبغ عليه جزيل النعمتين : الباطنة والظاهرة ، وكسر بدعوته شوكة الأكاسرة ، وجبر الدين وقصم ظهور الجبابرة ، ففشت دعوته في المشارق والمغارب كما وعد وشاعت ، وأخبر عن الله ـ عز وجل ـ أنه يستخلف في أرضه من آمن به ، فكان ذلك كذلك . وهذه معجزة راعت ، فاستخلف الله أصحابه وأهل بيته من بعده فسمعت الأمة لهم وأطاعت ، فكانوا

خلفاء الخلق ، وفتحة الغرب والشرق ، يقاتلون عبدة الأوثان والنيران عزلاً ، ويسوق الواحد منهم الألف كما يساقون يوم القيامة حفاة عراة عزلاً ، وطارت قلوب الملوك رعباً منهم وطاشت ، وخفقت أفئدتهم خوفاً من ذكر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجاشت ، وتمنت إلى زمنه ما عاشت ، فبهذا النبيّ الأميّ أفاخر من تفخّر ، وأكاثر من تقدم وتأخر ، صلى الله عليه عدد الرمل ، ومدد النمل ، وعلى أهل بيته الكريم ، وأصحابه الجدراء بالتقديم والتعظيم .

إلى (دهمى) عظيم عظماء الهند ، وركن أراكنة السند ، شرح الله صدره للاسلام ، وجعله ممن دعاه إلى دار السلام ، واتبع سبيل المؤمنين ، وقال : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين »

أما بعد فانه وصل كتابك جالياً عرائس خصائصك علينا ، وجالباً نفائس خصائلك الينا ، ففضضنا عن الجواهر منه ختاماً ، وأمطنا عن الأزاهر كماماً . واستجلينا من معانيه ما لو كانت خدوداً لكانت مضرّجة ، أو ثغوراً لكانت مفلجة ، واستدللنا بفحوى خطابه على ما تضمره لنا من مودة لا كذب فيها ، ومحبة نيطت بعرا الصدق أواخيها .

فأما ما صدرته في كتابك من تعظيم ملكك ونفيس ذخائرك ، وطيب رائحة قصرك ، وفخرك وفخر آبائك ، فانك فخرت بأعراض الجواهر الفانية القليلة البقاء ، وزخارف الدنيا التي لا يحصل الواثق بها على غير النصب والشقاء ، وملكها وإن عظم دوامه ، سحابة صيف ، ومالكها وإن طال مقامه ، فعجالة ضيف .

فانا لا نفاخرك بأمثاله مما ملكناه من سهل الأرض وجبالها ، واحتوت عليه خزائننا مما أخذناه بسيوفنا من ذخائر الملوك وأموالها .

وإنما الفخر بتقوى الله وطاعته ، والايمان بهذا النبي الأمّي خاتم الأنبياء ، وأفضل من مشى تحت السماء ، والتزام شريعته ، والعدل في الرعية والحكم بالسويّة ، بين القوي والضعيف ، والشريف والمشروف ، وذلك التزام شريعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والعمل بمقتضاها ، وان تتّقي كتاباً عند الله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

فكيف كفيت عمه البصيرة إذا سطع نور البرهان ، جنحت على ما أوتيت من فطنة ذكية وفطرة زكية الى عبادة الأوثان ؟ واتخذت البدّ المصنوع لصانع المصنوعات ندّا ؟ ولم تر لك منه تقليداً لمن سلف من الآباء بدّا ؟

وأنا أدعوك دعاء المشفق الناصح ، إلى سلوك السنن الواضح ، وخلع الأنداد ، ومفارقة ديانة الأبداد(١) ، والتوجه لمن وجه وجهه إليه إبراهيم الخليل ، وقام على وجوده ووجوب وحدانيته الدليل ، وزين السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وأظهر في الأرض أنواع العجائب ، والاقرار بنبوّة من ظهرت على يديه ما ذكرناه آنفاً من الآيات الخارقة للعادات ، فانه لا يسمع به أحد ولم يؤمن به الا كان من أصحاب النار ، وحقّت عليه كلمة العذاب في دار البوار ، فأسلم أيها الملك تسلم ، ويكن لك مالنا ، وعليك ما علينا فان إسلامك إن منّ الله عليك به من أسنى التحف الواصلة الينا .

وأما ما أتحفتنا به من هدية ، وأطرفتنا به من طرفة سنية ، فما آتانا الله خير مما آتاكم بل ، أنتم بهديتكم تفرحون . إلا أنا اتباعاً لنبينا - صلى الله عليه وسلم - في قبوله للهدية ، لما جبله الله عليه من الخلق الكريم ، وطمعاً في أن يهديك الله بلطفه للصراط المستقيم قابلناها بالقبول ، وثنينا عنان النظر اليها ، واقتدينا بأن

---

(١) جمع البد على الأبداد موافقاً لما في القاموس .

عمنا - صلى الله عليه وسلم - في الاثابة عليها ، وبعثنا اليك كتاباً يسمى (بستان الألباب) يفتر عن جواهر الحكم وزواهر الآداب ، ومطالعتك له تطلعك على أن اسمه لمسماه موافق ، ونعته لمعناه مطابق ، وشفعناه بما تيسر تناوله علينا ، من الخزائن الحاضرة لدينا ، معتذرين لديك من التقصير ، ومقابلة مجلسك بالنزر الحقير ، ولكن الملوك لو تهادت على قدر أقدارها ، وعظم أخطارها ، لضاقت عن ذلك متسعات أحوالها ، وفنيت بيوت أموالها ، وإنما الهدية وإن قلّت دليل الاحتفال بالمهديّ اليه والاهتبال .

والسلام على من اتبع الهدى وقال : إنني من المسلمين ، والحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وعلى آله الطاهرين الطيبين ، وعلى أصحابه أجمعين ، والسلام عليه وعليهم الى يوم الدين .

وقدم المأمون مصر سنة سبع عشرة ومائتين ، فنزل قبة حاتم بن هرثمة التي على الجبل ، ووجه في محاربة الذين خرجوا عليه ، فهزموا وقتلوا ، ثم خرج بنفسه الى قفط وغيرها من بلاد الصعيد فقتلهم وسبى ذراريهم (١) .

ولما وقف على مدينة منف وعين شمس ، وكان قد اطلع على التواليف التي ألف الناس في فضل بلاد مصر وأنها كانت في أيام القبط والفراعنة قناطر وجسوراً بتقدير وتدبير حتى أن الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاءوا ويرسلونه كيف شاءوا فذلك قوله جلّ من قائل فيما حكى من قول فرعون : « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ أفلا تبصرون؟ »

(١) جاء تفصيل دخول الخليفة المأمون في مصر في كتاب (المقصد المرام في عجائب الاهرام) للشيخ عبد القادر البغدادي صححه ونقحه من أصله لأسعد بن مماتي . وأوضح عن قبة ابن هرثمة وما آلت اليه ونقل أخبار المأمون وأعماله هناك وما حاول من هدم الهرم مما يطول ذكره نقلا عن مؤرخين كثيرين . والكتاب عندي نسخته المخطوطة .

ولم يكن في الأرض يومئذ ملك أعظم من ملك مصر ، وكانت الجنّات بحافتي النيل من أوله إلى آخره في الجانبين جميعاً ما بين أسوان إلى الرشيد وسبعة خلج وغير ذلك مما ذكره عبد الرحمن بن شماسة ، الثقة العدل ، عن أشياخ مصر وهو (1) أرض يسمى فيها القيراط : فاذا افتتحتموها فأحسنو إلى أهلها فان لهم ذمة ورحماً . أو قال : ذمة وصهراً فاذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة فاخرج منها . قال : فرأيت عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه يختصمان في موضع لبنة فخرجت منها .

فائدة

أبو بصرة هذا بباء بنقطة من أسفلها . روى عن أبي ذرّ : وأبو نضرة العبدي ، بنون وضاد معجمة ،عن أبي سعيد .وفيه العلم العظيم من أعلام نبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو إخباره بالشيء قبل كونه . وقد ألف الناس في في فضائلها .وإن كل قرية منها هي مدينة في نفسها . وتصديق ذلك قول الله ـ عزّ وجل ـ:« وابعث في المدائن حاشرين » وكلها في الماء مع من كان فيها من الأنبياء .

وخرج الخليفة المأمون سنة ثماني عشرة إلى بلاد الروم غازياً ،وتوفي بها على مقربة من طرطوس ، بموضع يقال له : البذندون ، ليلة الخميس لاحدى عشرة ليلة بقيت من رجب ،وهو ابن ثمان وأربعين سنة وقيل : في النصف من رجب ، سنة ثماني عشرة ومائتين . ودفن بطرسوس .

وحدثنا غير واحد من شيوخنا ـ رحمهم الله ـ قالوا : حدثنا الامام العالم

---

(١) هنا تنتهي الصفحة وتبدأ الأخرى الا أنها لا تظهر فيها العبارة واضحة . والظاهر أن هناك ورقة ساقطة . وقوله فائدة تعين ذلك ، فالمؤلف لم يسبق له القول فذكره . اما ارقام الصحائف فهي صحيحة . وقد شعر بها بعض من راجع الكتاب فبين في الهامش لفظ(مشكلة) تتلو فائدة . فاقتضى التنبيه . ولا سيما أنه لم يظهر جواب (لما وقف) « انظر السطر الرابع عشر من الصفحة السابقة » .

العامل الزاهد أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد الفهري الطرطوشي - رحمه الله - قال في تأليفه (سراج الملوك) : ودخل على المأمون في مرضه الذي مات فيه فاذا هو قد أمر أن يفرش له جل الدابة ، ويبسط له عليه الرماد ، وهو راقد عليه يتضرع وهو يقول : يا من لا يزال ملكه ، ارحم من يزول ملكه .

وثبت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : ما اغبرّت قدما عبد في سبيل الله فتمسّه النار . تفرّد البخاري باخراجه في صحيحه ، فقال في باب من اغبرت قدماه في سبيل الله : (١) حدثنا إسحاق قال : أخبرنا محمد بن المبارك ، قال : حدثنا يحيي بن حمزة قال : حدثني يزيد بن أبي مريم قال : أخبرني عباية ابن رفاعة بن رافع قال : أخبرني أبو عبس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : الحديث . وخرّجه أيضاً في باب المشي إلى الجمعة فقال : حدثنا علي بن عبدالله قال : حدثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدثنا يزيد بن أبي مريم ، قال : حدثنا عباية بن رفاعة ، قال : أدركني أبو عبس وأنا أذهب إلى الجمعة ، فقال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : من اغبرت قدماه في سبيل الله حرّمه الله على النار . إسناد كالشمس .

قلت : « يزيد » بفتح الياء المثناة شاميّ ، ويشتبه به بزيد بن أبي مريم بضم الباء بواحدة وهو كوفيّ . وأبو عبس : عبد الرحمن بن جبر الحارثي من بني الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس ، شهد بدراً ، وكانت سنه إذ شهدها ثمانياً وأربعين سنة أو نحوها . وتوفي سنة أربع وثلاثين من الهجرة وهو ابن سبعين سنة . ويقال : إنه كان يكتب بالعربي قبل الاسلام وهو أحد من قتل كعب بن الأشرف عدو الله وعدو رسوله .

---

(١) صحيح البخاري ج ٢ ص ٨٧ طبعة أحمد البابي الحلبي بمصر وهي طبعة الميمنية سنة ١٣١٢ ه .

فكانت مدة خلافة المأمون منذ يوم سلم عليه بالخلافة في حياة المخلوع اثنتين وعشرين سنة، ومنذ قتل المخلوع وانفرد بالخلافة عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة، وقيل: وخمسة وعشرين يوماً [١].

ثم صارت الخلافة الى المعتصم

بالله أخيه أبي إسحاق محمد بن الرشيد يوم الخميس بنص المأمون عليه دون أولاده لرؤيا رآها من النبي - صلى الله عليه وسلم - وكان المعتصم معه في تلك الغزاة، لأنه كان يلازمه وقد ولاه المأمون مصر، ثم وشى به القاضي يحيي بن أكثم فعزله عن مصر فلم يزل يلازم الخدمة حتى قلده الخلافة. والعجيب أن أباه الرشيد كان أخرج المعتصم من الخلافة وولى الأمين والمأمون والمؤتمن فساق الله الخلافة إلى المعتصم وجعل الخلفاء إلى اليوم من ولده، ولم يكن من نسل أولئك خليفة إلى اليوم، فالله يفعل ما يريد. وحج المعتصم وغزا غزوات عظيمة، فأعظمها فتح عمّوريّة، وهي أعظم مدن النصارى بعد القسطنطينية فانه لما بويع بالخلافة أناخ عليها وحاصرها حصاراً شديداً، ولم يكن في بني العباس مثله في القوة والشجاعة والاقدام. قيل: إنه أصبح ذات يوم برد عظيم وثلج فلم يقدر أحد على إخراج يده ولا إمساك قوسه فأوتر المعتصم في ذلك اليوم أربعة آلاف قوس وما زال يحاصرها حتى فتحها عنوة واحتوى على مافيها من الأموال وغيرها وأخذ أهلها أسرى. ونقل بابها إلى بغداد وهو اليوم على باب العامة من دار الخلافة. وعدد الفاتحين لها أزيد من ثلثمائة ألف رجل. وفيه يقول حبيب ابن أوس الطائي:

---

(١) وترجمته في تاريخ الخطيب ج ١٠ ص ١٨٣

يا يوم وقعة عمّوريّة انصرفت عنك المنى حفّلاً(١) معسولة الحلب

لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك على بان بأهل، ولم تغرب على عزب(٢)

كرر إنشادها ثلاثة أيام فقال له : الى كم تجلو علينا عجوزك ؟ فقال حبيب : حتى أستوفي مهرها يا أمير المؤمنين . فأمر له باثنين وسبعين ألف درهم نقرة . عن كل بيت ألف درهم، بالدرهم المعروف، الذي يجب القطع منه في ثلاثة دراهم وهو الدرهم الشرعي(٣) .

ومن كرمه الخارج عن الحدّ، المستغرق للاحصاء والعدّ، أنه أقطع مدينة الموصل لحبيب بن أوس الشاعر . وهذا شيء لم يتقدمه اليه أحد من الأوائل ولا الأواخر . فالحمد لله الذي خص قرابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذه المفاخر .

وله ثمانية فتوح، وبنى سر من رأى، وانفق على جامعها، فيما يقال، فوق الخمسمائة ألف . وهو أول من انتقل من الخلفاء إلى سر من رأى وبناها

(١) حفلا : مملوءة . وشاة محفلة اذا نزل لبنها أياماً في ضرعها . وتحفلت هي . ويقال: ضرع حافل ومجلس حافل . اي : مملوء بالجمع . والحفل كثرة الناس وجماعتهم . وهذا مثل، ضربه لبلوغ الأماني وتمامها ومعسولة خلوها . (هامش الأصل)

(٢) أي لم تترك من كان بنى بأهله لانه قتل ولم يبق في هؤلاء عزب لانهم وطئوا السبي . والبناء الدخول ، وكان أصله أن الرجل كان يبني على المرأة اذا دخل بها قبة ثم كثر حتى سموا الدخول بناء واصله للعرب في بيوت الوبر وهي الابنية عندهم (هامش الأصل)

(٣) كان قد جرى توحيد الدراهم أيام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ومثله الدينار . فان وزنهما كان مختلفاً، فضرب وزن كل عشرة دراهم سبعة دنانير ، فاستقر وزن الدرهم الشرعي كما تعين وزن الدينار . وذلك في سنة ٢٠ هـ — ٦٤١ م الا ان التعديل لم يمنع من تداول النقود الموجودة لما بعد ذلك التاريخ وجريان التعامل بها فالدرهم الشرعي ٧/١٠ مما يزن ٧ مثاقيل ، وثلاثة منه يجب قطع يد السارق منها . ثم تغير وزن الدرهم والدينار في حوادث معلومة ، فصار يفرق بين الشرعي والمتعامل عليه .

واتخذها دار ملكه وسدة خلافته ، في سنة اثنتين وعشرين ومائتين ، وسميت بذلك لأن المعتصم لما انتقل بجملته وعساكره إليها سر كل منهم برؤيتها فقيل فيها سرّ من رأى . ولزمها هذا الاسم . والمسمى بالجملة عند النحويين يحكى على صيغته الأصلية من غير تحريف فيها ولا تغيير لها ، وقد غيرتها العامة فقالوا سامراء ،وقد قلدهم البحتريّ - رحمه الله - فقال في صلب بابك :

أخليت منه البذ وهي قراره ونصبته علماً بسامراء

فوهم في ذلك وأخذ عليه . وانما هي كما أنشد دعبل الخزاعي في ذمها يفضل بغداد عليها :

بغداد دار الملوك كانت حتى دهاها الذي دهاها
ما سرّ من رابسرّ من را بل هي بؤسى لمن رآها

حذف الهمزة لاقامة الوزن .

وكان السبب في بنائها أن العامة شكوا إليه من الجند والنزول عليهم في المساكن والتعرض بهم فقال له بعض صلحاء المحدثين : يا أمير المؤمنين إني لا آمن عليك أن يقاتلك العامة . فقال له : ولم تقاتلني العامة ؟ ومن يجمعها على ذلك وأنا في هذا العسكر العظيم ؟ فقال له : يقاتلونك بسهام الليل ورفع الأيدي إلى الله - تعالى - في المساجد . فركب في الحال وتخير موضع سرّ من رأى على شاطىء دجلة . فبنيت في أسرع وقت على كبرها ، وارتحل اليها وقال لذلك المحدث : قد تركنا قتال العامة ، فكيف هم اليوم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ،هم بأيد مبسوطة إلى الله - تعالى - بالدعاء لك ، بنيّات خالصة ، وطاعة صافية ، رغبة الى الله - تعالى - في دوام دولتك .

وأتسع ملكه جداً حتى صار له سبعون ألف مملوك سوى الاحرار ، ومن الخيل مالا يحصى . وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ضد أخيه .

وهو الذي امتحن أحمد بن حنبل [١] في خلق القرآن . قال : أحمد أنا رجل علمت علماً ولم أعلم فيه بهذا . فأحضر له الفقهاء والقضاة فناظروه . منهم عبد الرحمن بن سحاق [٢] وغيره فامتنع من أن يقول ، فضربه عدة سياط،فقال أسحاق بن ابراهيم [٣] : ولّني يا أمير المؤمنين مناظرته . فقال له شأنك ! فقال له اسحق هذا العلم الذي علمته نزل به عليك ملك أو علمته من الرجال ؟ قال : بل علمته شيئاً بعد شيء . قال : فبقي عليك شيء لم تعلمه؟قال : بقي عليّ . قال : فهذا مما لم تعلمه وقد علمكه أمير المؤمنين . ثم ذكر أحمد بن أبي يعقوب بن واضح في تأريخه أنه قال بقول أمير المؤمنين المعتصم ، فأشهد عليه ، وخلع عليه ، وأطلقه الى منزله .

قال ذو النسبين - أيده الله - : وهذا لا يصح . وهي حكاية مفتعلة من

---

(١) كان في سجن المأمون . وملخص أمر الرشيد أنه لم يقل بخلق القرآن مدة خلافته . وبهذا السبب كان الفضيل بن عياض - رضي الله عنه - يتمنى طول عمر الرشيد ، لأنه - والله أعلم - كان قد كشف له بأن فتنة تحدث بعد موت الرشيد ، ولم تحدث في أيام خلافته فتنة ، ولكن كان الأمر في زمن ولايته بين أخذ وترك ، الى أن ولي ابنه المأمون ، فقال بخلق القرآن . وبقي يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، في دعواه الناس الى ذلك ، الى أن قوي عزمه في السنة التي مات فيها ، فحمل الناس على القول بذلك . وكل من لم يقل به عاقبه أشد عقوبة ، وأنه طلب الامام أحمد وجماعة فحمل اليه ، فلما كان ببعض الطريق توفي المأمون وعهد الى أخيه المعتصم بالخلافة ، وأوصاه بحمل الناس على القول بخلق القرآن ، واستمر الامام أحمد محبوساً الى أن بويع المعتصم ، فطلبه وناظره ، كما ذكره في الكتاب (هامش الأصل)

(٢) ترجمته في الخطيب البغدادي ج ١٠ ص ٢٦٠ توفي سنة ٢٣٢ هـ .

(٣) واسحق هذا كان (نائب بغداد) ، ويخلفه أحياناً ابنه محمد . فولي بعد وفاتهما (عبد الله بن اسحق) . وكان هذا في أيام الامام أحمد بن حنبل وفي خلافة المتوكل على الله .

من بعض سفلة المعتزلة . والصحيح ما ذكره ثقات علماء التأريخ ، منهم القاضي الامام أبو بكر أحمد بن كامل بن شجرة [١] ، تقدم سندي اليه أنه ضرب في المحنة ، سنة سبع وعشرين ومائتين ، ضربه المعتصم ، ومنعه الواثق من الخروج ، فجعل داره له حبساً ، وأخرجه المتوكل ، وخلع عليه وأكرمه ورفع المحنة في القرآن [٢] . وأسند الحافظ أبو نعيم في كتاب « الحلية » ـ وقد تقدم سندي اليه ـ محنة الامام أحمد بأسانيد الثقات إلى ابنه القاضي بمدينة اصبهان أبي الفضل صالح .

قال : وكان المأمون طلبه وأمر بحمله إلى طرسوس . قال القاضي أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل : فحمل أبي ومحمد بن نوح [٣] زميلين ، وأخرجا من بغداد ، فصرنا معهما إلى الأنبار ، فسأل أبو بكر الأحول أبي فقال : يا أبا عبد الله ، إن عرضت على السيف تجيب ؟ فقال : لا .

قال أبو الفضل صالح بن أحمد : فصار أبي ومحمد بن نوح الى طرسوس ، وجاء نعي المأمون من البذندون ، فردّا في أقيادهما إلى الرقة ، وأخرجا من الرقة في سفينة مع قوم محبّسين ، فلما صارا بعانات توفي محمد بن نوح ـ رحمه الله ـ فتقدم أبي فصلى عليه ثم صار أبي إلى بغداد وهو مقيد فمكث بالياسرية أياماً ،

---

(١) كلمة أصابها حبر فلم تقرأ . وابن شجرة معروف في التأريخ وجاءت ترجمته في تاريخ الخطيب البغدادي ج ٤ ص ٣٥٧ وذكر في مقدمة هذا الكتاب ، وزاد الخطيب بعد (ابن شجرة) ابن منصور بن كعب بن يزيد ، والظاهر أن هذه تكمل البياض .

(٢) جاءت ترجمة الامام أحمد وبيان محنته مفصلة في تاريخ الاسلام للحافظ الذهبي . ونشرها الاستاذ أحمد محمد شاكر في رسالة مفردة حقق ما فيها . طبعت في مصر سنة ١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م وفي تاريخ الخطيب ج ٤ ص ٤١٢

(٣) كلمة لم تقرأ اصابها الحبر . وقد ورد في تاريخ الاسلام للذهبي لفظ (مقيدين) وهي المحوة وقد أعاد المؤلف ذكرها بعد هذا بقليل . (ترجمة الامام احمد) المنقولة من تاريخ الذهبي .

ثم صير الى الحبس في دار اكتريت عند دار عمارة ، ثم نقل بعد ذلك الى حبس العامة في درب الموصلية ، فمكث في السجن منذ أخذ وحمل الى أن ضرب وخلي عنه ، ثمانية وعشرين شهراً.

ولما أحضره المعتصم وكلمه في القول بخلق القرآن ، أبى ، فأمر به فخلع وسحب ، وجيء بعقابين من خشب واقيم بين العقابين ، ولم يمسك بها فتخلعت يداه .

قال أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل(١) ولم يزل أبي - رحمه الله - يتوجع منها من الرسغ إلى أن توفي .

ثم قال المعتصم للجلادين : تقدموا فنظر إلى السياط فقال : ائتوا بغيرها . ثم قال : تقدموا . فقال لأحدهم : أدنه أوجع - قطع الله يدك ! ، فتقدم فضربني سوطين ، ثم تنحى فلم يزل يدعو واحداً بعد واحد فيضربني سوطين ، ثم ينحى .

ثم قام حتى جاءني وهم محدقون به فقال : ويحك يا أحمد ، تقتل نفسك ؟ ويحك أجبني حتى أطلق عنك بيدي . قال : فجعل بعضهم يقول لي : ويحك إمامك على رأسك. وجعل عجيف ينخسني بقائم سيفه ويقول : تريد أن تغلب هؤلاء كلهم ؟ .

قال : وجعل إسحاق بن ابراهيم يقول : ويلك ! الخليفة على رأسك ! قال : ثم يقول بعضهم يا أمير المؤمنين ، دمه في عنقي .

قال : ثم رجع فجلس على الكرسي ، ثم قال للجلاد أدنه ، شد - قطع الله يدك ! ثم لم يزل يدعو بجلاد بعد آخر فيضربني سوطين ويتنحى ، وهو

(١) صالح بن احمد ترجمته في تأريخ الخطيب البغدادي ج ٩ ص ٣١٧ وتوفي في شهر رمضان سنة ٢٦٦ ه .

يقول له : شدّ - قطع الله يدك .

ثم قام إلى الثانية فجعل يقول: يا أحمد أجبني ! فجعل عبد الرحمن بن إسحق يقول لي : من صنع بنفسه من أصحابك في هذا الأمر ما صنعت ؟ هذا يحيي ابن معين (١) وهذا أبو خثيمة (٢) ! وابن أبي إسرائيل (٣) وجعل يعدّد عليّ من أجاب وجعل هو يقول : ويحك ، أجبني ! قال : فجعلت أقول نحواً مما كنت أقوله لهم .

قال : فرجع فجلس ثم يقول للجلاد: شدّ - قطع الله يدك ! قال أبي : فذهب عقلي ، وما عقلت إلا وأنا في حجرة مطلق عني الاقياد . وكان يومّ ضرب مقيداً بأربعة أقياد .

قال ذو النسبين - أيده الله - والكلام طويل - : ثم وجه إليه برجل من السجن ممن يحسن الجراحات ويعالجها فنظر إليه فقال : أما والله ، لقد رأيت من ضرب ألف سوط ما رأيت ضرباً أشدّ من هذا . إلى أن يقول : ثم جاء بحديدة وسكين ، فجعل يعلق اللحم بها ويقطعه بسكين معه وهو صابر يحمد الله . ذكر ذلك كله الحافظ أبو نعيم في « الحلية » . وقد تقدمت أسانيدي إليه بسنده الثابت فيها إلى ابنه .

ولما حمل الى المعتصم فكلموه في القرآن استدلّ بقول الله تعالى «ولكن حق القول مني لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين» فقال: إن يكن القول من

---

(١) ترجمة يحيي في تأريخ الخطيب ج ١٤ ص ١٧٧ وتوفي في ذي القعدة سنة ٢٣٣ه
(٢) أبو خثيمة هو زهير بن حرب وترجمته في تأريخ الخطيب ج ٨ ص ٤٨٢ وتوفي في ٧ شعبان سنة ٢٣٤ ه .
(٣) إسحق بن أبي اسرائيل جاءت ترجمته في تاريخ الخطيب ج ٦ ص ٣٦٥ .

الله فالقرآن كلام الله - تعالى - « ألا له الخلق والأمر » فقد فرق بين الخلق والأمر .

قال القاضي أبو الفضل صالح بن أحمد - وقد تقدم سندي إليه - :قال أبي: وأسماء الله في القرآن . والقرآن من علم الله . فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر . ومن زعم أن أسماء الله مخلوقة فقد كفر.

واستدل أيضاً بقوله - تعالى -: « إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كن ، فيكون » فلو كان قوله « كن » مخلوقاً لاحتاج الى قول آخر ، وذلك القول إلى آخر ، فيتسلسل ولا يتحصل .

وكان يقول أعطوني آية من كتاب الله - عزّ وجلّ - أو سنّة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى آخذ بها . فقال له ابن أبي دؤاد : ما تقول في قوله-عزّ وجل -: « جعلناه قرآناً عربياً » . فقال أحمد : الجعل في القرآن على وجوه ، وها هنا ليس معناه الخلق وإنما معناه أنزلناه بلسان العرب ، قال الله - تعالى - : « قرآناً عربياً غير ذي عوج » .

قال ابن عباس: غير مخلوق . وقال - جلّ من قائل - : « فجعلهم كعصف مأكول » أفخلقهم ؟ حدثنا غير واحد من شيوخنا - رحمهم الله - منهم الثقة مختص الدين أبو المكارم أحمد بن محمد ، إذناً عن أبي عليّ الحداد إجازة إن لم تكن سماعاً وإجازة من غانم البرجي ّقالا : حدثنا الحافظ أبو نعيم ، قال:حدثنا الحسين بن محمد ، حدثنا ابراهيم بن محمد بن ابراهيم القاضي الايذجيّ بها ، حدثني أبو عبدالله الجوهريّ، حدثني يوسف بن يعقوب بن الفرج قال:سمعت علي بن محمد القرشي ، قال : لما قدّم أحمد بن حنبل (١) ليضرب بالسياط ، أيام

(١) نقل في الهامش عن أحمد بن حنبل بعض النصوص من وفيات الأعيان وعن النووي في تهذيب الأسماء واللغات . والكتابان معروفان ومطبوعان فلا نرى ضرورة لنقل نصوصهما .

المحنة ، وجرد بقي في سراويله فبينما يضرب إذ انحل السراويل فجعل يحرك شفتيه بشيء ، فرأيت يدين خرجتا من تحته وهو يضرب فشدتا السراويل ، قال : فلما فرغوا من الضرب قلنا له : ما كنت تقول حيث انحل السراويل ؟ قال : قلت : يامن لا يعلم العرش أين هو إلا هو ، إن كنت أنا على الحق فلا تبد عورتي . فهذا الذي قلت .

قال ذو النسبين - أيده الله - : وإسناد أبي نعيم ظلمات بعضها فوق بعض ، ولو صحت هذه الحكاية لكانت من جملة الكرامات التي لا تنكر أمثالها للصالحين خلافاً لأهل البدع الزائغين ، ولكانت تشيع وتنتشر ، وتتواتر على ألسنة العدول وتشتهر ، وكانت تكون سبباً لرجوع الخليفة إلى ما يعتقد أحمد من قدم القرآن على ما ذهب اليه أهل السنة والايمان .

وعقيدة أهل السنّة والجماعة أن القرآن كلام الله - عزّ وجل - ، صفة ذاته ، وهو - سبحانه - متكلم به ، نزل به جبريل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوعاه عنه ، وبلغه بلسانه العربي ، وأنه في المصاحف مثبوت ، وفي القلوب محفوظ وبالآذان مسموع ، وبالأصوات متلوّ ، وبالأفهام مفهوم ، وبالحروف والأشكال والأصباغ مخطوط وبالألفاظ مقروء .

فمكتوبه ومخطوطه ومسموعه ومتلوّه ومفهومه ومحفوظه ومقروءه حقيقة كلام الله - عزّ وجلّ - غير محدث ولا مخلوق ولا مجعول ، وأن الكتابة والحفظ والسمع والفهم والأصوات والحروف والأصباغ والأشكال والألفاظ والظروف والأوعية محدثة كائنة بعد أن لم تكن ، مختلفة متغايرة فانية زائلة . وكلام الله - عزّ وجل - باق واحد ثابت لا يزول ولا يحول ، ولا يبدل مايقول ، وأن القرآن الذي أنزله الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - لا يغسله الماء ، كما ثبت

من حديث عياض بن حمار المجاشعي [١] ، أخرجه مسلم في صحيحه وغيره ، وأشكال الحروف مغسولة ممحوة .

وهذه عقيدة الصحابة والتابعين ، وأهل السنّة والجماعة من علماء المسلمين . فمن أظلم ممن جعل مع الله ثمانية وعشرين شكلاً هي صور الحروف وبآياتها مصورون وبأصباغهم وألوانهم يخطون وزعموا أنها قديمة مع الله - تعالى - وتقدس عن ما يقول الظالمون ! « أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون » .

ومات الخليفة بسرّ من رأى ، يوم الخميس ، لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول ، سنة سبع وعشرين ومائتين (٨٤١م) وصلى عليه ابنه هارون ، ودفن في قصره المعروف بالجوسق ، وبقي في الخلافة ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وقيل : وثلاثة أيام ، وكان عمره سبعاً وأربعين سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً ، ومولده سنة ثمان وسبعين ومائة ، وهو المثمن لأنه الثامن من خلفاء بني العباس [٢] .

ومن الاتفاق العجيب أن أحواله مثمنة أكثرها ، فولد سنة ثمان وسبعين ومائة - كما ذكرنا - وولي الخلافة ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانيـة أيام ، على اختلاف في الأيام خاصة ، ومات عن ثمانية بنين وثماني بنات ، وخلف في بيت المال ثمانية آلاف ألف دينار وثمانية آلاف ألف درهم .

وكانت له ثمانية فتوح عظام ، منها أسره بابك . وقد أحصي من قتله بابك في عشرين سنة ، وذلك مائتا ألف وخمسة وخمسون ألفاً على القليل ، وعلى التكثير

---

(١) ترجمة المجاشعي في كتاب الاصابة في تمييز الصحابة ج ٥ ص ٤٨ .

(١) ترجمته في تاريخ الخطيب البغدادي ج ٣ ص ٣٤٢ .

خمسمائة ألف. والى بابك تنتسب البابكية . ومنها فتح أنقرة وفتح مدينة عمّورية. ومنها قهره المحمرة مع غلبتهم على أكثر البلاد ، ومنها أسره البوارج وهي مراكب الهند ، وكان فيها منهم عسكر عظيم قد غلبوا على ساحل فارس وعمان وناحية البصرة ، ثم إخلاؤه الزط عن البطائح وما كانوا قد غلبوا عليه فيما بين البصرة وواسط ، وقطعوا السبل ، وسفكوا الدماء ، وكانوا خلقاً عظيماً . ثم قتله جعفر بن فَهرجَيش الكرديّ ، وكان ذا عدة عظيمة ، بين الموصل وأذربيجان وأرمينية ، قد تغلب على البلاد وبسط يده بالقتل . ثم هزيمة الأفشين لنوفيل ملك الروم ، وهي من الهزائم المذكورة . وقد قتل الأفشين بعدذلك لما واطأ بابك. فانه تارة كان معه وتارة كان عليه .

ثم صارت الخلافة

الى الواثق بالله أبي جعفر هارون بن المعتصم ، يوم الخميس لثماني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من العام (٨٤٩م) [١] ، وأخباره تطول ، وقد تلا أباه في ضرب الامام أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، وتقدم بشهرته في البلد حتى يقول بخلق القرآن ، فأبى ، فأودعه السجن وقيل : جعل داره حبساً له. وقد تقدم القول في ترجمة المعتصم بالله وذلك بسعاية القاضي أحمد بن أبي دؤاد القطان المعتزليّ [٢] والوزير محمد بن عبدالملك الزيّات ، وكلاهما من أولاد الباعة ، فولّيا أمر الناس . وذلك من أشراط الساعة .

ثبت عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال لجبريل ـ عليه السلام ـ

---

(١) في الهامش نقل من حياة الحيوان في قتل أحمد بن نصر الخزاعي على القول بخلق القرآن ، فلم نجد ضرورة لذكره .

(٢) ترجمته في تأريخ الخطيب ج ٤ ص ١٤١

وإذا كانت العراة الحفاة رءوس الناس ، فذلك من أشراطها . من حديث أبي هريرة وهو مجمع على صحته .

وحدثني المحدث الثقة عز الدين أبو العز عبد الباقي بن عثمان بن محمد بن جعفر ابن يوسف بن عبد الله بن صالح ، قراءةً عليه بهمذان: أخبرنا أبو الفضل محمد ابن عثمان بن أحمد القومسانيّ ، أخبرنا ابراهيم بن خمير بن الحسن . قال : سمعت أبا الفضل إبراهيم بن علي الزعفراني بسارية يقول: سمعت الحسن بن علي بن البرذعي يقول : سمعت أبا الضحى محمد بن مالك يقول : سمعت أبي أبا منصور بن أيوب ابن غسان يقول : لما أراد محمد بن الحنفية - رضي الله عنه - أن يوصي ، دعا أكبر أولاده أبا هاشم ، ثم قال : يا بنيّ ، إن أصابك قحط الزمان وجدب الأيام، فعليك بصِباح الوجوه وأولاد الكرام ، وورثة النعم وذوي الأصول الثابتة ، والفروع النابتة ، وإياك والوجوه العابسة ،والأكف اليابسة ، حليف القراريط، وكاسب الطساسيج ، إن سئلوا ضنوا ، وإن أعطوا منّوا ، لا تخلقنّ اليهم وجهك ، ولا تنقلنّ بحاجتك اليهم رجلك ، وكن كما قال امرؤ القيس :

وسل العرف إن سألت جواداً لم يزل يعرف الغنى واليسارا
وإذا لم تجد من الذلّ بدّاً فالق بالذلّ إن لقيت الكبارا
ليس إجلالك الكبير بذلّ إنما الذل أن تجلّ الصغارا

قلت: لا يصدر هذا الكلام إلا من مثل ابن عم النبيّ - عليه السلام - إلا أن هذا الشعر لم أجده في شعر امرىء القيس الموجود بأيدي الأساتيذ من أهل اللغة ، أعني الكنديّ بن حجر المعروف بالضلّيل (١) ، إلا إن كان يعني

(١) جاء في هذا الكتاب ألفاظ مشددة مضبوطة ، وان الشدة تحتها كسرة كما في الضليل للاشارة الى أن الحرف مكسور ولم توضع الكسرة تحت الحرف ، فكانت معتادة عند المصريين من ذلك التأريخ او قبله بكثير . وهذه مهمة في تأريخ النقط والشكل . ومثلها الاشارة (،) المسماة بالفاصلة وكذا النقطة في آخر كل جملة منقطعة عما بعدها .

غيره. فان عندهم جماعةً يعرفون بهذا الاسم منهم : امرؤ القيس بن مالك الحميريّ الشاعر المحتجّ بشعره عند اللغويين أيضاً، وامرؤ القيس بن عابس الكندي، صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد اختلف النحويون في قائله (١) فقال أبو محمد بن السيد في شرح أبيات (الجمل) له: هذا الشعر يروى لامرىء القيس ابن حجر، ويروى لامرىء القيس بن عابس من كندة. وعابس اسم منقول من الصفة. وحجر اسم منقول من النوع. لأن الحجر والحجر بالضم والكسر، الحرام، قال الله - تعالى: « حِجراً محجوراً » « لهي حراماً محرّماً ».

وتوفي (٢) الواثق بسرّ من رأى يوم الأربعاء خامس عشرين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، وله اثنتان وأربعون سنة، وأعقب عدة أولاد، ولم يمت حتى احترق وصار كأنه فحمة.

حكى ذلك الحافظ الامام، عالم اصبهان، أبو القاسم إسماعيل بن الفضل الأصبهاني في كتاب (سير السلف) (٣) له في حكاية طويلة في مناقب أحمد ابن محمد بن حنبل - رضي الله عنه - وأن الخليفة الواثق دعا على نفسه إن كان مايقول فلان حقاً فحرقه الله بالنار.

فمن الحكاية أن الواثق كان يحب النساء وكثرة الجماع، فوجه ذات يوم إلى ميخائيل الطبيب فدعي له، فدخل عليه، وهو نائم في مشربة وعليه قطيفة خزّ فوقف بين يديه فقال: يا ميخائيل، أبغي دواءً للباه. فقال: يا أمير المؤمنين، بدنك فلا تهدّه! فان كثرة الجماع تهدّ البدن، ولا سيما إذا تكلف الرجل ذلك،

---

(١) كلمتان أو ثلاث لم تقرأ.

(٢) نقل عن موته في الهامش من حياة الحيوان؛ فلم نر نقله.

(٣) منه نسخة مخطوطة في خزانة الأوقاف العامة برقم ١٢٧٨ وأخرى باستانبول في خزانة راغب باشا برقم ١٠١٧ وقد ذكر في المقدمة.

فاتقّ الله في بدنك ، وأبق عليك. فليس لك من بدنك عوض .

ثم ذكر كلاماً وصفة عن الواثق كرهت نصه ، لما فيه من ذكر النساء ، وزبدته ونصه قوله : فان كان ولا بدّ فعليك بلحم السبع فأمرْ أن يؤخذ لك رطل فيغلى سبع غليات بخل خمر ، فاذا جلست على كذا أمرت أن يوزن لك منه ثلاثة دراهم ، فانتقلت به على كذا في ثلاث ليال فانك تجد فيه بغيتك . واتق الله في نفسك ولا تسرف فيها ولا تجاوز ما أمرتك به .

فاستعمل ذلك وأسرف فيه فاستسقي بطنه ، فجمع له الأطباء ، فأجمع رأيهم على أنه لا دواء له إلا أن يسجر له تنور بحطب الزيتون ويشحن حتى يمتلىء فاذا امتلأ كسح مافي جوفه فألقي على ظهره ، وحشي جوفه بالرطبة . ويقعد فيه ثلاث ساعات كوامل من النهار فان استسقى ماءً لم يسق . فاذا مضت ثلاث ساعات كوامل أخرج منها وأجلس جلسة . فاذا أصابه الرواح وجد لذلك ألماً شديداً يطلب أن يرد الى التنور فيترك على حاله ولا يمضي إلى التنور حتى تمضي ساعتان من النهار ، فانه إن مضت ساعتان من النهار جرى ذلك الماء وخرج من مخارج البول وان سقي ماءً أو ردّ إلى التنور كان تلفه فيه .

فأمر الخليفة ففعل ما دله عليه الأطباء ، فلما مضت له ثلاث ساعات أخرج وقد كاد يحترق ، أو يقول القائل - في رأي العين : قد احترق . فأجلسه المتطببون ، فلما وجد روح الهواء اشتد به الوجع والألم ، فأقبل يصيح ويخور خوران الثور . ويقول: ردّوني الى التنور فاجتمع نساؤه وخواصه وفيهم وزيره ابن البياع الفسل فردوه إلى التنور شفقة عليه في زعمهم ، فلما وجد حرارة النار سكن صياحه وتفطرت النفاخات التي كانت خرجت ببدنه فأخرج من التنور وقد احترق وصار أسود كالفحم فلم تمض به ساعة حتى قضى .

ولم يكن من نسله قبطة سوى المهتدي فكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وستة أيام . وكان يهب الآلاف .

وقد قدمنا ما ذكره عالم اصبهان أبو القاسم اسماعيل بن الفضل الاصبهاني في كتاب (سير السلف) له أن الخليفة الواثق بالله ، دعا على نفسه إن كان ما يقول أحمد بن حنبل حقاً فحرقه الله بالنار. فحذار حذار من دعاء الرجل على نفسه ، أو أهله فربما صادفت إجابة يكون بها مثلة ، لما ثبت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال : لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم ولا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب [1] لكم . أخرجه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله . وسرّ ذلك ان دعاءه على نفسه إنما يكون عند تسخطه أو تجبره وعند عدم خضوعه وتدبّره تصادف دعوته من الله قبولا يصير بها مثلاً منقولا .

وكان الخليفة الواثق بالله عالماً بالأنساب والآداب يهب الآلاف ورضع في سدّته النبوية للكرم أخلاف. ووقّع الواثق على رقعة أحمد بن أبي دؤاد القاضي وقد سأله في أمر رجل عليه دين : قد أخلت يا أحمد بيوت الأموال طلباتك للآئذين والمتوسلين اليك .

فكتب القاضي تحته :

نتائج شكرها يا أمير المؤمنين متصلة بك ، وذخائر أجرها مكتوبة لك ، ومالي من ذلك إلا عشق اتصال الألسن بخلود المدح فيك ، والسلام .

فوقّع تحته :

والله - يا أبا عبد الله - لا منعناك ما يزيد في عشقك ويقوي من منتك .

وأمر باخراج خمسمائة ألف ألف درهم ليفرقها في من يراه . ودخل عليه القاضي

---

(١) فيستجاب . كذا في الهامش .

يوماً وكان أهل الدولة وعلماؤها يكرهونه للاعتزال ، ويتكلمون فيه بقبائح تنسب اليه ، فقال له الواثق :

يا أحمد ما زال قوم في غيبتك منذ اليوم .

فقال :

يا أمير المومنين «لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم . والذي تولى كبره منهم» فالله ولي جزائه ، وعقابك من ورائه ، وما ضاع امرؤ أنت ناصره ، فماذا قلت لهم يا أمير المؤمنين ؟

قال قلت :

وسعى الي يعيب عزة نسوة   جعل الاآه خدودهن نعالها

وأعطى للغوي النحوي أبي عثمان المازني ألف دينار لما استعطفه ببيت واحد وذلك أنه قصد بعض أهل الذمة من اليهود أبا عثمان المازني ليقرأ كتاب سيبويه عليه وبذل له مائة دينار عن تدريسه إياه فامتنع أبو عثمان من قبول بذله وأضب على رده . قال أبو العباس المبرد : فقلت له : جعلت فداك أترد هذه النفقة مع فاقتك وشدة إضاقتك ؟

فقال :

إن هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله عز وجل . ولست أرى أن أمكن منها ذمياً غيرة على كتاب الله تعالى وحمية له .

قال فاتفق أن غنت جارية بحضرة الخليفة الواثق بالله بقول العرجي :

أظلوم ان مصابكم رجلا   أهدى السلام اليكم (١) ظلم

فاختلف من بالحضرة في اعراب رجل فمنهم من نصبه وجعله اسم إن ومنهم

---

(١) المشهور في كتب النحو (تحية) بدل (اليكم) .

من رفعه على أنه خبرها والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازني لقنها إياه بالنصب . فامر الواثق باشخاصه .

قال أبو عثمان : فلما مثلت بين يديه قال ممن الرجل قلت من بني مازن قال أي الموازن أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة قلت من مازن ربيعة . فكلمني بكلام قومي وقال لي باسمك[1] ؟ لانهم يقلبون الميم باء والباء ميماً . قال فكرهت أن أجيبه على لغة قومي لئلا أواجهه بالمكر فقلت بكر يا أمير المؤمنين ففطن لما قصدته ، وأعجب به .

ثم قال ما تقول في قول الشاعر : « أظلوم ان مصابكم رجلاً » .

أترفع رجلا أم تنصبه ؟ فقلت بل الوجه النصب. يا أمير المؤمنين قال ولم ذاك؟ فقلت :

ان مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم فأخذ اليزيدي في معارضتي ، فقلت : هو بمنزلة قولك ان ضربك زيداً ظلم فالرجل مفعول مصابكم ومنصوب به فالدليل عليه أن الكلام معلق إلى أن يقول ظلم فيتم .

فاستحسنه الواثق وقال : هل لك من ولد ؟ قلت نعم ! بنية . يا أمير المؤمنين! قال : ما قالت لك عند مسيرك ؟

قلت : أنشدت قول الأعشى :

أيا أبتا لا ترم عندنا ... فانا بخير إذا لم ترم
أرانا اذا أضمرتك البلاد ... نجفى وتقطع منا الرحم

قال فما قلت لها قلت قول جرير :

ثقي بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالنجاح

قال أنت على النجاح ان شاء الله ثم أمر لي بألف دينار وردني مكرماً .

---

(١) الظاهر (با اسمك) لان اصلها ما اسمك فقلبنا الميم باء فتكون ماذكرت .

قال المبرد فلما عاد إلى البصرة قال لي كيف رأيت يا أبا العباس ، رردنا لله مائة فعوضنا ألفاً !؟

قوله واضب عليها أي اكب والضب الحقد ، وقولها لا ترم أي لا تفارقنا ولا تخرج عنا . وفي الصحيح للبخاري أن هرقل لم يرم حمص حتى أتاه كتاب صاحبه أي لم يفارق حمص ولم يخرج عنها (١).

ثم صارت الخلافة

إلى المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم . قال العدل الثقة مصعب الزبيري (٢) : ولي المتوكل يوم الاربعاء خامس عشري ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين (٨٤٧ م) في اليوم الذي توفي فيه أخوه الواثق وأنا حاضر في مجلسه .

في ذلك اليوم بايع المتوكل لولاة العهد وجعله بين أولاده محمد المنتصر الذي قتله وأبي عبد الله المعتز وابراهيم المؤيد . ولم يدخل في العهد أبا العباس احمد المعتمد ولا ابا احمد الموفق . فصار الأمر ممن له الأمز إلى ولد ابي احمد الموفق إلى اليوم .

وأمر أهل الذمة من اليهود والنصارى بلبس العسلي ، والزنانير ، وركوب السروج بركب الخشب ، وبتغيير القلانس دون عمائم ، وتغيير زي النساء في أزرهن العسلية ليعرفن ، وإن دخلن الحمام كان معهن جلاجل ، وأمر بهدم بيعهم المحدثة ، وبأخذ العشر من منازلهم . فان كان الموضع واسعاً صير مسجداً وإن لم يصلح أن يكون مسجداً صير فضاء ، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة ، تفرقة بين منازلهم ومنازل المسلمين ، ونهى أن نستعان بهم

(١) ترجمة الواثق بالله في تاريخ الخطيب ج ١٤ ص ١٥

(٢) ترجمته في تاريخ الخطيب ج ١٣ ص ١١٢

في الدواوين وأعمال السلطان التي تجري أحكامهم فيها على المسلمين .

قلت :وصدق ،فان الله تعالى يقول :« الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » .

قال سعد بن أبي وقاص خال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -وآخر العشرة موتاً :هم اليهود والنصارى . ذكره البخاريّ في صحيحه في تفسير هذه الآية .
ونهى ان تتعلم أولادهم في مكاتب المسلمين ولا يعلمهم مسلم وامر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشبه قبور المسلمين . وكتب إلى الآفاق بذلك . ومنع من قراءة الجدل ، وحضّ على قراءة الحديث .

وامر باشخاص أبي الفيض ذي النون بن ابراهيم الأخميمي [1] واسمه ترنين ،بالتاء المثناة باثنتين من فوق والراء المهملة الساكنة ونون مكسورة بعدها وباء ساكنة ونون مرسلة نوبيّ النسبة مولىً لقريش . فوصل الى سر من رأى سنة خمس وأربعين ومائتين فأنزله الخليفة في بعض الدور وأوصى به رجلاً يعرف بزرافة . وقال : إذا أنا رجعت غداً من ركوبي فاخرج اليّ هذا الرجل . فقال له زرافة :إن أمير المؤمنين قد أوصاني بك . فلما رجع من الغد من الركوب قال له : انظر أن تستقبل أمير المؤمنين بالسلام . فلما أخرجه اليه قال له سلم على أمير المؤمنين . فقال له ذو النون :ليس هكذا جاءنا الخبر ،إنما جاءنا في الخبر أن الراكب يسلم على الراجل. قال: فتبسم أمير المؤمنين وبدأه بالسلام. فنزل اليه أمير المؤمنين فقال ،له:أنت زاهد أهل مصر ؟ قال : كذا يقولون !

قال ذو النسبين - أيده الله - : وباقي الكلام منصوص في (الحلية) وغيرها وقد تقدمت أسانيدي اليها فانظر إلى شرف هذا الخليفة وأخذه بالسنّة وانظر

(١) ترجمته في تاريخ الخطيب ج ٨ ص ٣٩٣

إلى همة هذا العالم الزاهد ولم يخف شيئاً من تلك الهيبة .

وهذا الحديث رواه عن جماعة من العلماء ، فانه يروى عن إمام أهل مصر أبي الحارث الليث بن سعد ولقي بالمدينة إمامها مالك بن أنس ، ولقي بمكة إمامها أبا محمد سفيان بن عيينة والامام أبا علي الفضيل بن عياض وغيرهم.

ورواه مالك في الموطأ مرسلاً في كتاب (الجامع) عن زيد بن أسلم : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : يسلم الراكب على الماشي. وفي رواية سعيد ابن كثير بن عفير ليسلم باللام .

وهو حديث متفق على صحته ترجم عليه البخاري في كتاب الاستئذان في باب تسليم القليل على الكثير: حدثنا محمد بن مقاتل ، قال: أخبرنا عبدالله ، قال: أخبرنا معمر عن همّام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : يسلم الصغير على الكبير ، والمارّ على القاعد ، والقليل على الكثير .

ثم ترجم باب يسلم الراكب على الماشي : حدثني محمد بن سلام ، قال : أخبرنا مخلد ، قال : أخبرنا ابن جريج ، قال : أخبرنا زياد أنه سمع ثابتاً مولى ابن زيد أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: يسلم الراكب على الماشي ، والماشي على القاعد ، والقليل على الكثير . ثم كرّره في بابين بعد هذا.

وأجمع العلماء أن الابتداء بالسلام سنّة وخير وأدب ، والردّ واجب عند جميعهم، والسلام مما يورث الحب ويلين القلب .

ثبت عن أبي هريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا . أو لا أدلكم على شيء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم !

وقد حدثني غير واحد من أشياخي بالمشرق ، قالوا :حدثنا الثقة أبو عليّ المقرىء ، قال : حدثنا أبو نعيم سماعاً عليه ، قال سمعت محمد بن ابراهيم يقول :

سمعت أبا الفضل الصيرفي ببغداد يقول : سمعت أبا عثمان سعيد بن عثمان يقول : سمعت ذا النون يقول : إن الله لم يمنع الجنة أعداءه بخلاً ولكن صان أولياءه الذين أطاعوه أن يجمع بينهم وبين أعدائه الذين عصوه .

ولما مات ذوالنون رأى الناس على جنازته طيوراً خضراً ، وأمر أن يجعل قبره مع الأرض. هذه رواية محمد بن زيّان . وأسند أبو نعيم (١) عنه أنه رآها ، وأسند عن أبي الخير صاحب الشافعيّ قال: حضرت جنازة ذي النون فرأيت الخفافيش تقع على نعشه وبدنه وتطير .

وأمر الخليفة بالقبض على محمد بن عبد الملك الزيات . وقال: مالي وللباعة ؟ وأخذ جميع أمواله المكتسبة من الحرام .

وكان محمد بن عبد الملك الزيات لا يرق لأحد ولا يرحمه ويزعم أن الرحمة خور في الطبيعة . وكان قد اتخذ تنوراً من خشب فيه مسامير حديد كان يعذب فيه من يطالبه .

وهو أول من عمل ذلك وعذب فيه، فابتلاه الله ـ تعالى ـ بأن يعذب في ذلك التنور حتى مات (٢) .

ووقّع يوماً على رقعة رجل توسل اليه بقرب الجوار منه : الجدار أقرب منك جواراً . وأمر له بدرهم طبريّ . وهو من أراد أ السكك (٣) وتعرّض اليه رجل

---

(١) أبو نعيم الاصبهاني جاءت ترجمته في وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧

(٢) ابن الزيات ترجمته في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٧٨

(٣) أراد بالسكك النقود لا السكة نفسها توسعاً في المعنى ومثله في تاريخ الخطيب البغدادي ج ٦ ص ٣٤٦ وجاء ذكر الدرام الطبرية في كتاب (تعرفة المسكوكات القديمة الاسلامية) في المدخل وفي ص ١٢ وص ٣٧٥ وهي أقل وزناً من الدرام المعروفة كما ذكر المؤلف . وقد ضربت في العهد الاسلامي أيام الدولة العباسية في أوائلها ثم صارت كنقود المسلمين ..

من جيرانه وقال له : بيني وبين المولى الجوار ،فتعطّف على عبدك ورق له. فقال له: الجوار للحيطان والتعطّف إنما يكون للنسوان،والرقة خور وضعف في النفس. ولم يأمر له بفلس .

وعزل المتوكل أحمد بن أبي دؤاد عن القضاء وأخذ جميع أمواله ودياره وضياعه بعد ما فلج وولى يحيى بن أكثم .

قتله محمد ولده بسرّ من رأى ليلة الأربعاء رابع شوال سنة سبع وأربعين ومائتين (٨٦٢ م) وهو على خلوة مع وزيره ، وأمر الله سابق في تقديره ،فابتدره باغر التركيّ فضربه على كتفه وأذنه فقدّهما ،فقام وزيره الفتح بن خاقان في وجه ووجوه القوم ، وقال: وراءكم يا كلاب! فقال له بغا الصغير المعروف بالشرابيّ : ألا تسكت يا حلقيّ(١) ؟فرمى الفتح بنفسه على المتوكل،فاعتوره القوم بسيوفهم فقتلوهما معاً وقطعوهما حتى اختلطت لحومهما فجزاه الله من صاحب صادق الصحبة خيراً.

ومن الاتفاق العجيب أن المتوكل كان قد ذكر له سيف قاطع كان لملوك حمير (٢) ، لا تكون مثله السيوف ولا مثل قيمته ووصفه بالقطع والحسن الذي هو به موصوف ، فبعث في طلبه الى الحجاز واليمن وبلاد العجم حتى وجده بالبصرة فاشتراه بثلاثين الف درهم ، فعرض على جماعة حاشيته وكلهم يتمناه ويود لو حملته يمناه ! فقال بغا للمتوكل :لا يصلح هذا السيف إلا لساعد باغر ، ووهبه له دون غيره ، فأجرى الله إنفاذ قدره إلى أن كان ذلك من مقدّر ضيره ، فقتل المتوكل به باغر فسبحان من قدره لا يتقدم ولا يستأخر .

---

(١) قال النحوي الثقة أبو بكر محمد بن القاسم الانباري في كتاب (الزاهر) له أخبرني أبي عن أحمد بن عبيد،قال : الحلقي الذي في ذكره فساد لا يصلح من أجله أن ينكح لكنه ينكح هو . وذكر كلاماً . (حاشية من املاء المنصف) .

(٢) لعله الصمصامة سيف عمرو بن معد يكرب . وكان يقال انه وصل اليه من ملوك حمير .

وكان بعض أهل العسكر رأى في منامه رجلاً ينشد :

إن الليالي لم تحسنْ إلى أحد إلا أساءت اليه بعد إحسان

أما رأيت خطوب الدهر ماصنعت بالهاشميّ وبالفتح بن خاقان ؟

فبقي في الخلافة أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام ، وقيل : وتسعة أيام [١] .

ثم صار الامر الى ابنه المنتصر

أبي جعفر محمد يوم الأربعاء المذكور ،وهو أول من عدا على أبيهمن بني العباس، كما أن يزيد بن الوليد من بني أمية أول من عدا على أبيه منهم . وشيرويه ابن كسرى قتل أباه . وقد جرت عادة الله أن من عدا على أبيه لا يبلغه سؤلاً ولا يمتعه بدنياه إلا قليلاً . .

فلم يقم المنتصر بعد أبيه سوى ستة أشهر إلا أياماً . وكان يسيء الى العيال، ويبخل بالمال،فسمّه بعضهم في كمثرى ،فمات .وقيل :أصابته الذبحة [٢]،وقيل:أصابه ورم في معدته ، وقيل فصد بمبضع مسموم ، وقيل: بل وجد علة في رأسه ، فقطر طبيبه ابن طيفور في أذنه دهناً فورم رأسه ،فعوجل فمات بسرّ من رأى ليلة السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائتين [٣] (٨٦٢ م) . وصلى عليه المستعين .

وكان إذا جلس إلى الناس يتذكر ،فترعد فرائصه ، وذلك أنه رأى أباه في النوم كأنه يقول:ويلك يا محمد،قتلتني وظلمتني ،والله لا تمتعت بالخلافة إلا أياماً يسيرة، ثم مصيرك الى النار .فانتبه وهو لا يملك عينيه .فكان يسلى فيقال له:هذا استشعار

(١) في تاريخ الخطيب تفصيل ترجمته ج ٧ ص ٣٦٥

(٢) الذبحة كهمزة وعنبة وجع في الحلق أودم يخنق فيقتل كما في القاموس .

(٣) تفصيل حياته في تاريخ الخطيب ج ٢ ص ١١٩

وهو حديث النفس فلا يسلو ، ولم يزل منكسراً إلى أن توفي وله خمس وعشرون سنة (١) .

ثم صارت الخلافة الى المستعين

بالله أبي العباس أحمد بن محمد بن المعتصم ، فبقي في الخلافة ثلاث سنين وثمانية أشهر وثمانية وعشرين يوماً . ومنذ خلع الى أن قتل نحو من تسعة أشهر ، لأنه خلع نفسه من الخلافة وردها الى المعتز بالله ، لأن الأمور اضطربت عليه . لأنه كان يولي الرجل ثم يعله فيعزله ثم يردّه ثم يعزله .

وقالت الحكماء : ما على الدول شرّ من تقلب الولاة . ولا اختلفت الآراء على دولة إلا تعجّل هلاكها . ولا قدم السفلة وترك أعيان الناس إلا احتقرت الدولة واستطالت عليها العامة .

فتنكر الأتراك للمستعين ، واستقر الأمر بعد ذلك على تصيير المعتز على الخلافة ، ونفي المستعين إلى واسط مع أصلح من يختاره ويأمنه على نفسه ويرضى به الأتراك . فوقع الاختيار على أحمد بن طولون ومضى به إلى واسط فأحسن ابن طولون عشرته وشكر حسن بلائه عنده ، واطلق له التنزّه والصيد ، وكره أن تدخل المستعين حشمة منه ، فألزمه أحمد بن محمد الواسطي وكان يومئذ حديث السنّ حلو المشاهدة حاضر النادرة .

وماج غلمان المتوكل وخافوا على المعتز من كيد يلحقه من المستعين بجمع

---

(١) وروي أنه بسط بين يديه بساط فرأى عليه شيئاً مكتوباً فلم يعلم ما هو فأمر باحضار من قرأه فاذا كانت بقلم اليونان واذا عليه مكتوب عمل هذا البساط للملك قباذ ابن كسرى قاتل أبيه وفرش قدامه ، فلم يلبث غير ستة أشهر ومات . فتطير المنتصر واغتم لذلك وأمر برفعه . (هامش الأصل) .

الأولياء اليه فاضطربت لذلك قبيحة أم المعتز فكتب الى أحمد بن طولون (١) بقتله، والبعثة اليهم برأسه، وتقلد واسط بعد ذلك، فكتب اليهم والله: لا رآني الله - عز وجلّ - وأنا اقتل خليفة بايعته أبداً.

فأنفذوا اليه سعيداً الحاجب وقد تقدم إلى أحمد بن طولون بتسليم المستعين اليه، وأن يرجع الى سرّ من رأى، قال أحمد بن يوسف بن ابراهيم المعروف بالمنجم وكان ثقة: فسمعت أحمد بن محمد الواسطي يحدث يوسف بن ابراهيم والدي، قال: بكرت مع المستعين، وقد ركب للتنسم، فرأينا غبرة خيل مراصيد، فانفذ غلاماً يركض ليعرف خبرها فرجع، فقال: هو سعيد الحاجب فقال لي: يا أبا عبد الله استودعك الله، قد جاء جرار بني هاشم.

فلم تمض إلا ساعة حتى تسلمه واستبعد به وضرب خيمة، ثم أدخله إياها وخرج فألقاها على ما فيها وركب دوابّه وسار، فلما بعد نظرنا إلى ما في الخيمة فاذا بجثة المستعين وقد حمل سعيد رأسه معه، فلم يبرح أحمد بن طولون حتى غسل الجثة وكفنها وواراها. ودخل أحمد بن طولون سرّ من رأى وقد زاد محلّه من قلوب الأتراك ووسموه بحسن الموقف وجميل المذهب.

وقتل بالسيف ذبحاً يوم الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة اثنتين وخمسين ومائتين.

ثم صارت الخلافة الى المعتز

بالله أبي عبد الله محمد بن المتوكل - وقيل: اسمه الزبير. وقيل: طلحة - يوم السبت لست خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين. وقيل: يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم.

(١) رأس آل طولون، ولي مصر، وبنى الجامع المعروف بجامع ابن طولون. وترجمته في تأريخ ابن خلكان ج ١ ص ٧٧. ومنه تكون آل طولون بمصر على ما سيجيء.

وكان فيه أدب وكفاية ، ولم ينفعه ذلك لادبار السعد عنه ، وقرب قرناء السوء منه ، فخلع . وما زال يعذب بالضرب حتى مات بسر من رأى ، لثلاث خلون من شعبان ، وقيل : لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين (٨٦٩ م) وهو الأشبه وله أربع وعشرون سنة .

وقرأت في (نقط العروس) الذي حدثني به غير واحد عن القاضي أبي الحسن شريح بن محمد عن مؤلفه (١) أن المعتز أدخل في الحمام ، فأغلق عليه حتى مات . والعجب أن ابنه رمي في صهريج ماء في شدة البرد فمات فيه . وكان المعتز أحسن الخلفاء وجهاً ، فبقي في الخلافة ثلاث سنين وستة أشهر وواحداً وعشرين يوماً ، وقيل : وأربعة وعشرون يوماً (٢) .

ثم صارت الخلافة الى المهتدي

بالله أبي عبد الله محمد بن الواثق بن المعتصم بن الرشيد ، يوم الثلاثاء في سابع عشري رجب سنة خمس وخمسين ومائتين (٨٦٩ م) وكان متظاهراً بالدين جارياً على منهاج الخلفاء الراشدين المهديين . وقال : إني استحيي من الله أن لا يكون في بني العباس مثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية ، فتبرم به بابك التركي وكان ظلوماً غشوماً . فأمر بقتله المهتدي . ولما قتل هاجت الأتراك ووقع الحرب بينهم وبين المغاربة ، فقتل من الفريقين أربعة آلاف ، وخرج المهتدي والمصحف في عنقه وهو يدعو الناس إلى نصرته والمغاربة معه وبعض العامة ، فحمل عليهم طيبغا أخو بابك فهزمهم . ومضى المهتدي منهزماً والسيف في يده وقد جرح جرحين حتى دخل دار محمد بن رداد فجمعت الأتراك وهجموا عليه وأخذوه أسيراً ، وحمله أحمد ابن خاقان على دابة فأردف خلفه سائساً بيده خنجر فأدخل إلى دار أحمد وجعلوا

(١) مؤلف نقط العروس ابن حزم المعروف .
(٢) راجع الخطيب ج ٢ ص ١٢١ .

يصفعونه، ويقولون: اخلعها فأبى عليهم، فسلم الى رجل فوطىء مذاكيره حتى قتله، إلا أنه لم يوفق في الوزير والحاجب والقاضي، لأن وزيره جعفر بن محمود الاسكافي وحاجبه صالح بن وصيف وقاضيه الحسن بن محمد بن أبي الشوارب يحبون الدنيا ويشرئبون اليها، ولا يذكرون الآخرة ويكرهون من يدلهم عليها، فكانوا إعانة على سفك دمه، وهتك حرمه، فقتل بخنجر. والخنجر بفتح الخاء والجيم هو الأفصح. وقال بعضهم بكسر الخاء وفتح الجيم، وهو نوع من السكاكين كبير. وذلك بسرّ من رأى لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين (٨٧٠ م) وله أربعون سنة وأربعة أشهر.

وكان له سفط فيه جبّة صوف يصلي فيها بالليل، وغل يمتنع به من النوم فلما قتله الأتراك تضاربوا على السفط وقدّروا أن فيه ذخائره فلما اطلعوا على ما فيه أظهروا الندامة وبقي في الخلافة أحد عشر شهراً وتسعة عشر يوماً وليس من نسله خليفة الى اليوم [1]

ثم صارت الخلافة الى المعتمد بالله

أبي العباس أحمد بن المتوكل. بويع يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين، وكانت أمامه مضطربة الأحوال، مختلفة التدبير، كثيرة العزل والتولية بتدبير الموالي وغلبتهم عليه فقيل في ذلك:

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه

فقام أخوه الموفق بالله الملقب بالناصر وبالمنصور الثاني أبو أحمد طلحة بالخلافة أحسن قيام، وأذاق قرناء السوء كأس الموت الزؤام، ولاه العهد بعده

---

(١) ترجمته في تأريخ الخطيب ج ٣ ص ٣٤٧

وخطب له بذلك على المنابر ، وكان يقال: اللهم اصلح الامير الناصر لدين الله أبا أحمد الموفق بالله وليّ عهد المسلمين أخا أمير المؤمنين. وكان من الشجاعة وجودة الرأي وحسن الحظ وبلاغة اللفظ والانقطاع الى الله في مهماته ، والتوكل عليه في عزماته بمكان لا ينال ، وبمحلّ لا يرتقى . وكشف رأسه في حرب صاحب الزنج وقاتل حاسراً وجعل ينادي : أنا الغلام الهاشميّ ! حتى قتل الله صاحب الزنج على يديه ، وذلك لتوكله عليه وانقطاعه اليه .

ومات في حياة أخيه ، وذلك في شهر صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين (٨٩١ م) وله تسع وأربعون سنة تنقص شهراً ، ودفن بالرصافة .

فأهمل المعتمد أمر الرعية ولم يقدم عليهم من فيه شروط التقدمة المرعية .

فاختلف في موته،فقال ابن حزم في (نقط العروس): سمّ . وقيل :رمي في رصاص مذاب فمات ، وقيل بل مات في حفرة من ريش مشى عليها فسقط فيها فمات غماً ، وذلك ببغداد ليلة الاثنين لأحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين (٨٩٢ م) .

وله خمسون سنة ،وقيل: ثمانية وأربعون سنة فبقي في الخلافة اثنتين وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وخمسة عشر يوماً وليس من ولد المعتمد الى اليوم خليفة.

ثم صارت الخلافة الى المعتضد بالله

أبي العباس أحمد بن الموفق أبي أحمد طلحة بن المتوكل يوم الأثنين التاسع عشر من شهر رجب،وقيل: يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت منه سنة تسع وسبعين ومائتين (٨٩٢ م) فأزال الميل ، وأقام العدل ، وبذل المال ، وأصلح الحال ، وحجّ وغزا ، وجالس المحدثين ، وأهل الفضل والدين .

وقال ثابت بن قرّة الحرّانيّ أنه استولى على الخلافة وليس في بيت المال

سوى قراريط من العين لا تبلغ الدينار وثمانية عشر قيراطاً . والحضرة مطلوبة، والقرية منهوبة ، والأعراب والأكراد عائثون، والأعداء متعاطون ، والأولياء فاسدون طامعون، فأصلح الأمور وأحسن التدبير ،وقمع الدعّار ، وأباد الأشرار، وبالغ في العمار ، وأنصف في المعاملة ، ورفق بالرعية ، وحكم بالسوية ، حتى استفضل في ارتفاعه في سني خلافته تسعة عشر ألف ألف دينار ، وتقدم إلى أمراء الأجناد أن يتقدم كل واحد منهم إلى أتباعه بلزوم الطريقة الحميدة ، وأن من أفسد غلامه على أحد من الرعية شيئاً أو تجرّأ على أحد بأذية ، فالمأخوذ به الأمير دون الغلام .

فسمع يوماً صوتاً من الكروم،مما يلي دجلة فأنفذ يستعلم ذلك،فقيل له:سائس قد أخذ من إنسان حصرماً . فأمر باحضاره ، وقال له:من اتباع من أنت؟ فقال من أصحاب فلان الأمير . فأمر باحضاره وتقدّم بضرب عنقه ،فقتل الأمير ، ولم يجسر بعد ذلك أحد أن يفسد ولم يبق من الجند إلا من خافه ، وكثر الأمن.

ثم قال لوزيره عبيد الله بن سليمان -وكان محدثاً فاضلاً عاقلاً : لعلك أنكرت ما جرى في حق الأمير المقتول ، وكيف قتلته بجرم جناه آخر ؟ فقال الوزير : هوذاك يا أمير المؤمنين .

قال: كنت في خلافة المعتمد ،فرأيت هذا الأمير قد قتل رجلاً بغير ذنب على سبيل العمد ، ولم يكن له وارث في الخلق ، فنذرت لله تعالى إن ولاني أن أقتله به ، فلما وليت كنت أتطلّب له العثرات حتى جرى ما جرى من غلامه ، فقتلته بقتل ذلك الرجل وأقمت السياسة به في الناس .

قلت : وهذا من فقهه ودينه .

مسألة

لا يجوز لمتولّ أمراً من أمور المسلمين من إمام فمن دونه أن يحكم في قضية من القضايا بغير الحكم الشرعيّ. والمعنى [١] يقال. من أن للملوك إقامة السياسة. فلا سياسة الا ما جرى على القوانين الشرعية، ولا أنظر من الله تعالى في دينه بين الملوك والرعية، ولا حكمة أتمّ وأوفى من حكمته المصلحية، ولا أضبط للدين من أوامره المرضية.

ولو جاز أن تكون الأمور السياسية تخرج عن أحكام الله ـ تعالى ـ ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكانت شريعة ثانية، وذلك قول بنسخ الشريعة. نعوذ بالله منه. وقد قال الله ـ تعالى: « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ». فكمال الدين بجمع الأوامر الدينية والأمور السياسية ولا أحكم من الله تعالى ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم.

ولو كان في السياسة ما يحتاج فيه إلى الخروج عن الشريعة لكانت ناقصة، وهو ردّ على الله في قوله: « اليوم أكملت لكم دينكم » وبعد كمال الاسلام بالنص، فلا دقيقة في الأحكام إلا وهي مبسوط عليها رداء الحكم الشرعي، والنظر الديني، والأمر الالهي.

وما يروى عن المعتضد في السياسة في الواقعة التي جاءت بها أخبار أصحاب التواريخ من قتله سيداً لمملوك بجرم فعله المملوك، فقد نصّ على أنه كان علم من حال السيد ما يستحق به القتل، وهو من قضاء الامام بعلمه، وقد قال به جماعة من العلماء. وترجم البخاري في صحيحه في كتاب الأحكام باب (من رأي القاضي أن يحكم بعلمه في أمر الناس إذا لم يخف الظنون والتهمة) كما قال النبي ـ صلى الله

---

(١) أو (وأعني) لم تظهر الكلمة واضحة ولم تقرأ بوجه القطع.

عليه وسلم ـ لهند : خذي ما يكفيكِ وولدكِ بالمعروف إذا كان أمراً مشهوراً وذلك أن شح أبي سفيان كان أشهر من يذكر .

فكان المعتضد لما اطلع من حال السيد على ما يجب به قتله من قتل سابق ، وصادف جرم مملوكه ، قتل السيد بالموجب السابق للقتل ، وجعل في ظاهر الحال تسكين شغب الجند حتى يحتفظوا ، ويمنعوا خدّامهم ومماليكهم من ظلم الناس ، ويقع الخوف في النفوس من صرامة إمام الوقت .

فهو في ذلك لم يخرج عن حكم الشريعة ولا حكم بغير الدين .

وكيف لا وقد كان قاضيه أفضل أهل زمانه ، وهو اسمعيل بن إسحاق المالكي (١) ؟ !

وفي أيام المعتضد كان زكرويه بن مهرويه داعية لقرمط وقد تقدم ذكرهم فأرسل اليهم الجيوش فهزمهم وقتل منهم مالا يحصى (٢) .

وكان كثير الصدقات ، مشاهداً للصلوات ،مع الجماعات،منصور الرايات .

توفي ـ رحمه الله ـ بمدينة السلام ، ليلة الثلاثاء لست بقين من شهر ربيع الآخر ، وقيل : لثمان بقين منه سنة ثمان وثمانين ومائتين (٩٠١ م) . وقيل: سنة تسع ، وله سبع وأربعون سنة . وأمر أن يدفن بدار محمد بن عبد الله بن طاهر معتزل في حجرة الرخام بها .

وكانت مدة خلافته عشر سنين وتسعة أشهر وثلاثة أيام . وقيل : تسع سنين وسبعة أشهر وأثنان وعشرون يوماً . (٣) وكان أحد رجال بني العباس الخمسة .

---

(١) ترجمته في تاريخ الخطيب ج ٦ ص ٢٨٤

(٢) تفصيل أخبارهم في الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ١٩٥ وقتل زكرويه في سنة ٢٩٤ هـ . وبين حال القراطمة في ابتداء أمرهم من صفحة ١٧٥ من المجلد المذكور ، وفي سفر نامة ناصر خسرو ذكر بعض أحوالهم وكان شاهد عيان .

(٣) ترجمته في تاريخ الخطيب ج ٤ ص ٤٠٣

ولم يل الخلافة من بعد بني العباس بعد السفاح من لم يكن أبوه خليفة إلا المستعين والمعتضد .

ثم صارت الخلافة في ذلك اليوم

إلى المكتفي بالله أبي محمد علي بن المعتضد بالله . وليس في الخلفاء من كنيته أبو محمد سوى الحسن بن علي عليهما السلام ، وسوى المكتفي بالله . وليس فيهم من اسمه علي غير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وغير المكتفي بالله .

وهو الذي بنى جامع القصر بمدينة السلام ، وكان موضعه مطامير فغطاها ، وبنى تاج دار الخلافة على دجلة ، وأنفق الأموال العظيمة في حرب القرامطة الخارجين على الحجيج حتى أبادهم واستأصلهم .

وفي أيامه فتحت أنطاكية ، وكانت الروم قد استولت عليها ، ففتحت بالسيف ، وقتل من أهلها آلاف ، وأسر أمثالهم واستنقذ من المسلمين أربعة آلاف رجل ، وأصاب كل رجل شهد الوقعة ثلاثة آلاف دينار . وظفر للروم بستين مركباً عملوها للغزو .

وكان المكتفي مائلاً إلى حبّ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ باراً بأولاده . يحكى أن يحيى بن علي الشاعر أنشده بالرقة قصيدة يذكر فيها فضل أولاد العباس على أولاد علي ، فقطع المكتفي عليه إنشاده . وقال : يا يحيى : وكأنهم ليسوا بنو عم (كذا) ! وان كانوا خلفاء ما أحب أن يخاطب أهلها بشيء من ذلك . ولم يسمع القصيدة ولا أجازه عليها .

وفي أيامه انتدب الخوارج في الأطراف ، وبعث محمد بن سليمان صاحب الشرطة ببغداد إلى مصر ، فسلم اليه شيبان بن أحمد بن طولون الأمر ، فاستصفى

أموال آل طولون [١] وأخرجهم من مصر وهم عشرون رجلاً .

وتوفي بمدينة السلام ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين (٩٠٨ م) وله إحدى وثلاثون سنة وستة أشهر ، وفي ذلك خلاف . فكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وستة عشر يوماً ، وقيل : وتسعة عشر يوماً :وولي من أولاد المعتضد ثلاثة :المكتفي والمقتدر والقاهر ، كما أن أولاد الرشيد ولي منهم ثلاثة : الأمين والمأمون والمعتصم .

ثم صارت الخلافة الى المقتدر

بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد . وقيل: اسمه إسحاق وإنما اشتهر بجعفر لشبهه بجعفر المتوكل . بويع يوم الأحد ثالث عشر من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين (٩٠٨ م) . اجتمعوا عليه وله من عمره ثلاث عشرة سنة وشهران وثلاثة أيام .

وهو أول من ولي من بني العباس وهو غير بالغ ، وتكلم الفقهاء في ذلك والمحدثون . فاحتج من أجازه بأن الله ـ تعالى ـ بعث يحيي بن زكريا نبياً وهو غير بالغ بقوله تعالى :« وآتيناه الحكم صبياً » . ولا يقال فيمن بلغ صبي .

وقد ألف الصولي في ذلك كتاباً ، وليس الكلام في هذه المسألة من غرضنا مع القطع ببطلانها والنكتة في بيانها أنه استدل بقوله ـ تعالى في يحيي

(١) آل طولون آخرهم شيبان المذكور ، وكان أحمد بن طولون مؤسس هذه الامارة في مصر ، وتلاه خارويه بن أحمد ، ثم أبو العباس جيش بن خارويه ، وبعده شيبان المذكور . وجاء ذكر نقودهم في (تعرفة النقود الاسلامية) لاسماعيل غالب المسماة (بمسكوكات قديمة اسلامية قتالوغي) ، ذكرهم في (دول اسلامية) الاستاذ خليل أدهم وص ذكر أحمد بن طولون . وجاءت اخباره وابتداء امره في ابن الأثير ج ٧ ص ٦٦ و ص ١٤٧ وأخبار من تلاه لما بعد ذلك،وبيان انقراضهم في ص ١٩٠ من المجلد المذكور .

«وآتيناه الحكم صبياً ، وليس بحجة له . لأن معناه عند علماء المسلمين من المفسرين ان الله أعطاه الفهم قبل بلوغ أسنان الرجال . وذكر معمر : أن الصبيان قالوا ليحيي اذهب بنا نلعب . فقال : ما للعب خلقنا . فأنزل الله ـ تعالى ـ : «وآتيناه الحكم صبياً ».

قلت : فكان هذا عند معمر سبب نزول الآية . وهو يحتاج الى توقيف. فان الصبي في لغة العرب التي أنزل الله ـ تعالى ـ بها كتابه وبعث بها رسوله هو الذي ولدته أمه ما دام رضيعاً ، وما دام في بطن أمه فهو جنين ، فاذا فطم سمي غلاماً الى سبع سنين ، ثم يصير يافعاً الى عشر سنين ، ثم يصير حزوّراً الى خمس عشرة سنة ثم يصير قمراً الى خمس وعشرين سنة ، ثم يصير عنطنطاً الى ثلاثين سنة ، ثم يصير صملاً الى أربعين سنة ، ثم يصير كهلاً الى خمسين سنة ، ثم يصير شيخاً الى ثمانين سنة ، ثم يصير بعد ذلك همّاً ، فانياً كبيراً .

والأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ لا يقاس بهم غيرهم ، وقد كان نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما أرضعته حليمة كان يقبل على ثديها الأيمن ، ويترك ثديها الأيسر ، لابنها ضمرة . ألهم العدل في رضاعه ، لما علم أن له فيه شريكاً فناصفه ، ذكره أصحاب السير .

قلت : وظهور العدل في هذا من وجهين : أحدهما قسمته الثديين بينه وبين شريكه لكل واحد ثدي ، والثاني إعطاء الحق لذي الحق ، فكان الأولى بالأيمن أحق به . وثبت عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : لما نشأت بغضت إليّ الأوثان وبغض الي الشعر ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرّتين وعصمني الله منها ثم لم أعد .

قلت : والمرّتان إحداهما أن عرساً كان بمكة وفيه زمر فأراد ان يستمعه

ـ صلى الله عليه وسلم ـ فألقي عليه النوم ، فلم يستفق حتى ضربته الشمس . والثانية لما جدّد بناء الكعبة قال له العباس : يا ابن أخي ، لو ألقيت إزارك على كتفك يقيك الحجارة . فأزال إزاره وبقي عرياناً ، فسقط الى الأرض مستتراً ، وقيل : انه سمع صائحاً يقول : ألق إزارك عليك ! فسقط الى الأرض ليستتر بازاره وإذا حفظ من التعري فما فوقه أحرى من أن يعصم منه ، وينهى عنه .

فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أودع العلم والحكمة في الفطرة . وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم . قال الله العظيم : « ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً » . فحمد سليمان (١) ولم يلم داود .

ولولا ما ذكر الله من أمر هذين لرويت أن القضاة هلكوا ، فانه أثنى على هذا بعلمه وعذر هذا باجتهاده .

أخرجه البخاريّ في كتاب (الأحكام) في باب (متى يستوجب الرجل القضاء) من قول الحسن البصري .

وقد ثبت من حكم سليمان وهو صبيّ يلعب في قصة الصبيّ ما ثبت في الصحيحين : أخرجاه عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت لصاحبتها : إنما ذهب بابنك . وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك ! فتحاكما الى داود عليه السلام فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ فأخبرتاه ، فقال : ائتوني بالسكين أشقّه بينكما . فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله هو ابنها . فقضى به للصغرى . قال أبو هريرة : والله ان سمعت بالسكين ما كنا إلا يومئذ نقول إلا المدية .

وهذا نص صحيح رواه جماعة عن أبي الزناد ، منهم ورقاء وموسى بن عقبة

---

(١) ورسم سليمان بلا ألف .

ومحمد بن عجلان ، ذكرهم مسلم في كتاب (القضاء) من صحيحه ،
وقيدناه فيه .

(فتحا كما) بدون تاء التأنيث . وهو عائد إلى معنى الشخص فيهما وهو مذكر وهو في جميعها بتاء التأنيث في قوله : (فخرجتا) وفي قوله : (فاخبرتاه) . ونص صحيح البخاري « كانت امرأتان » وأسقط هذه « أنتِ » وزاد « لا تفعل ، يرحمك الله » ذكره في كتاب بدء الخلق عند ذكر الأنبياء عليهم السلام .

وكذلك قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل . وأما بعثه فانه بعث باجماع أهل التوراة وهو ابن ثمانين سنة . وأوحي إلى يوسف عندما همّ إخوته بالقائه في الجبّ وهو صبيّ . فهذا في حق الأنبياء - عليهم السلام - فلا يقاس بهم غيرهم .

فلا يحل أن يلي الخلافة ولا أمراً من أمور المسلمين دون الخلافة إلا من يكون بالغاً . وحدّه الاحتلام في الرجال ، أو أن يبلغ من السن أقصى سن من لا يحتلم ، واختلف فيه من خمسة عشر عاماً إلى ثمانية عشر عاماً .

وقد اشترط الله تعالى البلوغ في صحة الرشد حتى يأخذ المال بقوله - تعالى - « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم » . إذ لا يصح رشد من صبي لضعف ميزه بوجوه منافعه ، وتبذيره لمالِه الذي جعله الله قواماً للعيش ، وسبباً للحياة ، وصلاحاً للدين والدنيا ، ونهانا عن إضاعته وتبذيره في غير وجوهه نظراً منه لعباده ورأفة بهم .

فاذا كان الرشد الذي يطلب لصلاح المال لا يصح من دون البالغ ولا من البالغ حتى يؤنس منه الصلاح فيه فكيف بالخلافة المشتملة على كليّات مصالح المسلمين ، من حفظ الأموال ، وحفظ الثغور ، واقامة السياسة ، وإرهاب الأعداء ، وإعطاء الجند ،

والعدل بين الرعية ، وإقامة قوانين الدين ، ولمّ شعث المسلمين ، ودفع المهمّات، والنظر في الملمّات ؟

أليس من شرائط الامام أن يكون من أهل الاجتهاد على ماذكره أبو المعالي [١] في الارشاد وقال هذا متفق عليه ؟

ومن شرائطها أيضاً الورع والعدالة،وكيف يتصدى لها من تردّ شهادته الى غير ذلك من الشروط التي ذكرها العلماء في الامامة التي هي الخلافة ، ولم يبدِ أحد لقائل بها خلافه ، فكيف يصح ذلك من صبيّ دون البلوغ مع الطمع فيه وقلة نظره وضعف ميزه ؟ هل هذا إلا تلاعب بالدين واطماع للكافرين في المسلمين ؟ ليت شعري كيف يستجيز مانع الرشد من دون البالغ أن تصح الخلافة منه فيكون خليفةً وليس رشيداً ؟ نعوذ بالله من الأهواء ، ونسأله استقامة على سواء . إنه على ذلك قدير [٢] .

ولأربعة أشهر من خلافته عزله قواده وبعض خدمه . وبايعوا عبد الله ابن المعتز وكان من أهل الأدب والشعر وذلك يوم السبت للنصف من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين . وأقام على ذلك يوماً وليلة ولم ينزل المقتدر عن سرير ملكه، ولا أخرج عن دار الخلافة ، ثم قبض على ابن المعتز وقتل ، وصفا الأمر للمقتدر .

ومن حسناته عندهم أنه نظر في أمر الحلاج وهو الحسين بن منصور ابن محمى الحلاج البيضاويّ من بيضاء فارس،وجده محمى مجوسيّ . وبيته وأخوته

---

(١) هو امام الحرمين عبد الملك الجويني . وتوفي سنة ٤٨٨ هـ ــ ١٠٨٥ م وله الشامل أيضاً يأتي ، وترجمته في طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٤٩ وفي وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٠٧ كما أن ترجمة والده جاءت في ج ١ ص٣٥٧ منه .وكتاب الارشاد منه نسخ في دار الكتب المصرية ج ١ ص ١٦٣ من الفهرست .

(٢) وتفصيل مبحث الخلافة في الأحكام السلطانية الماوردي ولأبي يعلى .

يعرفون ذلك وادّعى هو أنه محمد بن أحمد الفارسي من ولد الحسين بن علي ابن أبي طالب - رضي الله عنه .

وكان في ما زعموا يعرف السحر، تعلمه ببلاد الهند وبلاد السكاسكة، وأخباره في ذلك مشهورة، ذكرها علماء المسلمين وثقاتهم، منهم القاضي الامام العدل أبو بكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلاني [١] وبعده الامام الحافظ الثقة أبو بكر ابن ثابت الخطيب، وأكثر من ذكره في ترجمة الحسين بن منصور. وذكر امام المتكلمين وحجة الفقهاء الفروعيين والأصوليين أبو المعالي في كتابه المسمى بالشامل كثيراً من مخاريق الحلاج في كتاب (النبوة) فقال ما هذا نصه عن القاضي أبي بكر بعد كلام قبله :

وقد ذكر طائفة من الأثبات والثقات المعتنين بالبحث على البواطن أن هؤلاء الثلاثة تواصوا على قلب الدولة والتعرض لافساد المملكة واستعطاف القلوب واستمالتها، وارتاد كل واحد منهم قطراً .

أما الجنابي فأكناف الأحساء، وابن المقفع [٢] توغل في أطراف بلاد الترك [٣]، وارتاد الحلاج قطر بغداد فحكم عليه صاحباه بالهلكة والقصور عن

---

(١) بصري بغدادي من أكابر علماء الكلام توفي سنة ٤٠٣ هـ - ١٠١٢ م . ومن مؤلفاته هداية المسترشدين، والانتصار، وكشف أسرار الباطنية، والنحل، واعجاز القرآن، وترجمته في تاريخ الخطيب ج ٥ ص ٣٧٩، وروضات الجنات ج ٤ ص ١٧٧ وانساب السمعاني ص ٦١ - ١ وقاموس الاعلام ج ١ ص ٦٨٨ وابن أبي عذيبة ج ٣ ص ٤٠٠، ودائرة المعارف الاسلامية المترجمة الى التركية جزء : ١٤ ص ٢٥٣ وابن خلكان ج ١ ص ٦٨٦

(٢) ابن المقفع بكسر الفاء لأن أباه كان يعمل القفاع ويبيعها (هامش الأصل)

(٣) قوله توغل في أطراف بلاد الترك مما يمنع صرف هذا الاسم أي ابن المقفع الى أن يكون صاحب كليلة ودمنة للاسباب التي بينها ابن خلكان . فلا شك أنه غيره، وان مراجعة النصوص التي ذكرها الباقلاني وأبو المعالي الجويني لم تبق ارتياباً . والظاهر أن

مدرك الأمنية واستكمال أسباب المنية علماً منها ببعد أهل العراق عن الانخداع.

إلى أن قال إمام المتكلمين أبو المعالي: ولا معنى لتضييع الوقت فقد أحسن فيه شيخ الصوفية الجنيد - رضي الله عنه - دخل عليه يوماً فقال له الجنيد: بلغني هذيانك. فقال: مجيباً أنا الحق. فقال له الجنيد. أنت الحق وأنت على خشبة تفسدها. فحبس من غد وصلب بعد أيام. انتهى كلام إمام المتكلمين أبي المعالي.

وذكر بعده القول في إثبات الشيطان فقرنه به وبئس القرين، وقد ذكره الامام أبو اسحاق الاسفرايني [1] وغيره بأقبح ذكر.

وكان قد ادّعى أنه المهدي وأنه قد أعطي القدرة وأنه يحيي أصحاب الكهف والرقيم لنصرته وأنه يدفع الى كل واحد من أصحابه خاتماً طوله وعرضه وسمكه واحد فاذا صارت الخواتيم في أيديهم أعطوا القدرة وأظهروا من الآيات والأمر البيّن مثل الذي أظهر بسائر المرسلين - عليهم السلام - وأمر اصحابه بلبس الحرير والديباج وأباحهم المحرمات. وتقدم الى جميعهم بترك الدعاء والتضرع. وعرفهم أن إبليس - لعنه الله - ليس من خلق الله وأنه ضد الله - تعالى - عن قوله! وأنه خالق معه فاذا خلق الله - عزّ وجلّ - بطيخة خلق هو حنظلة. وكذب وجهل لا خالق إلا الله - عزّ وجلّ!.

فلما كانت سنة إحدى وثلثمائة وتقلد أبو الحسن علي بن عيسى بن داود

= ابن خلكان نقل من ابن دحية وظن أن ابن المقفع صاحب كايلة ودمنة هو المقصود مع بعد الزمن وتفاوت التأريخ. وعدم ظهور وقائعه لنا في بلاد الترك لا ينفي أن يكون داعية هناك وابن الشلمغاني لم يكن داعية في بلاد الترك. واننا لم نحط بالوقائع هناك علماً..

(١) أبو اسحاق الاسفرائني هو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي المتوفى سنة ٤١٨ هـ وترجمته في طبقات السبكي ج ٣ ص ١١١ ومن مؤلفاته كتاب الجامع فى اصول الدين والرد على الملحدين. وهو غير أبي حامد الاسفرايني، وغير أبي المظفر الاسفرايني صاحب التبصير في الدين.

ابن الجراح الوزارة جدّ في طلب الحلاج فظفر به وبأخي امرأته بعد شهرين من ولايته في بعض نواحي الأهواز ، فجيء بهما ذليلين مهينين فأدخلا على جملين وعلى رءوسهما برنسان ومعهما من ينادي : هذا الساحر الحلاج الممخرق ! وطيف بهما ببغداد .

ثم صلبا في رحبة الجسرين بالجانبين الشرقي والغربي في ستة أشهر والصبيان يلعنونهما ويصفعونهما ويستخفون بهما وذلك بأمر السلطان وإذن الخليفة . ثم حبسا في المطبق .

وادّعى الربوبية وأضلّ جماعة واتّبعوه على كفره منهم محمد بن عبد الله ابن حزام ولم يزل شره يتفاقم حتى أمر السلطان بنقله إلى مجلس في داره فنقل اليه . فلم يزل يكاتب الناس حتى بايعه جماعة وقدم خليفة .

فلما كان سنة تسع وثلثمائة أحضر كتابه بخطه (١) وفيه تفسيره وقد تضمن من ذكر أرباب عدة وآلهة كثيرة . فدفعه المقرىء الامام ابو بكر أحمد بن موسى ابن مجاهد فنظر فيه الوزير أبو الحسن فلما تبينه استعظمه ووجه إلى منزل محمد ابن علي خادمه فقبض عليه وعلى كتبه .

فلما نظر فيها أبو الحسن وجد فيها كتاباً فيه سر الالـه وفيه من الكفر والتجسيم والالحاد ، ما لا تقدر أن تنطق به ألسنة العباد ، فصفعه ثمانين صفعة وحبسه .

ثم إن الخليفة أمر الوزير حامد بن العباس - وكان قد استوزر اثني عشر

---

(١) من الكتب المنسوبة الى الحلاج كتاب الطواسين وديوان الحلاج . طبعهما الاستاذ لويس ماسينيون وكذا طبع أخبار الحلاج . وللعلاء البخاري في (ناصحة الموحدين وفاضحة الملحدين) وكذا في (خيرانية) وغيرهما رد عليه . وهنا المؤلف عين مراجع مهمة جداً ، وبين آراء العلماء فيه . وترجمه الخطيب البغدادي في ج ٨ ص ١١٢ وابن خلكان في ج ١ ص ٢٠٦

وزيراً فمنهم من وزر له مرتين وأكثر وكل ذلك من ضعف النظر وفساد التدبير.. أن يتسلمه مع كتبه، وينظر في أمر الحلاج وحزبه.

فلما وقف الصلحاء على أمر الخليفة أخرجوا كتابه إلى شاكر بن أحمد بأن يهدم الكعبة ويبنيها بالحكمة حتى تسجد مع الساجدين وتركع مع الراكعين.

وكتابه إلى بعض أصحابه: إن أردت ان تحج فاعمد إلى بيت نظيف في دارك فقف على بابه مثل الوقوف بباب الكعبة وادخله وأنت محرم. وإذا خرجت منه فأتِ إلى موضع آخر من دارك فصلّ فيه ركعتين فتكون قد صليت عند المقام. واسع من ذلك الموضع إلى باب البيت الذي دخلته فتكون قد سعيت بين الصفا والمروة.

فأخذ الوزير الكتاب فدفعه إلى قاضي القضاة أبي عمر محمد بن يوسف ابن يعقوب بن اسماعيل بن حماد بن زيد [1] وكان على مذهب مالك بن أنس وكذلك أهل بيته.

فلما قرأه جعل يخطيء فيه والحلاج يرد ذلك عليه، فقال له القاضي: أراك تحفظه فقال: هذا كتابي وعلمي.

فلما أقرّ له بذلك وأسنده عن رجل عن الحسن البصري قال له: كذبت يا عدّو الله يا كافر يا فاجر يا حلال الدم وذلك ما لا أقوله لمسلم. فأخذ الوزير قول القاضي فيه واستفتى الفقهاء في أمره فأفتوا بقتله. فجمع ذلك وعرضه على أمير المؤمنين المقتدر بالله فلما قرأه قال له: الجواب عنه يأتيك.

فلما كان يوم الاثنين لثماني ليال بقين من ذي القعدة سنة تسع وثلثمائة ورد على الوزير توقيع من الخليفة بأنه إذا كان الأمر على ما يقوله محمد بن يوسف وغيره من الفقهاء وكنت تثبت في أمره حتى وضحت الحجة عليه فتقدّم إلى

---

(١) ترجمته مفصلة في تأريخ الخطيب ج ٣ ص ٤٠١

محمد بن عبد الصمد صاحب المعونة مولى أمير المؤمنين بضربه ألف سوط وقطع يديه ورجليه من خلاف وضرب رقبته وإحراق جثته وتذرية رماده في ماء دجلة.

فوجّه إلى محمد بن عبد الصمد وأمره بالبكور اليه ليتسلمه منه ويمتثل ما أمره به فيه. فلما كان غداة يوم الثلاثاء حمل من دار الوزير واجتمع الناس عليه في طريقه، فخاف أن يقتلوه، فقال لهم: ليس هذا الحلاج. الحلاج في دار الوزير. فجيء به فلما ضرب أربعمائة سوط صاح صيحة: قد فتحت الساعة القسطنطينية! فلم يسمع منه فلما ضرب ستمائة قال نصيحة: ها هنا رجلان من أولياء السلطان عندهما مائتا ألف دينار! فلم يلتفت الى قوله وخيف عليه الموت قبل أن ينفذ فيه ما خرج به الأمر وأمر الجلادون بتخفيف الضرب فخفف عنه باقي الألف.

ثم قطعت يداه ورجلاه ورأسه وأحرقت جثته وذريت في الماء ورفع رأسه وكبر المسلمون (١) وتذكروا إنذار رسول رب العالمين بالدجالين والكذابين. فظهر صدقه كما قال، وحقق الله ذلك المثال.

ثبت بنقل العدل عن العدل عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله. وقد تكلمنا على هذه اللفظة أعني الدجال في المجلد السادس من كتاب (العلم المشهور في فوائد فضل الأيام والشهور). وذكرنا فيها عشرة أقوال.

فالدجال: المموّه على الناس، والملبس عليهم، والمتبوع بجهال يتبعونه. والكذاب خلاف الصادق، إذ الصدق في اللغة الثبوت على الشيء والصلابة فيه. يقال: فلان صدق اللقاء ورمح صدق، أي: صلب ثابت عند الطعن. فقيل لمن قال غير الحق

(١) هنا حاشية منقولة من حياة الحيوان من حرف الحاء تتعلق بالحلاج أغفلنا ذكرها واكتفينا بالاشارة اليها لمن أراد مراجعتها.

كاذب لعدم ثبوت قوله ، وقيل لمن حمل ثم كَـعَ : كذب في حملته ولم يصدق ، أي لم يثبت .

فلما توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وولي أبو بكر - رضي الله عنه - نبغ باليمامة مسيلمة - لعنه الله - ، وادّعي النبوة ، وأتى بقرآن ألّفه ، وكلام ركيك نظمه ، يشبه عقله ، ويشاكل في السخافه فهمه وفعله . فقتله الله وعقره ، كما أخبر - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح الذي ذكره .

ثم ولي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فخوّف الناس ، وقصرهم على كتاب الله حتى لقد جاء من يسأله عن « الذاريات ذرواً » فشرّده عن المدينة وأقصاه بعد التطواف به على أهل مدينته كي يعرفوا خطيئته ، ويتبرءوا من جريرته .

ثم كانت في أيام عليّ بن أبي طالب - عليه السلام - طائفة ادّعوه إلهاً ، فعظم لديه أمرهم ، واشتد عليه مروقهم من الدين وكفرهم ، فاستتابهم من قولهم فلم يتوبوا ، واستردّهم عن دعوتهم فلم يرجعوا ، فعجّل لهم أشد العذاب وعاقبهم بالنار ، فازداد بذلك تعظيماً في أعين أولئك الفجار ، لأنهم قالوا : لا يحرق بالنار إلا رب النار كما ثبت عن النبي المختار - صلى الله عليه وعلى آله . فانتقل من إحراقهم الى نفيهم عن مواطنهم وخرج من الاحراق الى نوع آخر من العقوبات في أماكنهم .

قال ذو النسبين - أيده الله - : وهذا الحديث الثابت حدثنا به العدل تاج الدين أبو القاسم الفراوي أيام قراءتي عليه بخراسان . قال : حدثنا جدي فقيه الحرمين أبو عبد الله الفراوي سماعاً عليه . قال : أخبرنا الشيخ الصالح سعيد ابن أبي سعيد الصوفي . قال : أخبرنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلّدي . قال : أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق السرّاج . قال : أخبرنا قتيبة بن سعيد .

قال : حدثنا الليث عن بكير عن سليمان بن يسار عن أبي هريرة أنه قال :

بعثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بعث ، فقال : فان وجدتم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما بالنار . ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أردنا الخروج : إني أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً ، وان النار لا يعذب بها إلا الله . فان وجدتموهما فاقتلوهما .

هذا حديث صحيح أخرجه البخاريّ في كتاب (الجهاد) عن قتيبة وترجم عليه باب (لا يعذب بعذاب الله).

ثم ذكر بعده إحراق عليّ ـ رضي الله عنه ـ للقوم ، فقال ما هذا نصه : حدثنا علي بن عبد الله قال : حدثنا سفيان عن أيوب عن عكرمة أن عليّاً حرّق قوماً فبلغ ابن عباس ، فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم لأن النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : لا تعذبوا بعذاب الله ، ولقتلتهم كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بدل دينه فاقتلوه .

قال ذو النسبين ـ أيده الله ـ : وعليّ ـ رضي الله عنه ـ إنما حرّق جثثهم بعد قتلهم بالسيف . ذكر ذلك الامام الحافظ أبو عمر بن عبد البرّ في كتاب (التمهيد) (١) وعندي منه أصله ، ذكره في مرسل زيد بن أسلم قال : وروي من وجوه أن علياً إنما حرقهم بعد ضرب أعناقهم . ذكر ذلك عدلان حافظان : أبو جعفر العقيليّ وأبو زيد عمر بن شبّة . قال العقيلي حدثنا : محمد بن إسماعيل قال : حدثنا شبابة وقال : ابن شبّة حدثني محمد بن حاتم قال : حدثنا شبابة بن سوار قال حدثنا خارجة بن مصعب عن سلام بن أبي القاسم عن عثمان بن أبي عثمان قال :

---

(١) هو التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد . قال ابن حزم : وهو كتاب في الفقه والحديث ولا أعلم نظيره • واختصره وسماه الاستذكار ، ومنه نسخة في دار الكتب المصرية • وله مختصرات أخرى •

جاء ناس من الشيعة الى علي فقالوا: يا أمير المؤمنين ، أنت هو. قال: من أنا؟ قالوا: أنت هو. قال: ويلكم من أنا؟ قالوا: أنت ربنا. قال: ويلكم ارجعوا وتوبوا. فأبوا ، فضرب اعناقهم ثم قال: يا قنبر ، ائتني بحزم الحطب. فحفر لهم في الأرض اخدوداً فأحرقهم بالنار ثم قال:

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناري ودعوت قنبرا[١]

وفي أيام المقتدر قوي القرمطي أبو طاهر ، وقصد مكة وقلع الحجر الأسود كما تقدم ذكره[٢].

وخرج عليه الديلم. وسبب ذلك اختلاف الوزراء وسعاية بعضهم في بعض ولم يكن فيهم من يحفظ حزباً من كتاب الله – عز وجل – ، ولا حديثاً صحيحاً عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، بل كانوا يميلون إلى النجامة ، حتى تفرقت الكلمة ، وذكرت أسماء الخوارج على المنابر مع الخلفاء في خطب الجمع والأعياد ، حتى قوي أمر بني القداح[٣] بالمغرب.

وانتسبوا إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر ، قتلوا بسجلماسة ثلثمائة ألف رجل ، وذبحوا في المهود مائة وخمسين ألف صبي. قتلهم أبو محمد الملقب بالمهدي ، وهو

---

(١) وهؤلاء هم النصيرية والعلي اللاهية • وجاء ذكرهم في مؤلفات عديدة • ولا يزالون منتشرين • وتعرضت لهم في (تاريخ العراق بين احتلالين) ج ٢ ص ١٨٠ – ١٨١ وج ٣ ص ١٢٥ و ١٥٣ و ١٥٦ • والشلمغاني منهم • وترجمته في رجال أبي علي وعده من الغلاة وفي ابن أبي عذيبة ج ٣ ص ٢٠٧ ومنهم الشيخ رجب البرسي وله كتاب مشارق الانوار • وفي دبستان مذاهب تفصيل أحوالهم •

(٢) أبو طاهر هو سليمان بن أبي سعيد الحسن بن بهرام القرمطي رئيس القرامطة وفي أوضح في وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٠٨ عنهم كما أن ابن الأثير أطنب في ذكرهم •

(٣) بنو القداح يريد بهم الفاطميين في مصر وكانوا قد ظهروا بسجلماسة • ودام حكمهم بمصر الى سنة ٥٦٧ هـ • أولهم عبيد الله المهدي وآخرهم العاضد • الدول الاسلامية ص ٨٠ ، والفاطميون بمصر المقدمة – ت •

عند أهل المشرق عبد الله ابن الأئمة المستورين فيما يزعم ، وعند أهل سجلماسة عبيد الله وعبيد . وأخباره في نهاية من الطول ، تخرج عن الغرض المطلوب والمأمول .

وذكر عباس بن محمد في تأريخه حين ذكر المهدي هذا، فقال: واختلف الناس في نسبه ، فمن الناس من قال : إنه من أبناء اليهود .

وأما القاضي محمد بن خلف وكيع ، فانه ذكر أنه من سواد البصرة من عرض الناس يسمى عبد الله بن عبد الرحيم . فلما ملكوا البلاد المصرية ، وتحكمت سيوفهم في هام البرية ، أرسلوا الى ابن خداع الحسيني النسابة بزعمه ، البايع آخرته بزهيد الثمن في حكمه ، فأخرج لهم النسب ، ووصل لهم السبب ، فقدموه على دمشق طعمة له على ذلك ، وسيعلم في الآخرة ما هنالك .

وكان في العراق قد انكرهم، فلما أطعموه أثبتهم وذكرهم . ثم تلاه في أفعاله، ونسج على منواله ، من سكن مصر أو دخلها من النسابين . ولا سيما أبو الغنائم فانه أتى في هذه بالجرائم (١) .

وقتل القرمطي الخلق العظيم بالعراق والجزيرة والشام الى أن عاد الى الاحساء وملكها .

ووزراء الخليفة في ذلك كله يتنافسون في صيد الدرّاج ، وينثرون على على راميها المال الجزل ، ويدخلون في الشريعة اللعب والهزل ، ومن اتبع الصيد غفل ، وعن الطريق المستقيم عدل .

فخلع مرتين : مرة بابن المعتز ومرة بالقاهر . وفيها أزيل عن سرير ملكه ، وأخرج عن دار الخلافة للنصف من محرم سنة سبع عشرة وثلثمائة (٩٢٩م) .

---

(١) في خطط المقريزي تفصيل ذكره في الجلد الثاني ص ١٥٨ والفاطميون في مصر ص ٦٧ - ٧٩ وكذا في الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التأريخ .

وبويع للقاهر، وجلس على سرير الملك ، ثم قبض على القاهر وأعيد أخوه المقتدر الى خلافته يوم الأثنين لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم.

وكان قد غلب عليـــه أصحاب الدواوين، فلا ينفذ له أمر دونهم، وراسلوا النساء والخدم ، وكلفوا الناس المغرم ، وأعدموا خزائنه الدينار والدرهم . وجعلوا جارية من جواريه، تعرف بثمل القهرمانة، تجلس للمظالم ، ويحضرها الوزراء والقضاة والعلماء .

وبطل الحج في أيامه ، فلم يحج أحد سنة سبع عشرة وثلثمائة لدخول سليمان القرمطي (١) صاحب البحرين مكة وأخذه الحجر الأسود . دخلها يوم الاثنين لسبع خلون من ذي الحجة ، وأخذ الحجر يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة ، وأقام بها ثمانية أيام . ولم يبطل الحج منذ كان الاسلام غير تلك السنة .

واستوزر اثني عشر وزيراً ، يولي هذا اليوم ويصانع الخدم فيعزله غداً ، ويولي الذي رشا الخدم إلى أن أخرجه قرناه السوء ليتفرج على اللاعب في الميدان، على ما ذكره الفقيه على مذهب أبي حنيفة أبو الفضل محمد بن يوسف الغزنوي (٢) في تاريخه ، وأنا بريء من عهدته . قال: الغزنوي وكان اللاعب من موالي أبيه المعتضد، وقد كان تولى قتل المتوكل موالي أبيه المعتصم . والعرب تقول :

من استعمل العبيد ، فرأيه غير سديد .

قال ذو القسمين - أيده الله - : واعلم أن مما تشين دول الملوك ، وتسلك

---

(١) أخبار القراطمة قد فصلها ابن أبي عذيبة في تاريخه ج ٣ ص ١١٥ و ص ١٦٩ .

(٢) الامام أبو الفضل الغزنوي البغدادي كان من أكابر المحدثين والقراء والفقهاء المدرسين، ولد ببغداد سنة ٥٢٢ هـ . وتوفي سنة ٥٩٩ هـ . وتاريخه درس بالقاهرة - جاءت ترجمه في الجواهر المضية ج ٢ ص ١٤٧

بهم الطريق غير المسلوك ، المصاحبة المشوبة بالمساخر ، وهي التي ترد الأول في التقديم كالآخر ، وتميت القلوب ، وتهين الملك في العيون لكل مصحوب .

وهل تكون الهيبة قائمة المنار ، مع مسخرة يوجب الضحك بقبيح العار؟ ولا سيما ان ضم الى ذلك شيء من المحرمات ، من كشف عورة أو نطق فحش بكلمات ، أو اعتماد على ما منعه الله ـ تعالى ـ في الآيات ، فذلك عنوان الفساد بل عينه ، وربما منع الله به من الخير ما قد غلق رهنه ودينه .

أصلح الله سلاطين المسلمين ، وجعلهم أبداً بالهيبة موصوفين ، وباقامة شعائر الاسلام معروفين .

قال الغزنوي : فلما رأى اللاعب الناس قد بعدوا عن المقتدر لكي ينظر الى اللاعب ، ركض اللاعب فرسه وقام على ظهره وهو يجري والمقتدر ينظر الى فعله وهو يتصرف كيف شاء بالسلاح ، فلما انكشف الناس عنه أقبل عليه فضرب الخليفة بالزوبين في صدره فأخرجه من ظهره ، فصاح الناس ، ولم ينتطح فيها عنزان ، ولا طلب دمه من عسكره اثنان . والزوبين حربة عريضة تنفذ كل شيء وهي زيّ الديلم . أنشدني سيدي أبي ـ رحمه الله تعالى :

فأمر أبا حسن فأمرك نافذ أمضى وأنفذ من حراب الديلم

ثم إن اللاعب ثم يطلب دار الخلافة نحو القاهر ، فلقيه حمل شوك في سوق الثلاثاء فعدل عنه ، وهو لا يبصر من عن يمينه وشماله ، فصادفه كلاب في دكان قصاب وهو غافل لا يبصر فعلّقه الكلاب وخرج الفرس من تحته فبقي معلقاً فيه ، فمات في الوقت ، وحطه الناس فأحرقوه بحمل الشوك .

وكان قتله يوم الأربعاء لثلاث ليال بقين من شوال سنة عشرين وثلثمائة (٩٣٢ م) (١) . وله ثمان وثلاثون سنة وشهر وسبعة عشر يوماً .

---

(١) جاءت ترجمة الخليفة المقتدر في تاريخ الخطيب ج ٧ ص ٢١٣

والعجب أن مقتل جعفر المتوكل وجعفر المقتدر جميعاً في شوال .

وكانت خلافته النكدة أربعاً وعشرين سنة وشهرين وعشرة أيام وقيل: وأحد عشر شهراً وأربعة عشر يوماً . فالصحيح أن قتله كان بالسيف في الحرب بينه وبين مؤنس الخادم الملقب بالمظفر . ذكره الثقة القاضي أبو بكر أحمد بن كامل ابن شجرة [١] إذ كان شاهد ذلك وألف فيه ونقله منه ، وذكره أيضاً محمد ابن عبد الملك الهمذاني [٢] في كتاب (عنوان السير) له.

ثم قرأته أيضاً في تاريخ الشريف أبي محمد هارون بن العباس بن المأمون [٣] ، وذكر ان البربر من أصحاب مؤنس أحاطوا بالمقتدر . وتقدم إليه رجل منهم فضربه من خلفه ضربة سقط منها إلى الأرض، فقال :ويحكم ، أنا الخليفة . فقال البربري . إياك أطلب .وأضجعه وذبحه ،وكان معه رجل من الحجاب طرح نفسه عليه ، فذبحه أيضاً .ورفع رأس المقتدر على سيف ، ثم على خشبة ، وسلب ثيابه حتى سراويله ، وبقي مكشوف العورة إلى أن مر به رجل من الأكرة فستر عورته بحشيش ثم حفر له في الموضع ودفن حتى عفا أثره .

وانحدر مؤنس من الراشدية [٤] إلى الشماسية ، فبات بها ، وأرسل الى دار الخليفة من يحفظها حتى يصل اليها،فلما وصل تحكم على الخلافة واختار .وقدم القاهر بالله ثم أراد خلعه وتقليدها للمكتفي بالله فراسل القاهر الساجية وأعدهم في الدار ،وتحيل على مؤنس حتى حصله مع جملة أصحابه الأشرار ، فأمر بقتلهم وقطع رءوسهم وإخراج الرءوس في ثلاث طساس الى الميدان ، ولم يكن لهم بدفع ما أصابهم من الله يدان .

---

(١) ترجمته في مقدمة الكتاب .

(٢) ترجمته في مقدمة الكتاب .

(٣) ترجمته في مقدمة الكتاب .

(٤) مقاطعة معروفة في شمالي بغداد ، وفيها كرود عديدة ومزارع .

وكان المقتدر سمحاً جواداً ، كان يصرف الى الحرمين ، وفي طريقهما ثلثمائة ألف دينار وخمسة عشر ألف دينار وأربعمائة وستة وعشرين ديناراً ونصف دينار .

وكان يصرف الى الثغور أربعمائة ألف دينار وأحداً وتسعين ألف دينار وأربعمائة وستة وخمسين ديناراً ،وكان يجري على القضاة في كل الممالك ستة وخمسين ألف دينار وخمسمائة واحداً وأربعين ديناراً ، وكان يجري على الفقهاء بالحضرة ثلاثة عشر ألف دينار وخمسمائة وتسعة وستين ديناراً ، وعلى من يتولى الحسبة والمظالم في جميع البلاد أربعة وثلاثين ألف دينار وأربعمائة وتسعة وثلاثين ديناراً وغير ذلك من الجرايات على أصناف الناس وطبقاتهم .

فأنفق ما كان في بيوت الأموال وولي الخلافة وببيت المال اثنان وسبعون ألف ألف دينار ، فأنفقها مع خراج الممالك .

وحكى أبو إسحاق ابراهيم بن حبيب [1] صاحب (تأريخ البصرة) في كتابه المسمى بـ (لوامع الأمور وحوادث الدهور) أن المقتدر بالله اجتبى من الأموال في أيام خلافته سبعمائة ألف ألف وخمسين ألف ألف دينار فأنفق ذلك كله .

ومات في أيامه خمسة عشر ألف أمير ومقدم ومذكور وكانت والدته تطوي عنه الأخبار من الرزايا والفجائع وتقول: إظهارها يؤلم قلبه فأدّى ذلك الى غاية الفساد ،وقتل بين شرار العبيد.

وماتت أمه بعده بسبعة أشهر وثمانية أيام في جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وثلثمائة . بعد مصادرات أنفقت عليها ، وسهام سددت اليها ، ولم يكن لامرأة من الخير ما كان لزبيدة ولها . وكانت مواظبة على صلاح الحاج وإنفاذ خزانة الطيب والأشربة الى الحرمين المعظمين ، والى طريقهما وإصلاح الحياض .

---

(١) جاء ذكره في مقدمة هذا الكتاب .

وكان يرتفع لها من ضياعها الخواص ألف ألف دينار في كل سنة تتصدق بأكثرها .

ثم صارت الخلافة الى القاهر بالله

أبي منصور محمد بن أبي العباس المعتضد، يوم الخميس من التاريخ المذكور، بعد قتل أخيه المقتدر وإخراجه من الحبس، فوجد الخزائن فارغة والكلمة مختلفة، ولا سيما بتدبير وزيرين ضعيفي الرأي قد اشتهرا بالبخل وقلة التوسط للناس بالخير وحض الخليفة على نهب المال وكثرة القتل: أبي علي محمد بن أبي العباس علي بن الحسن ابن مقلة ثم أبي جعفر محمد بن القاسم بن محمد الكرخي قرية من أرض البصرة . فخلع الخليفة يوم الأربعاء سادس جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة (٩٣٤م) ، وكحل بالنار بمسمار محمي دفعتين حتى سالتا بعد أن أقيم بين يدي الراضي ، وسلم عليه بالخلافة . فكان القاهر أول من سمل من الخلفاء . ولم يزل باقياً في دار الخلافة إلى أن أخرجه المستكفي في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة ، ورده الى داره فأقام مدة .

ثم خرج الى جامع المنصور في يوم جمعة ، وقام فعرّف الناس نفسه ، وسألهم أن يتصدقوا عليه . أراد بذلك التشنيع على المستكفي بالله ، فقام إليه أبو عبدالله ابن أبي موسى الهاشمي ، فأعطاه ألف درهم ، وردّه إلى داره بالحريم .

وتوفي في خلافة المطيع لله لثلاث خلون من جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وثلثمائة (٩٤٨ م) ، في دار ابن طاهر ، ودفن إلى جانب أبيه المعتضد بالله .

وله اثنتان وخمسون سنة وكانت خلافته سنةً وستة أشهر وثمانية أيام ، ولما قبض عليه – كما قدمنا – سلّمت الخلافة الى الراضي بالله .

ثم صارت الخلافة الى الراضي بالله

أبي العباس محمد بن المقتدر وهو الذي ضرب الدراهم الراضوية [١] . وكان بليغاً شاعراً جواداً . وهو الذي وهب لعبد الرحمن بن عيسى مائة ألف دينار ، في حكاية مشهورة .

كان اعتقله بسببها ، فوهبها له ، وأطلقه إلى منزله ، وعفا عن أخيه العباس ابن المقتدر . وقد كان بلغه أنه قد أزمع على نسكث بيعته فقبض عليه ليلة النصف من رجب سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ، وأحضر القاضي والشهود ، وقال : إني قد آثرت الدين والمروءة على ما توجبه السياسة في حق أخي ، فخذوا علية البيعة ، وأفرجوا عنه ، وأعطوه ما يحتاج اليه . الحكاية بطولها .

ومن شعره - رحمه الله :

لا تعذلي كرمي على الاسراف ... ربح المحامد متجر الأشراف

أجري كآبائي الخلائف سابقاً ... وأشيد ما قد أسست أسلافي

إني من القوم الذين أكفهم ... معتادة الاخلاف والاتلاف

والراضي آخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة . ولما أراد الخطبة نفذ إلى الفقيه أبي محمد إسماعيل بن علي ، وقال له: عزمت على أن أصلي بالناس غداً صلاة العيد ، فكيف أقول اذا بلغت الدعاء لنفسي؟ قال: تقول: رب، أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي (الآية) فقال : حسبك! وخرج ، وتبعه خادم بخمسمائة دينار وثياب ففرقها .

قال ذو النسبين - أيده الله - : انظر ما أحسن هذا القول من السائل والمسؤول!

---

(١) سيأتي ذكر الدنانير الراضوية أيضاً . ومن هذه الدراهم ما هو مذكور في كتاب (مسكوكات اسلامية قتالوغي) أو تعرفة النقود الاسلامية ، ومثلها الدنانير هناك أيضاً كما في ص ٢٤٦ وما بعدها .

ومعنى قوله ـ جلّ وعلا ـ « أوزعني أن أشكر نعمتك » أي : ألهمني . والمعنى في اللغة كفّني عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك أي : كفّني عما يباعد منها .

وهو الذي ولّى مصر محمد بن طغج الاخشيد (١) ، ولقبه الراضي بالله بالاخشيد لأنه فرغاني وكل ملك بفرغانة يسمى الأخشيد .

قال ابن زولاق (٢) : معناه ملك الملوك ككسرى في الفرس، وغير ذلك من الأسماء التي ذكرناها للملوك في كتابنا المسمى (بالعلم المشهور) . وهذا اللقب أوقعه الخليفة الراضي في موقعه لتقدم ملكه في موضعه لأنه أبو بكر محمد ابن طغج يكنى طغج أبا محمد بن جف بن بلتكين بن قوري بن خاقان صاحب سرير الذهب وهو ملك فرغانة . وتفسير طغج عبد الرحمن .

فاستولى الأمير أبو بكر محمد بن طغج على مصر والشام والحجاز . وتوفي بدمشق لثمان بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة . وكان مولده ببغداد بشارع باب الكوفة للنصف من رجب سنة ثمان وستين ومائتين . وكان جيشه يحتوي على أربعمائة ألف رجل، وله ثمانية آلاف مملوك ، يحرسه في كل ليلة ألف مملوك. ويوكل بجانب خيمته الخدم ، ثم لا يثق حتى يمضي الى خيم الفراشين فينام فيها . ذكره القاضي أبو عليّ التنوخيّ وكان بخيلاً جباناً . ذكره الفقيه المتصدر بجامع مصر الحسن بن ابراهيم بن زولاق :

وبئست الخلتان الجبن والبخل

---

(١) ان لفظة اخشيد متكونة من (آق) بمعنى أبيض أو بيضاء ، (وشيد) يراد بها الشمس ، فيكون المجموع بمعنى الشمس البيضاء . كذا قاله في (صحائف الأخبار) لمنجم باشي في تحليل أصل اللفظ وترجمة الاخشيد في ابن خلكان ج ٢ ص ٥٩ . ولي امارة مصر ، وخلفه فيها ابنه انوجور ، ثم علي ابن الاخشيد . وبعده صار ابو المسك كافور . وكان آخرهم أبو الفوارس أحمد بن علي فاستولى الفاطميون على مصر . (دول اسلامية) .

(٢) ذكرنا ترجمته في مقدمة الكتاب .

ولما مات بدمشق ثارت الفتنة ونهبت خزائن الاخشيد واصطبلاته ، فلما هدأت الفتنة بعد ثلاث وجد الملك الأخشيد قد انتفخ وقد أكل الفأر أطراف أصابع يديه ورجليه وأكل الذرّ عينيه ، فغسل بماء وطلب له كافور فلم يُوجد إلا من السوق مغشوشاً ، وطلب له بغل يحمل تابوته ، فلم يوجد له إلا جمل أعور ، فحمله عليه الخازن وسار به إلى بيت المقدس ، والذين معه من السودان يتأذّون بريحه ، فاذا نزلوا بعدوا منه إلى أن وصلوا به بيت المقدس فدفن هناك .

قال ذو النسبين - أيده الله - : فلينظر الناظر ما صار اليه هذا الملك بعين الاعتبار ، ففيه عبرة لأولي الأبصار . فبعد الملك والرجال ، وكثرة ما جمع من المال ، صار مآله إلى هذا المآل ، تستقذره نفوس السودان ، وصار طعمة للفأر والذرّ والديدان .

ذكر ابن زولاق في حكاية أنه خلف بمصر عشرين بيتَ مال عندما رحل إلى الرقة ، وذكر عن صالح بن نافع أن الاخشيد أوقفه على سبع مطامير ، في كل مطمورة ألف ألف دينار من سكة واحدة ، مطمورة من الدنانير الأحمدية والخماروية ، ومطمورة مقتدرية ، ومطمورة من سكة المكتفي ، ومطمورة راضوية ، ومطمورة من سكة المتقي ، ومطمورة أخشيدية ، ومطمورة مغربية (١) ، ومطمورة من خلط دنانير العراق . وذكر عن الوزير أبي بكر

(١) الدنانير الأحمدية نسبة الى أحمد بن طولون . والخمارويه الى خمارويه بن أحمد ابن طولون واما الباقية فمنسوبة الى الخليفة الراضي وهي الراضوية ، والاخشيدية الى الاخشيد المذكور سابقاً . وأما المغربية فانها نقود مصرية مضروبة هناك ، وقد ضرب منها ما هو مؤرخ في سنة ٢٠٤ هـ وباسم ذي اليمينين أبي الطيب طاهر بن الحسين من أمراء المأمون وأما السري المذكور في النقود فهو السري بن الحكم . وسبب تسميتها انها جاء في صفحة منها في أسفلها لفظ (المغرب) . وهذه هي التي أشار اليها صاحب النبراس باسم مغربية . وقد جاء ذكر ذلك مفصلا في كتاب المسكوكات وفي المتاحف .

محمد بن علي المادرائي أنه قال لام ولد الاخشيد ما فعل السبعة أراد بأخذها مني دفعة ؟

ـ ما أنفق منها ديناراً واحداً !

وخلف من الجواهر ما قيمته مائتا ألف دينار ، وخلف من العنبر ثمانمائة رطل ، ومن الثياب والأواني ما يكثر تعداده ، ومن الخيل والبغال والدوابّ ما يكثر إيراده ، مما ذكره الثقة ابن زولاق وغيره .

ومائة مركب للحرب بالسلاح والنفط والرجال سوى العشاريات [1] يقع عليه كل مركب بثلاثة آلاف دينار .

فيا أخا الدول والممالك ! هل أنت إلا هالك وابن هالك ؟ وصائر الى ذلك المصير؟ ومختلس من الظهير والنصير ! ثم تسأل عن الفتيل والنقير ! والجليل والحقير !؟

أنشدني سيدي الفقيه الأستاذ اللغوي النحوي المحرز لقصب السبق في كل خير ، أبو بكر محمد بن خير ، قال : أنشدني القاضي الخطيب شيخ المقرئين بالأندلس أبو الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني قال : أنشدنا في كتابه الينا سنة إحدى وخمسين وأربعمائة الحافظ المستبحر في كل العلوم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الفارسي لنفسه :

هل الدهر إلا ما عرفنا وأنكرنا فجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة تولّت كمرّ الطرف واستخلفت حزنا

---

(١) نوع سفن معروفة قديماً في مصر . وجاء ذكرها هنا في أيام الخليفة الراضي بالله في عهد أميرها الاخشيد المذكور ، كما وردت في (الافادة والاعتبار) للموفق عبداللطيف البغدادي وفي (قوانين الدواوين)لأسعد بن مماتي وفي(خطط المقريزي)وأوضح عنها محمد ياسين الحموي في (تاريخ الاسطول العربي) ص ٣٧ وغيره . وهكذا مر ذكر البوارج أيضاً في أصل هذا التأريخ .

الى تبعات في المعـاد وموقف　　نودّ لديه أننا لم نكن كذا
حصلنـا على هم وإثم وحسرة　　وفات الذي كنا نلذّ به عينا
حنين لمـا ولّى وشغـل بما أتى　　وغمّ لما يرجى فعيشك لا يهنا
كأن الذي كنا نسر بقربه　　اذا حقّقته النفس لفظ بلا معنى

وكان أصحاب الخليفة ينفردون بالأمر دونه ، ولا يقدر لضعفه أن يغيره ، فتقسمت البلاد ، وظهر الفساد ، واسترجع الروم عامة الثغور ، ووزر له كل فجور ، وهم وزراء القاهر فأفسدوا دولته ، وفرقوا كلمته .

وكتب ابن مقلة إلى بجكم التركي يطمعه في بغداد .فتقدم الراضي بقطع يده ، وقال: هذا سعى في الأرض بالفساد . وكان ينوح على يده ويقول :

قد خدمت بها ثلاثة خلفاء ، وكتبت بها القرآن دفعتين ، تقطع كما تقطع أيدي اللصوص ! . وقطع لسانه حين قرب بجكم من بغداد .

ولم يكن في زمانه من يساويه في حسن الخط ولباقة الأنامل على الأقلام وسرعتها في المكاتبات . وكان يقول :الخط تسعة وعشرون حرفاً ،فمن أراد أن يتعلم الخط فقصاراه أن يتقن في كل يوم حرفاً ، فانه يتقن الخط في تسعة وعشرين يوماً (١) .

قال ذو النسبين - أيده الله - : هذا غير صحيح لأن الحروف العربية متشابهة الصور كالباء وأخواتها والجيم وأخواتها ،وإنما جملتها تسع عشرة صورة، فاذا حذقها حذق الجميع في دون المدة التي ذكرها .

فتوفي الخليفة ببغداد ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلثمائة (٩٤١ م) ، ودفن بالرصافة في تربة عظيمة

---

(١) جاءت ترجمة ابن مقلة في مؤلفات عديدة منها ارشاد الأريب لياقوت ج٣ ص ١٥٠ وفي وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٨ وصبح الأعشى ج ٣ ص ١٥ ولا يزال خطه أصل خطوطنا الموجودة المعروفة .

أنفق فيها أموالاً كثيرة ،وله اثنتان وثلاثون سنة وأشهر ،فكانت خلافته ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وقيل : وتسعة أيام (١).

ثم صارت الخلافة الى أخيه المتقى لله

أبي إسحاق ابراهيم بن جعفر المقتدر . بويع له يوم الخميس لتسع بقين من شهر ربيع الأول سنة، تسع وعشرين وثلثمائة (٩٤١ م) . وكانت داره بحضرة دار البطيخ بأعلى الحريم الطاهري المنسوب لأبن طاهر مولى خزاعة . وهي المعروفة بالفخرية .

ولما حمل منها الى دار الخلافة ، صعد الى رواق التاج ، فصلى فيه ركعتين على الأرض ،ثم جلس على السرير وبايعه الناس . وكان عابداً يصوم كثيراً ويتصدق، ويقول : نديمي المصحف . ولم يشرب خمراً قط،ولذلك لقبّه الصولي (٢) ـ رحمه الله ـ بالمتقي لله . ومدحه بقصيدة هي محفوظة عند الناس .

ولما ولي الخلافة لم يتغير على أحد ممن كان صحبه قبلها ، حتى على جاريته التي كانت معه قبل ، ولم يغدر بأحد قط،وكان أبيّ النفس ، وفيّ العهد حسن الخَلق والخُلق إلا أن الله ـ تعالى ـ لم يوفق له أصحاباً . فأشاروا عليه بالخروج عن بغداد ، فخرج منها ومعه ألفا ألف دينار ونيف.

فأتاه الأمير محمد بن طغج الأخشيد من حلب ، وحمل اليه ثلثمائة ألف دينار، وأهدى لجميع أصحابه هدايا كثيرة ، وسأله أن يقصد معه الشام ومصر ، فأبى ، وأشار عليه بالمقام مكانه فلم يقبل ، وأنفذ من جدد على توزون التركي أمير بغداد الأيمان والعهود والمواثيق .

---

(١) وفي تأريخ الخطيب تفصيل حياته ج ٢ ص ١٤٢

(٢) ترجمته في ابن خلكان وفي معجم الأدباء وكتب كثيرة . وكان ماهراً في لعب الشطرنج وله مؤلف فيه . وكتاب الأوراق من مؤلفاته .

وانحدر الى بغداد فخرج توزون لاستقباله، وترجّل له، وقبّل الأرض بين يديه. ومن شك في غدر الترك أوقعه في الهلك.

وفي وقته ملك بنو حمدان التغلبيون سيف الدولة وناصر الدولة الجزيرة والشام، واختلفت آراء وزرائه وكثر التحاسد بينهم، ومطالبة بعضهم بعضاً فأفسدوا عليه وعليهم فغدر به توزون - قبحه الله.

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة. وفي الباب عن ابن عمر اذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء. فقيل: هذه غدرة فلان ابن فلان. وقد ذكرناه في أول هذا الكتاب (١). وإن حديث ابن عمر متفق على صحته.

فخلعه توزون، وكحله بالنار، وسملت عيناه على نهر عيسى يوم السبت لعشر ليال بقين من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة، وله ثلاثون سنة وأشهر. فكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهراً. وتوفي بعد خمس وعشرين سنة من خلعه. ودفن في داره المعروفة بدار إسحاق بن ابراهيم المصعبي، وعمره ستون سنة وأيام. وأمر المطيع لله أبا تمام الزيدي فصلى عليه وكبّر خمساً. ثم ابتاعها عزّ الدولة أبو منصور بختيار ابن أمير الأمراء معزّ الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه بثلاثين ألف دينار فنقلوه الى تربة بازائها فامتحن في الحياة وبعد الممات (٢).

ثم صارت الخلافة بعد خلعه

الى ابن عمه المستكفي (٣) بالله أبي القاسم عبد الله بن المكتفي بن المعتضد في

---

(١) راجع ص ٥

(٢) ترجمته في تاريخ الخطيب ج ٦ ص ٥١

(٣) هنا حاشية منقولة من حياة الحيوان للدميري عن ابن خلكان وابن النجار وابن الصلاح، فنكتفي بالاشاره اليها. وان ابن خلكان تعرض له في ترجمة عماد الدولة ابن بويه، وركن الدولة بن بويه.

الوقت الذي سملت فيه عينا المتقي ، فاستولت الديلم على البلاد (١) . وظهرت بين وزرائه وأصحابه الشحناء والاحقاد ، فقبض عليه وكحل ، وسملت عيناه يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة .

وذلك على يدي معز الدولة ، بل مذلّها ، ابن بويه الديلمي (٢) .

وله ثلاث وأربعون سنة وأشهر . فكانت خلافته سنة وأربعة أشهر ويومين وتوفي بعد مدة من خلعه في محبسه ، ليلة الجمعة لاربع عشرة بقين من شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين (٣) .

ثم صارت الخلافة الى ابن عمه المطيع لله

أبي القاسم الفضل بن المقتدر بالله فبويع له في يوم الخميس المذكور . وهو أول من طال عمره من خلفاء بني العباس على من تقدم . لأنه بقي في الخلافة إلى ذي القعدة سنة ثلاث وستين وثلثمائة . فكانت مدته تسعة وعشرين سنة وأربعة أشهر وأحداً وعشرين يوماً .

ولم يكن له من الخلافة سوى الاسم . والمدبّر للامور ، والحاكم على الجمهور ، أحمد بن بويه الديلمي معزّ الدولة .

وحمل الخليفة معه إلى البصرة . ولم يدخل البصرة خليفة محارب إلا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ، والمطيع لله .

---

(١) الديلم يقصد بهم آل بويه ، دخلوا بغداد في ١٢ جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ . دخلها معز الدولة بن بويه .

(٢) معز الدولة بن بويه : جاءت ترجمته في ابن خلكان ج ١ ص ٧٨ وحوادثه في الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٦٠ وما بعدها . وكذا في تاريخ ابن أبي عذيبة ج ٣ ص ٢٢٤ وهناك تفصيل .

(٣) في تاريخ الخطيب ترجمته ج ١٠ ص ١٠ ، وفي الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٤٩-١٦١ .

ثم حمله معه إلى الأهواز ، ثم الى الموصل ،وأقام لنفقة الخليفة كل يوم مائتي دينار .

وكان المطيع لله كريماً حليماً ، وصل العلويين والعباسيين في يوم واحد بنيف وثلاثين ألف دينار على قلة ذات يده .

وكان يجري على ثلاثة خلفاء ،خلعوا وسملوا ،وهم: القاهر ، والمستكفي ،والمتقي، لكل واحد منهم في كل شهر . ولم يتعرض لأحد من قرابته بسوء .

وكان يقول : ما أرى التعرض للاهل ، ولا أستجيز الاساءة إلى أحد . فقد كان لحقني من المستكفي ما أحسن الله العاقبة الي فيه ، وعاد بالقباحة وسوء العاقبة عليه .

وقال قاضي القضاة أبو محمد بن معروف (١) : دخلت على المطيع لله وهو متشك . فقلت: كيف مولانا، جعلني الله فداه ؟ فقال : لا تقل هذا ،ليست الحياة بلا إخوان طيبة .

وكان ينفذ كل سنة إلى الكعبة قناديل ذهب وفضة ، وإلى الحجرة المقدسة طيباً كثيراً ، وخداماً ، ليكونوا في خدمتها .

وذلك أنه كان يصل له من ابن الأخشيد ، صاحب مصر والاسكندرية والشام وقبرص ، في كل سنة ، مائة ألف دينار . وكتب بذلك عهداً لأنوجور ابن الاخشيد بولاية الجميع سوى الخطابة ، والحكومة ، وسوى ما للخليفة من حاصل أملاكه ، وعلى أن يحمل إلى طرسوس خمسة وعشرين ألف دينار في كل سنة ، ويفرق في المستحقين ببلاده مائتي ألف دينار ، ويجري في المواريث على الرد على ذوي الأرحام ، كما أجراه المعتضد بالله .

---

(١) أبو محمد بن معروف قاضي قضاة بغداد ، توفي في ٧ صفر سنة ٣٨١ هـ ، وترجمته في الخطيب البغدادي ج ١٠ ص ٣٦٥ .

فلم يزل على ذلك إلى أن خرجت مصر عن أيديهم ، وغلب كافور الأخشيدي (١) الخادم . وكان الأخشيد قد ابتاعه بثمانية عشر ديناراً ، فأستولى على مصر والشام الأعلى مدة اثنتين وعشرين سنة . وتوفي لعشر بقين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلمائة .

وكان كريماً متواضعاً ، سقطت المقرعة من يده وإلى جانبه الشريف أبو جعفر مسلم بن طاهر، فبادر بالنزول ، وأخذها من الأرض ودفعها اليه ، فقال :

أيها الشريف ، أعوذ بالله من بلوغ النهاية ، ماظننت أن الزمان يبلغني حتى يفعل لي هذا .

وكان يبكي ، فقلت: أنا صنيعة الأستاذ ووليّه ، فلما بلغت باب داره ودعته وانصرفت ، فاذا أنا بالبغال والجنائب بمراكبها ، وكان ثمنها يزيد على خمسة عشر ألف دينار ، فقبضت جميعها ودعوت الله له .

وفي أيامه لخمس سنين خلت من خلافته ، أعيد الحجر الأسود إلى موضعه من البيت الحرام،في ذي الحجة سنة تسع وثلاثين وثلمائة ،وكان اخذه فيما صحّ ، في أيام المقتدر . كما تقدم وقد ذكرنا ذلك كله .

وإن الحجر الأسود أقام عند القرامطة (٢) اثنتين وعشرين سنة إلا شهراً وإنه أعيد لخمس خلون من ذي الحجة . وذكرنا اشتقاق قرمط ونكتاً من أخباره المسترذلة وآثاره القبيحة المستفحلة في فضل المحرم في كتاب (العلم المشهور

(١) جاءت ترجمة كافور الاخشيدي في وفيات الأعيان ج ١ ص ٦١٤ . وهو ممدوح أبي الطيب المتنبي . ثم هجاه . استقل بالمملكة في المحرم سنة ٣٥٥ هـ . وتوفي في جمادى الأولى سنة ٣٥٦ هـ . وكان قد ولي اداره المملكة وتدبيرها بعد وفاة الاخشيد وقيام ولده أبي القاسم أنوجور في ذي الحجة سنة ٣٣٤ .وفي تأريخ ابن أبي عذيبة ج ٣ ص٣١٨ تفصيل عن الاخشيدية وكافور .

(٢) في تأريخ ابن أبي عذيبة بحث موسع عن القرامطة ج ٣ ص ١١٥ .

في فوائد الأيام والشهور) عند ذكر مكة شرّفها الله - تعالى .

وتحكمت الديلم عليه ، وسددت سهام النكائد اليه ، فضمّن القضاء لابن أبي الشوارب (١) بمائة وعشرين ألف دينار في كل سنة .

ثم فلج فخلع نفسه عن الأمر طائعاً غير مكره ، لابنه الطائع لله أبي بكر عبد الكريم بن الفضل بن المقتدر .

وتوفي بدير العاقول مع ابنه وسبكتكين التركي في محاربة عز الدولة بختيار (٢) . وكانت وفاته يوم الاثنين لثمان بقين من المحرم سنة أربع وستين وثلثمائة . وعمره ثلاث وستون سنة وحمل الى بغداد فدفن في تربة المقتدر بالله .

فصارت له الخلافة يوم الاربعاء

الثالث عشر من ذي القعدة ، سنة ثلاث وستين وثلثمائة ، وتوفي هو بعد خلعه نفسه بشهرين وأيام (٣) .

وأقام ولده الطائع خليفة

سبع عشرة سنة وتسعة أشهر وستة أيام . وفي أيامه خرج المصريون (٤) ، ولم ينفذ العساكر اليهم ، لشغله بالديلم فملكوا البلاد والشام الى زمن المستنصر من

---

(١) ابن أبي الشوارب هو أبو الحسن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي الشوارب وترجمته في تاريخ الخطيب ج ٢ ص ٢٠ ، والمنتظم ج ٦ ص ٣٨٩ . وأسرته معروفة بالعلم منها محمد بن عبد الملك جد عبد الله بن علي بن محمد المذكور في الخطيب ج ٢ ص ٣٤٤ ومنهم علي بن محمد ، ورد في المنتظم ج ٥ ص١٦٤ ومنهم الحسن بن محمد بن عبد الملك المذكور جاء في الخطيب ج ٧ ص ٤١٠ .

(٢) وترجمة عز الدولة بختيار البويهي في ابن خلكان ج ١ ص ١٢٢

(٣) جاءت ترجمته في تاريخ الخطيب ج ١٢ ص ٣٧٩ وابن الأثير ج ٨ ص ١٦١ وما بعدها الى ص ٢٢٩ .

(٤) الظاهر (الفاطميون) ، وسماهم المؤلف (بني القداح) ويعرفون بالعبيديين .

المصريين . ففي أيامه استرجعت البلاد وعاد الشام مع الحرمين المعظمين إلى الخلافة العباسية .

واستوزر الطائع لله العجم . منهم أبو الحسن علي بن محمد بن جعفر الاصبهاني ، وعيسى بن مروان النصراني ، فاستخفا بالشريعة ، ومالا إلى النجامة والقول بالطبيعة .

خلع ورمي من السرير ، جذبه بهاء الدولة الديلمي (١) ، وقد مد يده اليه ليسلم اليه قصة . وذلك في داره بموضع المدرسة النظامية .

ونهبت الديلم دار الخلافة . وكان خلعه في سنة إحدى وثمانين وثلثمائة ، لاحدى عشرة ليلة بقيت من شعبان . وأقام معتقلاً فقيراً ذليلاً إلى أن توفي ليلة عيد الفطر ، سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة . وصلى عليه القادر بالله وكبر خمساً وتحدث الناس في تكبيره الخمس ، فقال : هكذا يصلى على الخلفاء .

وقد ذكرنا في أول هذا الكتاب أن الامام عبد الله بن عباس صلى عليه الامام محمد بن الحنفية ، وكبر أربعاً . وهو مذهب جميع أهل السنة ، وإن كان في صحيح مسلم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كبر خمساً ، وقد ذكرنا ذلك كله .

وبلغ الطائع لله من العمر سبعاً وسبعين سنة . ورثاه الشريف الرضي (٢) بقصيدة أولها :

ما مثل يومك مايسلو به السالي ومثل يومك لم يخطر على بالي

---

(١) بهاء الدولة : هو جاشاد بن عضد الدولة . ملك بعد أخيه شرف الدولة . وترجمته في تاريخ ابن أبي عذية ج ٣ ص ٣٤٦ .

(٢) الشريف الرضي معروف . وله ديوانه والمجازات النبوية ، وتاريخ رأيته في استانبول . وترجمته في ابن خلكان وفي يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٩٧ وفي روضات الجنات ص ٥٧٣ . وتوفي سنة ٤٠٦ هـ .

وسنه يوم ولّي ثمان وأربعون سنة[١] ولم يل الخلافة أكبر سناً منه، ولا ولي الخلافة من أبوه حيّ غير أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - والطائع لله وكلاهما يكنى أبا بكر. ومات بعده سبكتكين[٢] بليلة.

ولما ملك عضد الدولة بن بويه[٣] بغداد، وهزم الأتراك عنها، أصعد الطائع معهم إلى تكريت، فلم يخطب ببغداد مدة شهرين لخليفة حتى توسط قاضي القضاة ابن معروف بينه وبين عضد الدولة، ففوض اليه الطائع المملكة، وحمل اليه ابن بويه أموالاً كثيرة.

وكان الطائع لله أكرم أهل زمانه.

وصورته مع النجار قد سارت بها الركبان وتحدث بها الرجال والنسوان. وذلك أن الطائع لله كان في داره أيّل عظيم يقتل بقرنيه الدواب والبغال، ولا يتمكن أحد من مقاربته، فاجتاز الطائع لله يوماً في بعض البساتين، فرآه وقد شق راوية، فقال للخدم: أمسكوه. فسعوا وراءه حتى ألجأوه إلى مضيق، وبادر الطائع لله فأمسك قرنيه بيده، فلم يمكنه أن يخلصها من الطائع، لقوة عظيمة ركّبها الله فيه.

واستدعى أحد النجارين، فاحضر بين يديه، فقال له: ركّب المنشار عليها. ففعل، فلما بقيتا على يسير قطعها الطائع بيده وهرب الأيّل على وجهه، وسقطت

(١) حياة الطائع مذكورة في تأريخ الخطيب ج ١١ ص ٧٩.

(٢) وفي (كتاب اليميني) تفصيل حياته. وفي سيرة آل سبكتكين لأبي نصر محمد ابن عبد الجبار العبتي. وفي وفيات الاعيان تعرض لذكره في ج ٢ ص ١٢٣ عند الكلام على محمود بن سبكتكين. وفي تأريخ وفاته هنا ما يخالف ابن خلكان وابن الأثير في الكامل ج ٩ ص ٤٨

(٣) وعضد الدولة مذكور في وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٩٣ والمنتظم ج ٧ ص ١١٣ وابن الأثير ج ٩ ص ٨ وذيل تجارب الامم لأبي شجاع ص ٧٥.

فرجيّة الطائع لله عن كتفيه، ونهض الى قصره، وتطأطأ أحد الخدم ليأخذ الفرجيّة، فنظر اليه بمؤخرة عينه منكر الفعلة، فتركها موضعها، وبقيت الفرجية الى آخر النهار، ولا يجسر أحد على تحريكها من موضعها. فلما أراد النجار أن ينصرف قال له أحد الخدام: خذ الفرجية. وكانت من الوشي القديم، فباعها بمائة وسبعين ديناراً.

ثم صارت الخلافة بعد خلعه

الى الخليفة الامام الزاهد العابد، القادر بالله أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر.

وكان قد هرب من الطائع الى البطيحة. ولما وصل الى بغداد وبويع له، سلم اليه الطائع، فأكرمه وأحسن اليه، وجعل أولاده تخدمه، وقضى جميع حوائجه الى أن توفي الطائع مكرماً يوم الثلاثاء مستهلّ شوال سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة.

والقادر آخر خليفة من بني العباس، حكم وأسجل على نفسه، وأشهد الشهود، وكان يجلس في كل يوم اثنين وخميس للناس.

وكان رأى في الليلة التي وصلت إليه البشارة في صبيحتها أمير المؤمنين أبا الحسن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو منام طويل، يقول: إن هذا الأمر صائر اليك فأحسن الي ولدي. فانتبه، وذكر المنام لمن حضره، فاتت البيعة عقيبه. ومعها كتاب من الطائع لله بخلع نفسه. فصدقت رؤياه، وبلّغه الله ما تمناه.

وصحب العلماء، ورفض الدنيا، ولم ينازع فيها، ولم يدخر ديناراً ولا درهماً، ولم يردّ سائلاً، وأكرم الحديث وأهله ومنحهم عطاءه وبذله.

وظهرت العرب، وقام الاسلام، وملكت الجزيرة والشام، وبيعت مصنفات الحديث بأغلى (١) الأثمان، وملأ الدنيا بالعدل والأمان.

---

(١) وردت بأغلا الأثمان بالألف الممدودة

وكانت الديالمة (١) قد عظم أمرها وتفاقم ، وكبر قدرها وتعاظم . وذلك باسناد الباطنية اليهم ، وإفساد الاعتقادات عليهم . لانهم أدخلوهم في تلك الاعتقادات الفاسدة ، واستمالوهم بزخارفهم المائلة عن ملّة الاسلام والحائدة ، واستعملوا لهم تلك الاستدراجات التي تعطل الشرائع ، وتفتح أبواب الذرائع ، وتبعهم على ذلك المنجمون القائلون بتأثيرات الأفلاك ، والزنادقة والرافضة المعطلة من الدين كل ملاك ، وعظمت شوكتهم وكبرت ، واتسعت دائرتهم وانتشرت ، واجتمع منهم ما يزيد على الاحصاء عدداً ، وما يملأ القلوب والأسماع عدداً .

وخشي على موضع الخلافة والمسلمين، ودخول الطمع على أولياء الدين ، حتى خرج اليهم يمين الدولة السلطان أبو القاسم محمود بن سبكتكين (٢) ، فأمكنه الله من رقابهم ، واستولى على مدنهم وجبالهم وشعابهم ، وسلط السيف عليهم ومكنه ، وهدّأ الله به ذلك الأمر وسكّنه .

فصلب من الباطنية والرافضة والزنادقة والمعتزلة الأعيان ، وتحدق الى مراكز مصارعهم في بلد الريّ العيان .

وأحرقت الكتب التي بباطلهم ألفوها ، والمجموعات التي بكفرهم صنفوها ، فكان لها تحت خشب المصلبين تأجّج والتهاب ، وذلك مما أعان أولياء دينه عليه العزيز الوهاب .

---

(١) جاء ذكر الديلم والبويهيين في كتاب ابن حسول المسمى (تفضيل الأتراك) مفصلا . وكذا توسع ببسط زائد ابن أبي عذيبة في تأريخه (تأريخ دول الأعيان ، شرح قصيدة نظم الجمان) ج ٣ ص ٢٢٤ .

(٢) جاءت ترجمته في ابن خلكان ج ٢ ص ١٢٣ وفي تأريخ العتبي المتوفى سنة ٤٢٧ . وقد طبع هذا التأريخ في دهلي وعندي نسخة مخطوطة منه ، شرحه الفتح الوهبي في مجلدين وهو من تأليف أحمد المنيني المتوفى سنة ١١٧٢ هـ وبهامشه الأصل طبع في مصر سنة ١٢٨٦ هـ . والمؤلف هنا ينقل أخباره من التأريخ الكبير لهلال بن المحسن الصابىء .

وإنما جرى الأمر في إحراق الكتب المفسدة للدين، على ما كان جرى عليه في زمان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

فقد أحرقوا بالاسكندرية، عندما فتحوا الديار المصرية، جملة زائدة على العدد والحصر، فبقيت تحرق في الأفران برهة من الدهر، وذلك ستة أشهر تجدد في كل شهر (١).

وفي أيامه فتحت السند والهند وصح وعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالفتح لأمته من قبل ومن بعد. فخرج يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين (٢) بأمر الخليفة أمير المؤمنين من غزنة يوم السبت الثالث عشر من جمادى الأولى سنة تسع وأربعمائة، لقتال الهنود، بقلب منشرح لطلب السعادة، مشتاق الى درك الشهادة، ففتح مدناً كثيرة، وقلاعاً شهيرة، هي أمنع من الأبلق الفرد، وسلك اليها غياضاً لا يسكنها سوى الكركدنّ والقرد.

ومن جملتها مدينة مهورة التي تزعم الهنود أن الجن كانت رفعت قواعد بنيانها، وبنت بيوت أصنامها وأوثانها، وكانت تشتمل على زهاء ألف قصر من القصور الشاهقات، ذوات الأسوار المرتفعة المانعات، المبنية بارصاص المذاب بين ضبات الحديد التي تبقى على الدهر وبرد بقائها في وصف جديد.

وكان فيها ألف بيت للاصنام ذوات الصور العجيبة، والأفعال الغريبة، المصوغة من الفضة والذهب، والمصنوعة من كرائم الخشب، مما يخرج عما

(١) ان ابن دحية - كما يظهر - نقل عن صاحب الافادة والاعتبار ولم يذكر له مرجعاً آخر. والباقون نقلوا عن عبد اللطيف البغدادي مثل ابن العبري وابن القفطي. والظاهر أن الأصل للموفق عبد اللطيف البغدادي والباقون نقلوا عنه. والايضاح في المجمع العلمي ج ٤ ص ٤٦٤ وفي خزانة الاسكندرية لمحمد منصور كتبه باللغة التركية وكتب أخرى.

(٢) حوادثه مفصلة في تأريخ العتبي وفي الكامل لابن الأثير كما في ج ٩ ص ٤٩ وما بعدها وورد ذكره في صحائف عديدة.

يدخل في الرسم ، وأصبح كسر جميعها عبرة لذوي الفهم . وما امتنع منها على المعاول أو قد عليه النيران ، وهدم منه الأركان ، وصيره في الذاهبين في خبر كان ، بعد قتل أتى على ملوكهم وعظمائهم ، وقهر سكّن ثائرة دهمائهم .

وعاد الى غزنة راجعاً ومعه من الغنائم والأموال مالا يحصى ، ومن اليواقيت والجواهر أعداد الحصى .

وكان قد حاصر بُندا ملك الهند في قلعته المسماة بكالنجر، وتدعي لها الهنود الشأن الأكبر ، وأن بانيها أول من ركب الفيل وذلّله واستعمله ، وتولّى تسخيره وقهره لمن يعمل من سائر الملوك بعد عمله ، وليس في الأرض لها نظير في سعة الرقعة ، وعظم الرفعة ، وخصب البقعة .

وما الظن بقلعة تسع خمسمائة ألف انسان وخمسمائة فيل وعشرين ألف دابة مع ما يلحق ذلك من الأقوات والعُدد ، وكثرة العدد ، والمياه المطردة العيون والأنهار ، الجاعلة الليل بصفائها كالنهار .

فدعت الحال إلى مهادنة الملك بعد قهره ، ودخول عظماء دولته في يد سلطان المسلمين وقسره ، وكان من رسوم المهادنات في الاستيثاق ، والأخذ في الموادعات بالميثاق ، أن يقطع المقهور رأس إصبعه ، فيكون مع القاهر فخراً له في موضعه .

ولهذا كان معه من رءوس أصابع الملوك الذين أبقى عليهم شيء كثير .

وكانت المهادنة على أداء الخراج في كل سنة ، ومعاونة الغزاة إذا ألمّوا بناحية ذلك الملك على غيره من ملوك الهند ، فدفع المال الجزيل ، وسلم خمسمائة فيل ، منها خمسة وأربعون يعدل الواحد منها بمائة والباقي كلها منتخب مختار ، إذ لا يقتنى بتلك البقعة إلا الخيار ، وقوبل بخلع سنيّة ، وترك على ولاية بلاده الشرية ، وأضيف اليه من البلاد التي تليه ولايات ، وقامت بها من جهة سلطان المسلمين ممالك ورايات .

ولما علم (كابكي) أحد ملوك تلك الأصقاع ، وصاحب ألف فيل معروف بالنجدة في تلك البقاع ، أنه قد فعل ببندا ما فعل من المحاربة والمخاشنة ، ثم عومل بعد ذلك بما عومل من المهادنة ، وأوثر بالموادعة بعد القدرة عليه والمحاسنة ، بعث مهادناً ومهادياً وكانت منه هدايا كثيرة وفيلة خطيرة .

وكان فيما أنفذه من الفيلة ذات جنين مثقل ، وذات رضيع معمل ، ومن الطرف الغريبة طائر على هيئة القمري جلبابه أدكن ، وعينه ومنقاره أحمران ، وجناحاه مخططان ، بخطوط سود كأنما يرفل في حبره ، أو ينظر من شرره ، ومن خاصيته العجيبة أنه إذا أحضر على رأس الخوان ، وحمل بمرآه ما يحمل من الألوان وكان في واحد منها سم دمعت عيناه ، وجرى منهما ماء تراه ، وحجر عجيب [1] يحك فيطلى بما يخرج منه على الجراحات الصادعة ، ذات الأفواه الواسعة ، الصعبة الاندمال ، المشكلة الأحوال ، فيلحمها ويدملها ، ويبرئها ويكملها ، وان كان في البدن نصل يعسر علاجه ،قوبل به فيجذبه اليه حتى يمكن اخراجه .

فقبل السلطان محمود هديته ، وأجاب في الموادعة طلبته ، وعاد المسلمون بهذا الفتح العميم ،والفضل الجسيم، كما قال الله - تعالى- في كتابه الكريم : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم » .

ثم خرج صبيحة يوم الأربعاء لثماني ليال بقين من شعبان سنة ست عشرة وأربعمائة في جمع يضاهي النجوم عدداً . ويشاكلها في الامتناع عدداً ، لهدم

---

(١) في ابن الأثير أن الدمع تحجر فاذا حك وجعل على الجراحات الواسعة ألحمها (ج ٩ ص ١٢٤) ومثله في ابن خلكان ج ٢ ص ١٢٦ .

(سومناتي)[1] وهو الصنم الذي يقضي هدمه للكفر بالممات لأنه كان عندهم أعظم الأصنام والأوثان.

وهو عندهم يحيي ويميت، ويوجد ويفيت، ويبدىء ويعيد، ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وانه إذا شاء أبرأ من العلل، حتى البرص والعمى والصمم والشلل.

وزعموا أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت لديه فانشأها فيمن شاء قبل الولادة، وهذا على مذهبهم في التناسخ القاضي عليهم بالجهالة والبلادة.

وزعموا أن ظهور مد البحر المتصل بقلعته وجزره، عبادة من البحر للصنم على قدر طاقته وقدره. وكانوا يحجون اليه من كل مكان سحيق، وفج عميق، ويتحفونه بالأموال، ويمدونه بالسدنة والرجال، ويقرّبون له القرابين، ويقيمون عبادته على القوانين، ويصفونه بعظيم الأوصاف، ويقفون عليه وعلى سدنته الأرزاق في الأوقاف، حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية مشهورة في بقاعهم، معروفة الخصب والخير في أصقاعهم.

وكان كل ملك من ملوكهم يقيم عنه نائباً في ملازمة عبادته، والقيام بخدمته ريثما يصل بنفسه ليقيم فرض حجته، وكانت الهند تعارض به وببيته، كعبة الله وشريف بيته.

فكان سعيهم في طاعته غروراً، واعتقادهم في استطاعته كان هباءً منثوراً.

فلما وصل الى القلعة التي كان هذا الصنم فيها بعد قطع غياض تقطع ظهور

---

(١) في ابن الأثير ورد بلفظ (سومنات) كما في ج ٩ ص ١٢٧ . وهناك تفصيل . وجاء في وفيات الأعيان أنه (سومنان) ذكره في ترجمة محمود بن سبكتكين ج ٢ ص ١٢٥ وفي هذا البحث وفي أواخره ورد بلفظ (سومناة) . وفي كتاب البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة جاء بتاء طويلة . ولعله الصواب وما في ابن خلكان يظهر ان أصله (سومناة) بالتاء المدورة .

سالكيها لا تجد الحية فيها مدّباً ولا الريح بين مضائقها مهباً ، ومقاساة أهوال يشيب لها الوليد ، ويعيا بها الجليد ، وخوض بحار لم تجر عادة بخوض مثلها ، وسلوك قفار تحير الادلة من أجلها .

فأعان الله المسلمين عليها،وجعل رقاب ملّة الكفر تحت قهر ملّة الاسلام وفي يديها وكان هذا الصنم في صدر القلعة على جانب البحر ، وكان أساس البيت الذي هو فيه مرضوماً بالقطع العظيمة من كبار الصخر ، وسمكه مرفوعاً على ست وخمسين سارية من الساج المجلوب من جزائر الزنج الى تلك الأرض . وكان سماء البيت ثلاثة عشر سقفاً مركباً بعضها على بعض حتى علا الى السماء بنيانه ، وارتفعت على الأبنية كلها أركانه ، وكان سطحه منضوداً من قراميد الساج المغشى بصفائح الرصاص المخبور ،لتأمن حوادث الأمطار على مد الدهور . وكان أعلى البيت متوجاً بأربع عشرة رمانة من الذهب تلوح على بُعد كالشموس ، ويعظم موقع لمعانها في القلوب والنفوس ، وكان مقام الصنم محفوفاً بالأصنام المصوغة من الذهب والفضة تحت سقفه المرفوع إشارة إلى إنهاء الملائكة حول عرشه الموضوع،وكان له غشاء مصوغ من العقيان ، فيه تماثيل أجناس الحيوان، وتاج مرصع باليواقيت الثمينة الرائعة الألوان .

ذكر ذلك كله هلال بن المحسن الصابىء [1] في تاريخه الكبير فدخلها

---

(١) هلال هذا حفيد أبي اسحاق الصابىء صاحب كتاب (التاجي) في الدولة البويهية، والمؤلف نسب اليه (التاريخ الكبير) وهو الصواب وفي ابن خلكان ج ٢ ص ٢٩٩ لم يذكر لهلال من المؤلفات الا كتاب (الأماثل والأعيان ومنتدى العواطف والاحسان) . وأما التاريخ الكبير فعزاه الى ابنه غرس النعمة أبي الحسن محمد بن هلال وليس بصحيح. وتوفي هلال في ١٧ من شهر رمضان سنة ٤٤٨ هـ . وهو صاحب تحفة الوزراء والتاريخ الكبير المذكور (ارشاد الأريب ج ٧ ص ٢٥٥) . وترجمة أبي اسحاق في ابن خلكان ج ١ ص ٨٧ وفي ارشاد الأريب أيضاً . وفي كتاب تفضيل الاتراك لابن حسول بحث =

السلطان محمود قهراً وقسراً ، وعم أهلها البلاء قتلاً وأسراً ، وأحاط بهم براً وبحراً ، وكانت الهنود تزعم أن هذا الصنم هو الذي شاء للاصنام الماضية حتى وقع بها الانهدام ، ولو شاء لمنعها فكانت أبداً مما لا يرام .

وكانوا لا يجوزون أن تتطرق إلى هدم هذا الصنم الأوهام ، فحين نقض بالمعاول عرشه المنضد ، وزعزع بالفؤوس أصله الممهد ، وخرّ صريعاً مهيناً ، وكان الاسلام للكفر مهيناً ، سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، فأسلم بعضهم وبعضهم تسلّلوا إلى الهرب وانسلّوا . وكان الصنم قد امتنع على الكسر لصلابته ، وكانوا يقولون : إنه طلع من الأرض بارادته . فأوقدت عليه النار حتى قطعته أفلاذاً ، وصيرته جذاذا (أي فتاتاً) [1] ، وحمل اعلاه مع غلافه المصوغ من الذهب ، ليزول أمر الشكوك في بطلانه والريب ، بأن ينصب في سائر البلاد للعيون مثالاً ، ويصبح لعلامة قطع دابر الكفر تمثالاً ، وأضرمت النار في القلعة حين خلت من سومناة وعبّادها ، وشاهد المسلمون باشتعال النار في جدرانها واشتمالها على خمسين ألف قتيل من سكانها قيامة قيامه ، وصارت بيد الحمام في سواد غراب بعد ما كانت في بياض حمامه ، وتلا حينئذ اولئك المجاهدون : « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ، أنتم لها واردون » .

بويع القادر بالله

يوم الأحد الثامن عشر من شعبان سنة احدى وثمانين وثلثمائة (٩٩١م) ، وأقام خليفة إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر . قاله الخطيب في تاريخه [2] .

= مهم في كتاب التاجي ونقده وأما غرس النعمة فله (رسوم دار الخلافة) وقد ذكرناه في تفضيل الأتراك ص ١٧ .

(١) هذا التفسير من الأصل .

(٢) تأريخ الخطيب ج ٤ ص ٣٧ وقد مر النقل للمؤلف من هذا التأريخ . وفي هذه =

وقال غيره: أقام خليفة ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر واحدى عشر يوماً. وتوفي - رحمه الله - حادي عشر ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (١٠٣١ م). وقيل: سنة ثلاث. وهو ابن ثلاث وتسعين سنة. وقيل: ابن ست وثمانين سنة وأشهر ولم يبلغ أحد من الخلفاء قبله مدة ولايته ولا طول عمره.

وكان بالضد له في زمنه الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور بن العزيز بالله نزار بن المعز معد بن المنصور اسماعيل بمصر يركب الحمار ويطوف في الأسواق ويضرب فيها الرقاب، ويتنجم ويتكهن وأمر ألا تمشي امرأة بليل ولا نهار بمصر وغلق عليهن الحمامات حتى متن، وقطع الكروم، وأنكر العلوم. وكانت أيامه متضادة الأحكام قليلة الاحكام، كثيرة السطوة والانتقام على علماء الاسلام.

قتل من العلماء والوزراء، والكتاب والفضلاء، جماعة من الأعلام. واذا جاد بمال ندم عليه، وتحيّل على قتل صاحبه حتى يرجع ماله اليه. لبس الصوف سبع سنين وامتنع من دخول الحمام وبقي ثلاث سنين يجلس في ضوء الشمع ليلاً

= المرة ينقل منه والخطيب هو أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي. ولد في جمادى الآخرة سنة ٣٩٢ هـ. وتوفي في ٧ ذي الحجة أو شوال سنة ٤٦٣ هـ. كان محدثاً كبيراً، ومؤرخاً عظيماً أعلن عن بغداد وعرف بعلمائها والواردين اليها الى أيامه، فكان مرجعاً عظيماً لمن بعده من المؤرخين، وصار مستقام كما نسجوا على منواله فذيلو عليه، واستدركوا ما فات. وان السمعاني تلب وضعه الى أنسابه، وابن الأثير انتفع من تواريخ الوفيات لكامله. وممن ذيل عليه السمعاني، والدبيثي، وابن النجار، وابن الساعي، وابن رافع السلامي، وسار آخرون سيرته لبلادهم مثل ابن العديم، وابن عساكر، وابن تغري بردي أو جعلوا الأمر عاماً لمائة سنة مثل الدرر الكامنة، والضوء اللامع، ولا يحصى عدد المتأثرين بتأريخه. فاختصره بعضهم، أو راعى الاختصار في ذيوله. وترجمته في ابن خلكان ج ١ ص ٣٧ وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥ وتواريخ عديدة. وأفرد الأستاذ يوسف العش حياته في كتابه (الخطيب البغدادي). طبع بدمشق سنة ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م.

ونهاراً ، يعبد القاهر وهو المريخ سراً وجهاراً ، فلما لم يحل من عبادته بالطائل ، ورأى عبادته من الرأي الفائل ، رجع إلى عبادة زحل فلم يجلس إلا في الظلمة . ولبس السواد ، وتسربل الحداد ، واختار ركوب الحمار ، فكان أثره من اقبح الآثار ، ولم يجد من دون الله من اولياء ولا أنصار ، ولم يراقب مافي كتاب الله العزيز من إيعاد وانذار ، وأمن من جريان الأقدار وفوادح الأخطار ، فقتله الله ـ جلّ وعلا ـ وصار إلى سواء النار ، وذلك لليلتين بقيتا من شوال سنة إحدى وأربعمائة (١٠١١ م) مع السياف والركابي والحمار ، وولايته خمس وعشرون سنة وعمره سبع وثلاثون سنة (١) .

ثم صارت الخلافة الى ابنه القائم

أبي جعفر عبد الله بن أحمد القادر بويع بالخلافة يوم الاثنين الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين (١٠٣١ م) . وقد تقدم الخلاف في موت أبيه . وكان وليّ عهد أبيه من بعده . وهو لقّبه بالقائم بأمر الله وخطب له بذلك في حياته .

وكان مولده يوم الجمعة الثامن والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وتسعين وثلثمائة .

فأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وأحسن إلى الرعية ، وعدل فيهم وجلس للناس بنفسه وجعل المحدثين والعلماء يرفعون اليه قصص الناس . فصلحت الحال ،

---

(١) جاءت ترجمة الحاكم بأمر الله في ابن خلكان ج ٢ ص ١٨٥ . قال : ان جماعة من المغالين في حبه . . . يظنون حياته ، وانه لا بد أن يظهر . وأقول : لهم رسائل يتداولونها ، عندي مقدار وافر منها . وفي فينة من بلاد النمسة في خزانة كتبها مجموعة كبيرة منها . وكذا في الظاهرية ، وفي دار الكتب المصرية وفي خزانة الاستاذ الأب انستاس ماري الكرملي ، وأفرد الاستاذ عبد الله عنان أيامه في كتاب سماه (الحاكم بأمر الله) .

وقطعت خطبة المصريين بحرّان وأقيمت للقائم بأمر الله .

وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة أسلم من كفار الترك ثلاثون ألف خركاة[١] وضحوا بثلاثين ألف رأس من الغنم .

وفي أيامه اقتتل الشيعة وأهل السنة حتى أراد بعض من لا يتقي الله ـ عز وجل ـ ولا يراقب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبش قبر الامامين : موسى الكاظم ومحمد الجواد ، بعد إحراق القبة بالنار ، وعزم على نقل رمتها الى قبر أحمد بن حنبل الى أن صرفه الله عن ذلك بما نزل من غلاء السعر ببغداد لأنه بلغ كر الحنطة مائة وتسعين ديناراً .

وكان الخليفة قد قلد الأمور إلى أرسلان البساسيري وقدمه على جميع الاتراك ، فانتشر ذكره وطار اسمه ، وتهيبته أمراء العرب والعجم ، ودعي له على منابر العراق والأهواز من بلاد خوزستان ، وخرّب الضياع وجبى الأموال ، فكان جزاء الخليفة منه أنه عزم على نهب داره ، وهتك أستاره ، والعرب تقول : سمّن كلبك يأكلك » .

فكتب الخليفة الى السلطان أبي طالب محمد طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق التركماني[٢] . وهو أول من دخل من السلجوقية بغداد وليس له عقب فوصل الى بغداد في رمضان سنة سبع وأربعين وأربعمائة (١٠٥٥ م)[٣] ، وحرقت دار البساسيري .

---

(١) خركاة الخيمة والبيت وهنا يقصد منه أسرة من الأعيان ، أو أسرة مطلقاً . واللفظ معرب من الفارسية . وتركيته (اوطاق) أو (اوتاغ) كما في معجم شمس الدين سامي .

(٢) ترجمة طغرل بك في ابن خلكان ج ٢ ص ٦٣ وفي كتاب تفضيل الأتراك على سائر الاجناد لابن حسول . وهذا الأخير من اقدم الوثائق التأريخية في حياة طغرل بك . طبع في استانبول سنة ١٩٤٠ م مع ترجمته الى التركية بقلم الأستاذ محمد شرف الدين رئيس الشؤون الدينية في الجمهورية التركية .

(٣) كان دخول السلطان طغرل بك بغداد في ٢٥ شهر رمضان من السنة المذكورة . ابن الأثير في تأريخه ج ٩ ص ٢٢٨ .

وهرب البساسيري الى الرحبة ومعه خلق كثير من الأتراك والبغداديين، وكاتب صاحب مصر وذكر أنه في طاعته وعلى إقامة الدعوة له بالعراق فأمده بالأموال وولاه الرحبة إلى أن خالف على السلطان طغرل بك أخوه إبراهيم مخاطبة البساسيري له بالعصيان لأخيه وأطمعه بالانفراد بالملك. فسار السلطان في أثر أخيه وفارق بغداد. فاضطرب أمرها الى أن دخل البساسيري بغداد ثامن ذي الحجة ومعه الرايات المصرية وضرب مضاربه على شاطىء دجلة ومعه العسكر العظيم.

واجتمع أهل الكرخ وعامة الجانب الغربي على معاضدته، واطمعهم في نهب دار الخليفة، والناس إذ ذاك في ضر شديد، قد توالت عليهم سنون مجدبة، والأقوات متعذرة والأسعار غالية، وجرى القتال بين الفريقين وفي السفن بدجلة.

فلما كان يوم الجمعة الثالث عشر من ذي القعدة دعي لصاحب مصر في الخطبة في جامع المنصور وزيد في الأذان « حيّ على خير العمل » وشرع البساسيري في إصلاح الجسر فعقده بباب الطاق وعبر مع عسكره وأنزله بالزاهر فحضرت الجمعة فدعي لصاحب مصر في جامع الرصافة كما دعي له بجامع المنصور.

فخندق الخليفة خلف داره وأصلح ما وهى من السور المحيط بها، فلما كان يوم الأحد لليلتين بقيتا من ذي الحجة حشر البساسيري أهل الجانب الغربي عموماً وأهل الكرخ خصوصاً ونهض بهم إلى حرب الخليفة.

وخرج اليه العسكر وكان سبعة آلاف مقاتل، منهم ثمانمائة فارس ومعهم من العامة مالا يحصى. فاستجرّهم البساسيري الى الصحراء، وأظهر الانهزام وتبعه الناس وهو منهزم، ثم عطف عليهم فقتل أكثرهم وتقدم إلى دار الخليفة بعد أن أضرم النار في الأسواق بنهر معلّى.

ووجه الخليفة إلى قريش بن بدران العقيلي (منسوب إلى عقيل بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان) الذي أقبل مع البساسيري فبذل له ذمامه .

فخرج الخليفة من الدار راكباً وبين يديه راية سوداء وعليه قباء أسود وسيف ومنطقة وعلى رأسه عمامة تحتها قلنسوة والأتراك في أعراضه وبين يديه وضرب قريش للخليفة خيمة ازاء بيته بالجانب الشرقي فدخلها وأحدق بها خدمه ونهبت دار الخليفة وأخذ منها مالا يحصى كثرة، وبعث منها الى مصر إلى القاهرة المعزية منديله الذي عممه بيده قد جعل في قالب رخام لكي لا ينحل مع ردائه والشباك الذي كان يتوكأ عليه . وهو الآن بدار الوزارة بالقاهرة .

وأما العمامة والرداء فبعثها للخليفة الامام المستضيء بأمر الله ، أمير المؤمنين السلطان الناصر لدين الله ، المجاهد في سبيل الله، صلاح الدنيا والدين (١)، ذخرها الله له في علـيين، مع الكتاب الذي كتبه على نفسه وأشهد عليه العدول فيه أنه لا حق لهم في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء .

وقيد الوزير أبو القاسم أبن المسلمة رئيس الرؤساء (٢) وقاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني (٣) وانقطعت دولة بني العباس من بغداد .

وأخرج الخليفة وحمل الى الأنبار ، وحبس بالحديثة عند صاحبها أبي الحارث

---

(١) ترجمته في ابن خلكان ج ٢ ص ٥٥٩ وفي ابن شداد ، وفي العماد الاصبهاني ، وفي الروضتين ، وفي وكتب عديدة .

(٢) هو أبو القاسم علي بن الحسين بن المسلمة .

(٣) ان الدامغاني ذكره البنداري ص ٧٥ وابن الأثير في ج ١٠ ص ٥٤ وفي المنتظم لابن الجوزي ج ٩ ص ٢٢ وهناك تفصيل حياته . وتوفي في ٢٤ من شهر رجب سنة ٤٧٨ هـ .

مهارش بن مجلّى العقيلي فتولى خدمة الخليفة بنفسه ، وكان أحد وجوه بني عقيل (١)..

وأمر البساسيري برئيس الرؤساء فأركبه على جمل وفي رجايه قيد وعليه جبة صوف وعلى رأسه طرطور لبد أحمر وشهر في البلد وناله من العامة مهانة عظيمة .

ثم أعيد الى باب خراسان وترك في جلد ثور سلخ في وقته، وعلّق في فكّه كلابان من حديد وعلق على خشبة حيّاً .ولبث الى آخر نهاره يضطرب . ومات وبقي شلوه منصوباً عدة أشهر اختلف علينا في تحقيقها .

ثم أمر البساسيري بالقاء جثته إلى دجلة وقال : إن تركته أخذه اهله وبنوا عليه مشهداً وزاره الناس . وصلب جماعة ، وأطلق القاضي على مال بذله له .

وانحدر إلى البصرة ففتحها .

وسار الخليفة معه مهارش المذكور ، لما وصل السلطان طغرل بك إلى بغداد وخالفه الخليفة الطريق ، فعاد إلى النهروان فنفّذ طغرل بك إلى الخليفة المهد والسرادق مع عميد الملك أبي نصر (٢).

وخرج السلطان بنفسه إلى النهروان . ودخل إلى الخليفة بها، وقبّل الأرض بين يديه سبع مرات ، وهناه بالسلامة ، واعتذر اليه من تأخره بعصيان أخيه إبراهيم ، وانه قتله لأنه كان السبب في تأخره ، وشكره الخليفة على أقواله ووصل الخليفة داره يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذي القعدة (٣) . فأقام في وجهته

(١) في ابن خلكان بعض الايضاح عنه في ج ١ ص ٨٦ .

(٢) هو محمد الكندري وترجمه في دولة آل سلجوق ص ٩ و ٢٨ وفي راحة الصدور ص ٩٨ ، وفي فوات الوفيات ج ٢ ص ٤٨٨ ـ ٤٩٢ ، وفي ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٣ وتفضيل الاتراك على سائر الأجناد ص ٤٥ ، وفي تاريخ ابن أبي عذيبة ج ٤ ص ٦٢ .

(٣) وكان ذلك في سنة ٤٥١ هـ — ١٠٥٩ م .

الكريهة مدة من تسعة أشهر فيما صح ، والسلطان آخذ بلجام بغلته يمشي بين يديه الى باب حجرته .

ثم نفذ السلطان طغرل بك بربيبه ابن خوارزم شاه ، وهو أنو شروان ، في جيش ومعهم سرايا بن منيع من خفاجة فنهبوا الكوفة ، وهجموا على البساسيري وأصاب فرسه سهم ووقع في وجهه ضربة فحزوا رأسه وحمل إلى بغداد فصلب قبالة باب النوبي ، وكانت العاقبة للمتقين ، والحمد لله رب العالمين (١) .

وتزوج أبو طالب طغرل بك بابنة الخليفه القائم بأمر الله ، ونقلها الى مدينة الري ولم يسبق أحد من الملوك قبله الى ذلك ، وكان مَلَك العراقين وخراسان والجبال ثلاثين سنة وبه زالت دولة بني بويه من بغداد . (٢)

وكان الملك طغرل بك هذا أشد الناس احتمالاً وأكتمهم سراً ، وكان يحافظ على الصلوات ويصوم يوم الاثنين والخميس ولا يلبس الحرير ، ومات بالري في ثامن شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة وله سبعون سنة .

وكان رأى في المنام كأن قائلاً يقول له : أنت بمكة وأنت بقرب الباري - عز وجل - فسل حاجتك . قال : فقلت : أسأل طول العمر . فقيل : سبعون سنة. فلما استكملها مات رحمه الله .

وخطب لبني عبيد ببغداد أربعين جمعة ، وذلك للمستنصر (٣) ، بل للبطال المستهتر ، أنشده العقيلي صبيحة يوم عرفة :

---

(١) ترجمة البساسيري في ابن خلكان ج ١ ص ٨٦ وفيه ما يخالف ابن دحية .

(٢) وآخر ملوكها الملك الرحيم . حمل الى قلعة سيروان بعد أن قبض عليه . فحبس هناك ومات .

(٣) بويع وله سبع سنين وأشهر . اسمه معد ، يكنى أبا تميم بن الظاهر لاعزاز دين الله أبي الحسن علي بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور بن نزار العزيز بالله بن معد المعز ابن اسماعيل المنصور . (هامش الأصل) .

قم فانحر الراح يوم النحر بالمـاء ولا تضحّ ضحى إلا بصهبـاء

وادرك حجيج الندامى قبل نفرهم الى منى قصفهم مع كل هيفاء

وصل ألف القطع للضرورة وهو جائز .

فخرج في ساعته بروايا الخمر تزجى بنغمات حداة الملاهي وتساق، حتى أناخ بعين شمس في كبكبة من الفساق ، فأقام بها سوق الفسوق على ساق وشتان بين من يعمل بطاعة الله ، ويقصد حج بيته من أقصى الآفاق ، وبين من يستحل الخمر ويشربها بكؤوس دهاق ، ويؤمن بالهية محمد بن إسماعيل ويكفر بالخلاق ، وفي ذلك العام أخذه الله وأهل مصر بالسنين حتى بيع القرص في أيامه بالثمن الثمين ، وعاد ماء النيل بعد غدويته كالغسلين [1] ، ولم يبق بشاطئيه أحد بعد أن كانا محفوفين بحور عين ، وخربت قطائع الأمير ابن طولون وهلك جميع من كان بها من الساكنين ، وكانت نيّفاً على مائة ألف دار نزهة للناظرين ، محدقة بالجنات والبساتين ، ودام هذا البلاء الجارف مدة خمس سنين ، وجالت في ذخائره أيدي الملحية المفسدين ، فأصبح بعد ما كان مستنصراً بالله مستنصراً ببدر مملوك جمال الدين ، وكان له شرّ مؤازر وقرين ، وجعله محجوراً عليه حتى في لحيته بعد ما بلغ عقدة السبعين ، واستولى على ملكه استيلاء القاهرين ، وأزاله الله عن مستقر العزّ والتمكين ، وذلك جزاء الظالمين .

ولما رجع الخليفة الى داره لم يتجرد في فراش من ثيابه ولم ينم على غير مصلاه الذي يصلي فيه ، وكان يكثر الصيام ، وسببه أنه سمع الخطيب يوم الجمعة يقول: اللهم أصلح عبدك وخليفتك الامام الصوّام القوّام ، فقال مجيباً له : والله لا كذّبتك فكان يصوم النهار ويقوم الليل ولا يمسك من المال سوى قوته

---

(١) كل جرح غسلته فخرج منه شيء هو غسلين ، فعلين من الغسل من الجراح والدبر وقال ابن عباس : غسلين صديد أهل النار .

خاصة وقوت عياله . وكان قد اعتزلهن وترك أكل اللحم لئلا يحرّك عليه شهوة تدعوه اليهن ، ويفرق الأموال في جميع الناس وخصوصاً أهل العفاف والستر ، وعفا عن كل من آذاه بيد أو لسان ،وأفرد بيتاً للعبادة وتوفي ، على خير حالاته ليلة الخميس الثالث عشر من شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة (١٠٧٥م) . (١)

وقد استوطن أمير المسلمين، وناصر الدين، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين، الصنهاجيّ اللمتوني مراكش (٢) لأنه عمرها سنة خمس وستين وأربعمائة وكانت مزرعة لأهل نفيس فاشتراها منهم خاله الذي خرج به من الصحراء .

فكانت مدة خلافته أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر .

وفي أيامه غرقت بغــداد ، وخرج الماء على الخليفة من تحت سريره ، فنهض الى الباب فلم يجد طريقاً ، فحمله خادم على ظهره الى التاج ولبس الخليفة بردة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخذ القضيب المكرم بيده ، ووقف بين يدي الله ـ تعالى ـ يصلي ويضرع ، ولم يطعم يومه وليلته ففرّج الله عنهم ببركة نبيهم وشفيعهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصادق المصدوق ، صاحب البردة والقضيب الممشوق .

---

(١) ترجمته في تاريخ الخطيب ج ٩ ص ٣٩٩ وكانت وفاة الخطيب قبله ، فلم يذكر خبر موته . وجاء في أصل هذا الكتاب ذكر تاريخ وفاته ، وفي ابن الأثير ج ١٠ ص ٣٥ وهناك تفصيل حياته .

(٢) دولة الملثمين أو دولة المرابطين كان من أعظم رجالها ابن تاشفين . ذكرها ابن الأثير ج ٩ ص ٢٣١ ، وصاحب دول اسلامية ص ٤٧ وابن خلكان ج ٢ ص ٥٤٣ ، ونقل الأخير أخباره من كتاب المغرب عن سيرة ملوك المغرب ولم يستطع أن يعين مؤلفه، ولا يبعد أن يكون ليسع ابن حزم المذكور في كشف الظنون المتوفى سنة ٥٧٥ ه وان التاريخ المذكور في ابن خلكان يصرف الى وقت الاستنساخ .

ثم صارت الخلافة الى ابنه المقتدي بأمر الله

أبي القاسم عبد الله بن ذخيرة الدين أبي القاسم محمد بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله، فلم يكن له من الأمر إلا الاسم لا يتعدى حكمه بابه ولا يتجاوز جنابه، وكان في صورة الأمر وهو مأمور، وفي حلية المستولي على الأمر وهو مغلوب مقهور، وكانت له صرامة وشهامة ولم يكن له أعوان على ذلك تذبّ عنه، بل كانت له دعوة مجابة قد جربت منه.

وذلك أن السلطان جلال الدولة أبا الفتح ملك شاه بن عضد الدولة أبي شجاع السلجوقي وهو محمد بن ألب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، وكان يخطب له من أقصى بلاد الترك إلى بلاد اليمن، راسله وقال: لا بد أن تنزل على بغداد وتخرج إلى أي البلاد شئت. فراسله في الجواب: أمهلني عشر أيام. فلما كان في اليوم العاشر من هذه الرسالة مات جلال الدولة (١) في النصف من شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وعمره (٢) سبع وثلاثون سنة وخمسة أشهر.

ومدة مملكته (٣) تسع عشرة سنة وشهر. فسمته شمس النهار القهرمانة، فمات بعد ما تناول الطعام عشية يوم الجمعة الخامس عشر من المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة (١٠٩٤ م)، فكتمت شمس النهار أمر موته ثلاثة أيام ثم ظهر يوم الثلاثاء العاشر من محرم وفيها مات المستنصر صاحب مصر (٤)، فكانت

---

(١) تفصيل حياته في ابن الأثير ج ١٠ ص ٧٨ وابن خلكان ج ٢ ص ١٨٠ وتاريخ آل سلجوق للبنداري ص ٥٢ وما بعدها. وفي غالب التواريخ جاء أنه جلال الدين.

(٢) عمر الخليفة المقتدي بأمر الله.

(٣) يريد الخليفة.

(٤) وحياته في ابن خلكان ج ٢ ص ١٥١ وفي كتب كثيرة منها ابن الأثير ج ١٠ ص ٨٨.

خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر إلا يومين وقيل: وخمسة أشهر، وعمره ثلاث وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام.

ثم صارت الخلافة الى ابنه المستظهر بالله

أبي العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله. بويع له يوم الاثنين ثامن عشر محرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة (١٠٩٤ م) وقد كان أبوه لقبه بذخيرة الدين وذكر له على المنابر بولاية العهد وعلى السكة.

وفي أيامه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة في شعبان أخذ الفرنج بيت المقدس عنوة وقتل أهلها بالمسجد الأقصى زائداً على سبعين ألف نفس وهزم الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي بظاهر عسقلان أقبح هزيمة.

وكان الخليفة المستظهر بالله هيناً ليناً إلا أن حكمه لا يتعدى نفسه، وظله لا يفارق شمسه، مع حسن معاشرته. لا يتغير على صحبه، قد حسن الله خلْقه وخلُقه وبرّه وأدبه، فأقام خمساً وعشرين سنة وأشهراً، وقيل: أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً. مرض ثلاثة عشر يوماً وتوفي ليلة الأحد السابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة (١١١٨م)، وله إحدى وأربعون سنة وستة أشهر وسبعة أيام (١).

ثم صارت الخلافة بعده الى ابنه المسترشد بالله

أبي منصور الفضل بن أحمد. بويع له ببغداد يوم مات أبوه المستظهر قبل دفن ابيه المستظهر، فلما تمت البيعة أخرج تابوت أبيه، وصلى عليه، وكبر أربع تكبيرات ودفن في حجرته.

قال ذو النسبين - أيده الله -: وكان المسترشد بالله ذا نفس أبية وعزمة

---

(١) ترجمته في ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠١.

عربية قرشية هاشمية ، يسمح بالأموال ، ويخرج بنفسه للقتال ، ويضرب بسيفه هام الرجال ، وينظم الشعر ويجيد قرضه ، ويعلم الشعراء واجب أدب الخلافه وفرضه ، وقصته مع الحيص بيص مشهورة ، وعند الرواة مدونة مذكورة .

وهو الأستاذ الأمير اللغوي شهاب الدين أبوالفوارس بن الصيفي التميمي الملقب بحيص بيص [١] ، وكان كلقبه يعطى لبذاذة لسانه لا لأدبه ، له قدم في الهجو مشهور ، وعلم في العنجهية منشور . له في المقام الامامي المسترشدي بالله (قدس الله ضريحه ومجّد في علّيين روحه):

منعت القرى إن لم أقدها عوابساً تثير عجاج المأزق المتضايق
خوارج من ليل الغبار كأنها رجوم نجوم أو سهام مراشق
تجانف عن ورد الفلاة ظميئة فلا ورد إلا من دماء الفيالق

ويقول فيها :

دعوت تميماً والرجال بعيدة وقدضقت ذرعاً بالخطوب الطوارق
فقام بنصري من قريش ممجّد شديد مضاء البأس سهل الخلائق

وكتب بما طالع به [٢] فقال :

إنها مطايا ألا احتملت حسن أنباء ، غرّد بها حادي رجاء ، والمنزل الغنى جوداً بأمير المؤمنين بوفر دثر ، لا بكيّ ولا نزر ، لفصيح شعر عم لجّ بحر ، يرتاد غناء دهر ، فالقافية سحر ، والسامع حبر ، والندى غمر ، والرأي المقدس أعلاء ان وراء الحجاب المسدل لا يهم طود ، وخضم يمّ ، ومخرس خطب ، وقاتل جدب ، عن قهر ، وجلّ فبهر ، فصلوات الله عليه ما هبّت الريح ، ونسم الشيح ،

---

(١) ترجمته في ابن خلكان ج ١ ص ٢٨٥ .

(٢) نقل المؤلف كلام الحيص بيص من رقاع سبع كان كتبها للخليفة ذكرها ابن خلكان أيضاً ولم يتيسر الحصول عليها .

خامسة من الخدم ، في انتجاع شآبيب الكرم ، بساحة القدس الأعظم ، حلوان قافية ، تجري كناجية ، بمخترق بادية ، تهدي سفرا ، وتسهل وعرا ، وتنحو ندا غمرا ، والمجد الأشرف أعلم بنجح أملها ، وأجد ، يا أمير المؤمنين ، مائة بيت نظماً وسبع رقاع نثراً ، تذاد عن النجح ذياد العاطفات كلا فالأبوة نبوية ، والاعراق عباسية ، واليقظة لوذعيّة ، وكفى بالمجد محاسباً :

ماذا أقول إذا الرواة ترنموا بفصيح شعري في الامام العادل؟
وترنحت أعطافهم فكأنما في كل قافية سلافة بابل
واستحسن الشعراء نظم قصيدة لأجلّ ممدوح وأفضل قائل
ثم انثنوا ، غبّ النشيد وضمنه يتساءلون عن الندى والنائل
هبْ ، يا أمير المؤمنين ، بأنني قسّ البيان، فما جواب السائل؟

أصلح الله أمير المؤمنين. إن الموصل واليغارين (الايغارين) كانتا جائزتين لشاعرين طائيين [١] من إمامين مرضيين المعتصم بالله والمتوكل على الله ، والمجد الأشرف أعلم ، وخطره أجسم ، وغمامه للمعتفين أغرم ، فعلام الحرمان ؟

فأنا له خمسمائة دينار فردها . وقال :

لم امدح آراء البنوّة وأتشعر بمشاعر الأبوة ، وأكثر الايجاس ، بنتيجة العباس ، إلا بسبق الخاطر ، لادراك المظافر ، إذ كان ذلك أعجوبا ، محضاً مخطوباً ، مقصور الانعام ببايعقوبا [٢] .

---

(١) أحدهما أبو تمام وترجمته في ابن خلكان ج ١ ص ١٦٩ والثاني أبو عبادة البحتري وترجمته في ابن خلكان أيضاً ج ٢ ص ٢٥٩ ونقد ابن خلكان ولاية أبي تمام الموصل وان الحيص بيص يطلب من الخليفة المسترشد بعقوبا كما ان الموصل كانت اجازة لشاعر طائي جعلها ذريعة لحصول بعقوبا له . قال : وتابعه في الغلط ابن دحية في كتاب النبراس .
(٢) كذا وردت في الأصل . وصوابها (بعقوبا) أو (باعقوبا) وهي البلدة المعروفة والقريبة من بغداد ، مركز لواء ديالى في هذه الأيام .

فأنا له مثل النائل الأول ، فردّه ، وقال :

لم أتطاول بنفس متطاولة ،حتى عرضت على القوافي صائلة ، ولو شئت حين قلت لم أدرك أعباء الجواب ، وملاذ الخطاب ، ولكن كان الذكر مرهوناً ، والأمل معصوباً ، مقصور الانعام ببابك معقوبا .

فبرز الجواب من أمير المؤمنين المسترشد بالله :

ومضى الجواب بها وبان العنطب ... وتدأدأت أرسابها والهيدب

ونطت فائطت فاستنط مزارها ... وسرت فأدركها السهام المطنب

وتغوّرت وتميأرت واستغورت ... وقع الدكادك واستبان الأخلب

ولربما جرت الأمور ببايق ... بانت فجيعتها وبان الخلّب

فالهجن والطمع المتيه بأهله ... رزء بها نضناضها يتضبضب

رد النوال من المياقة فائد ... يا ابن الزنيم وكن بها تتأدب

أوَما سمعت مقالة فيمن أتى ... بالكبر والعجب الذي بك مردب

حيث المقالة من سميرة إذ أتى ... أسد بن مرة والركاب تكبكب

وقريضة النكاف يظهر غنّة ... في قوله وفعاله يتأنّب

لو أن خفة رأسه في رجله ... لحق الغزال ولم تفته الأرنب

قال : فلزمت بيتي وقطعت الخطاب إلى أن عطف ، عليّ من جود المقام الأشرف ، هذا الانعام الموظف .

قال ذو النسبين - أيده الله - : وإنما خاطبه الخليفة بهذه الألفاظ الحوشية ، والكلمات الغريبة في العربية ، تهكماً به في حاله ، واستخفافاً بقدره في أقواله وأفعاله ، واعتماداً على مقابلته بنقيض قصده ، وإعمالاً لما كان سلكه من يعملات رده ،فانه كان كثير الادعاء ، يكثر في حوشيه من حيص بيص ونعاء .

قال ذو النسبين - أيده الله - : قرأت في كتاب إصلاح المنطق(١) : وقع فلان في حيص بيص ، وأنشد لأمية بن أبي عائذ الهذلي :

قد كنت جراحاً ولوجاً صيرفاً ‏ لم تلتحصني حيص بيص لحاص

وقرأت في (شرح أبيات الاصلاح) لأبي محمد يوسف بن الحسن السيرافي(٢) يقال: قد التحص فلان كذا وكذا إذا نشب فيه. ولحاص فعال من اللحص مبنية على الكسر لانها صفة غالبة ، كحلاق اسم المنية ، وموضعها رفع لأنها فاعلة تلتحصني ، وحيص بيص في موضع الحال ، وهما اسمان جعلا اسماً واحداً وبنيا على الفتح ، كما تقول: هو جاري بيت بيت ، ولحاص فاعلة تلتحصني ، ولو كان موضع حيص بيص اسم معرب لتبين فيه النصب ، كأنه قال : لم تلتحصني شديدة لحاص ، والحال من لحاص.

والصيرف المتصرف في الأمور المحتال ، والولوج الذي يلج في الأمور ويتقحم فيها بجرأته . ويريد بذلك كله أنه يصف نفسه بالاحتيال والتصرف .

وقوله : نعاء ، فهو معدول عند النحويين عن فعل الأمر نحو تراك ودراك ومناع ونعاء ، قال الكميت:

نعاء جذاماً غير موت ولا قتل ‏ ولكن فراقاً للدعائم والأصل

أي: انعهم. يقال: نعيت الرجل أنعاه نعياً، على مثال فعل أشعت موته في الناس وكان الحيص بيص في بعض أحيانه يتقلد ،سيفين ويعتقل رمحين ، ويعمّ على طرطور أحمر تشبهاً، في لوثة أعرابية، بربيعة أو مضر، ويدعي أنه على طبع العرب

---

(١) لابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤ هـ وترجمته معروفة في روضات الجنات وكتب عديدة .

(٢) السيرافي من أئمة اللغة والنحو . وكتابه هذا مذكور في كشف الظنون .

العرباء ، ولم يقرأ كتاباً ولا تعلم تعلّم الأدباء . ثم يملي من نصّ الجمهرة (١) كثيراً ، وهو مناقض لما ادعاه صغيراً وكبيراً .

وخرج الخليفة الى غير موضع ورجع منصوراً . ثم خرج لقتال الأعاجم متوجهاً الى همذان لحرب السلطان مسعود ، وقد كان الخليفة قطع ذكره على المنابر ، ومع الخليفة عسكر كثيف جداً فاجتمعوا على أربع مراحل من همذان ، ووقعت الحرب بين الخليفة ومسعود في عاشر رمضان (٢) ، فعدل جماعة من الأمراء الذين كانوا مع الخليفة وصاروا الى عسكر مسعود ، فانكسر عسكر الخليفة بغير قتال ، وأحاط عسكر السلطان مسعود بعسكر الخليفة فأخذوا جميع ما فيه من خيل وبغال ، وأثاث وأموال ، وسلاح وأسروا الوزير والأعيان وأرباب الدولة ولم يقتل منهم مخلوق البتة .

وقبض على الخليفة فحمل الى سرادق مسعود ، وضرب له في دهليزه خيمة ، وأقعد فيها .

ثم إن مسعوداً سار الى أذربيجان ، والخليفة المسترشد بالله في صحبته أسير موكل به ، حتى نزلوا موضعاً قريباً من مراغة .

فلما كان يوم الخميس سادس عشر ذي القعدة (سنة ٥٢٩ هـ - ١١٣٥ م) دخل على المسترشد بالله الى الخيمة التي كان هو فيها ، جماعة من الباطنية (٣) ، قيل

---

(١) الجمهرة لابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ طبعت في الهند بفهارس عديدة .

(٢) أي من سنة ٥٢٩ هـ .

(٣) يريد بالباطنية الاسماعيلية أتباع نزار بن المستنصر الخليفة الفاطمي . والآن منهم الأغاخانية في الهند والاسماعيلية في الشام . وفي تأريخ دولة آل سلجوق ص ١٦٢ أن القتل كان في ١٨ ذي القعدة يوم الخميس وفي التقاويم يوافق ١٧ ذي القعدة . وفي التأريخ المذكور يرجح أن سنجر سير الباطنية لقتله . وفي ابن الأثير بيان حياته ج ١١ ص ١١ .

إن السلطان المسمى سنجر أرسلهم لقتله، فهجموا عليه وقتلوه، وقتلوا معه جماعة من أصحابه، منهم إمامه الذي كان يصلي به.

فأكبر الناس قتلهم للخليفة، فاجتمع الناس وركب السلطان حافياً، وقتل الباطنية كلهم، وحرقت جثثهم بالنار وحمل المسترشد بالله مقتولاً الى المراغة، وخرج أهلها، وقد كشفوا رؤوسهم حفاة الأقدام، فتلقوا جنازته وكسروا المنابر وقبره الآن بها (١).

قال ذو النسبين - أبده الله -: وقد رأيته بها. ولما وصل الخبر إلى بغداد بقتله، يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة اجتمع النساء والرجال وناحوا عليه في الطرقات، وكسروا منابر الجوامع وأكثروا الشناعات، وسبّوا السلطانين: سنجر بن ملك شاه (وكان يلقب بذي القرنين)(٢) ومسعوداً، أقبح سب من غير مراقبة. وكانت خلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وأياماً، قيل: هي عشرون يوماً. وكان له من العمر ثلاث وأربعون سنة.

ثم صارت الخلافة الى ابنه

أبي جعفر منصور الراشد بالله يوم الاثنين ثامن عشري ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة (١١٣٥ م) عند وصول الأمر العظيم والخطب الجسيم بقتل أبيه في باب مراغة.

وردّ على الناس الأملاك التي أخذت من أربابها في المصادرات فصلحت

(١) جاء تفصيل حياته في تأريخ ابن عذية ج ٤ ص ٢١٢.

(٢) توفي سنة ٥٥٢ هـ ذكره في زبدة تواريخ آل سلجوق للصدر الأمير أبي الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر الحسيني ص ١٩٥.

أحوال الناس، وابتهلوا بالدعاء للسادة بني العباس.

فجرت المقادير بخدمة أبي العلاء بن الهاروني فحسن للخليفة الخروج على السلطان مسعود، إذ كان ابن الهاروني خائفاً منه وأن يتفق الخليفة مع الملك داود.

وكان صاحب الموصل أتابك زنكي بن آقسنقر مطابقاً للملك داود، فأظهر الراشد هذا الأمر. وذلك في المحرم سنة ثلاثين، وجمع جمعاً كبيراً وقبض على السلطان مسعود.

ووصل الملك داود الى بغداد رابع صفر ومعه أتابك زنكي وخطب لداود بالسلطنة ببغداد، رابع عشر صفر وحمل ابن الهاروني الخليفة على سفك دماء أصحابه، ففر عن الخليفة خيار أوليائه وأحبائه، فتنبـه لما دهي به، فأخرج اليهودي الى الرحبة، وأمر بقتله وصلبه، وأصبح الناس فوجدوه مصلوباً فلعنوه ورجموه.

ثم إن السلطان مسعود، لما بلغه هذا الجمع، قصد بغداد ونزل بباب الشام (١) في ثامن شهر رمضان، وهو في العساكر الجمة والعدد الكثير. وأخبارهم تطول.

فخرج الخليفة الى الموصل، وعبر السلطان مسعود الى دار المملكة بالجانب الشرقي.

فاجتمع الوزير ابو القاسم علي بن طراد الزينبي، وكاتب الانشاء ابن الأنباري، وصاحب المخزن أبو الفتوح طلحة. يوم الاثنين سادس عشر ذي القعدة سنة ثلاثين، وكتبوا محضراً فيه شهادة جماعة من العدول بما جرى من الراشد بالله من الظلم، وأخذ الأموال، وسفك الدماء، وشرب الخمر.

وذكروا فسقه وعدوا أفعاله وارتكابه المحارم واستفتوا الفقهاء في من

---

(١) من أبواب مدينة المنصور، والنسبة اليه (باب شامي) كما في الأنساب للسمعاني، ومنتخب المختار في علماء بغداد وغيرهما.

فعل ذلك ، هل تصح إمامته أم لا ؟ وهل إذا ثبت فسقه بما ذكر عنه يجوز لسلطان الوقت أن يخلعه ، ويستبدل به من أهل بيته من هو خير منه طريقة ودينا ؟

فأفتى الفقهاء الذين في ذلك الوقت بخلعه ، وفسخ عهده ، وحل عقده ، والاستبدال به غيره إذا كان بهذه الصفة .

وعرضت هذه الفتوى والمحضر على السلطان مسعود . فقال : هذا أمر قد قلدتكم إياه وأنا منه بريء عند الله .

ثم قال : اختاروا رجلاً من هذا البيت يصلح لهذا الأمر . فوقع الاختيار بوساطة الزينبي أن يولي أبا عبد الله محمد بن المستظهر بالله .

فلما كان يوم الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة (١١٣٦ م) ، حضر السلطان مسعود والجماعة الذين حضروا دار الخلافة في الدار التي على دجلة ، وتعرف بالمثمنة ، وأحضر أبو عبدالله ، محمد بن المستظهر بالله ولقب بالمقتفي لأمر الله ، وعاد السلطان مسعود الى داره .

ثم فتح باب الدار القائمية ، بكرة يوم الأربعاء ثامن عشر ذي القعدة ، فبايعه الفقهاء والقضاة والشهود وأعيان الناس ، ثم خلع الراشد وكان مقيماً بالموصل .

قال ذو النسبين - أيده الله - : وهذه القضية وإن كانت واقعة على ما نقل من هذه الشهادة فلقد أثم جميع الشهود ، وشهدوا على غير مشهود .

والعجب من فقهاء ذلك العصر وفتواهم بجواز هذه الشهادة على إمام وقتهم حتى أوجبوا خلعه ونقضوا بيعته . أنسوا أن مثل هذه الشهادة فسق من الشاهد بها ؟

وبيان ذلك :

أن الشهادة مبناها على العلم . قال الله - تعالى - : « وما شهدنا إلا بما علمنا

وما كُنا للغيب حافظين ». وإذا كانت الشهادة مبنية على العلم فليت شعري من أين تصح الشهادة عليه بشرب الخمر مالم يكن منه إقرار على نفسه به ؟ فلم ينقل عنه إقرار . وإذا امتنع الاقرار لم يبق طريق الى الشهاده إلا بالاخبار .

وطريق الخبر لا تصح الشهادة من جهته على معنى أن الشاهد يشهد على قول المخبر ، فلا تجوز هذه الشهادة .

ثم المخبر يلزمه ما يلزم الشاهد في بلوغ ذلك اليه ، فان ادعى حضوره معه فحضوره فسق . والفاسق لا تقبل شهادته .

ثم المعاصي لا تثبت بالسماع والاخبار إجماعاً ، فلا تجوز الشهادة عليه بطريق الخبر .

ومن فعل ذلك فقد جرح نفسه فأبطل شهادته ، فقد بطل الطريقان طريق الاقرار وطريق الاخبار .

والذي عندي أن ذلك تعصّب يحمّ له المتقلد بإثمه الحامل لراية ظلمه ، وهو علي بن طراد الزينبي ، لعداوة من قبل ، معلومة ، والعداوة من القرابة مفهومة ، ولهذا قيل : إن كيد الأقارب من لسع العقارب .

نعم . أما المظالم فربما أمكنت الشهادة بها . فان للظلم أمارات ، وللمظلوم عليه دلالات . فأما شرب الخمر وارتكاب المحارم فلا تصح الشهادة به أصلاً على ما ذكرناه في هذه الواقعة .

ونزيد في ارتكاب المحارم إلزام الشهود بحد القذف مع إبطال شهاداتهم ، فانهم لا يشهدون بارتكابها معاينةً على شروط الشهادة على الزاني فهم قاذفون لا شاهدون ، والله يعلم ماتكنّ صدورهم وما يعلنون.

وكتب السلطان مسعود إلى أتابك زنكي بن آق سنقر في القبض على الراشد

وإرساله إلى بغداد ، فمنع من ذلك فارس الاسلام زين الدين أبو الحسن عليّ ابن بكتكين صاحب إربل [١] . وهذه مكرمة لم يسبق لها زائدة الى ما جمع من الفضل والطول إذ لم يسلم أحداً من آل الرسول - صلى الله عليه وسلم - الى القتل . وقال له: هو ضيف عندنا وفي كرامتنا وقد كان بالأمس خليفتنا ، والله ، لا سلّمناه ولو أريقت دونه الدماء ، مادامت الأرض والسماء !

فاعتذر أتابك [٢] للسلطان مسعود ، وقال: إني أخرجه من ولايتنا ، فأرسل اليه أنت عسكراً يقبض عليه في غير جهتنا ، وأعدّ له زين الدين جماعة من الأكراد ، فساروا بين يديه على طريق قريبة لا يعرفها من الناس إلا آحاد أو بعض آحاد فوصل مراغة أذربيجان .

وخرج عسكر كبير من جهة السلطان مسعود فرجعوا بصفقة أخسر من صفقة أبي غبشان .

ونزل الخليفة في تربة أبيه المسترشد بالله بعد أن تلقاه أهلها وولوه أمر بلدهم فأقام بها يسيراً .

ثم ارتحل عنها الى الريّ وظن أصحابه أنه يمشي الى السلطان سنجر ، الى خراسان ، فلما قرب من بلاد الباطنية ، جرد السيف وأمر جماعة عسكره بقتل من وجدوا من الباطنية وكانوا في غفلة عن وصوله الى ولايتهم غير عالمين بما في نيته من قتلهم ، فقتل منهم جماعة عظيمة . ولم يزل تتقلب به الاحوال ، ولا ينال من الدنيا إلا العناء والغربة والترحال .

---

(١) هو زين الدين علي كوجك . وترجمته في ابن خلكان ج ١ ص ٦٢٠ وفي أتابكة الموصل تفصيل واف عنه .

(٢) (أتا) لفظة تركية بمعنى الأب والرجل المسن ، أو المحترم ، والسيد . أما (أتا بك) فهو مربي السلطان ، أو أستاذه ، وأطلق على ذي الرتبة الكبيرة . ودول الأتابكة الامارات التابعة في الأصل للدولة السلجوقية كما في لغة جغتاي وغيرها .

فلما كان سابع عشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة (١) ، قتلته الباطنية وهو على باب أصبهان ومعه خوارزم شاه ، وكانوا في خدمة الخليفة بزيّ الخراسانية ، فهجموا عليه في خيمته بعد العصر ، وهو في أعقاب مرض فقتلوه .

وقيل: إنه كان مسموماً . ولما قتل صاح الناس فركب خوارزم شاه والعسكر فقتلوا الباطنية ودفن بشهرستان على فرسخ من أصبهان .

وقد زرت قبره وقرأت عليه سوراً من القرآن . فكانت خلافته منذ بويع الى أن خلع أحد عشر شهراً وعشرين يوماً .

ثم وصل الخبر في شوال سنة اثنتين وثلاثين الى بغداد بقتله، فقعد الناس له في العزاء ببغداد يوماً واحداً .

المقتفي لامر الله

واستقر الأمر للمقتفي لأمر الله

أبي عبدالله محمد ابن الامام المستظهر بالله . فبويع كما قدمنا، فصحب الأعيان، وعرف الزمان . وكان موفق الأصحاب ، ميمون الركاب .

وفي أيامه مات السلطان مسعود (٢) بهمذان سنة سبع وأربعين وخمسمائة .

وقتل أتابك زنكي (٣) وهو نائم ، قتله بعض خدمه .

---

(١) في ابن أبي عذيبة تفصيل زائد (ج ٤ ص ٢٦٥) .

(٢) وبموته ماتعز آل سلجوق، فلم تقم لهم بعده راية ، وانقطعوا عن العراق. وترجمته في ابن الأثير ج ١١ ص ٦٥ وفي ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٦ وزبدة التواريخ في آل سلجوق ص ١٠٦ الى ص ١٢٨ .

(٣) ترجمته في ابن خلكان ج ١ ص ٢٧١ وفي تأريخ أتابكة الموصل لابن الأثير وفيه تفصيل زائد وكذا في ابن أبي عذيبة ج ٤ ص ٣٤٠ .

وصفت له الدنيا وسعد بوزيره أبي المظفر عون الدين يحيي بن محمد بن هبيرة من ولد الأمير الكبير أبي حفص عمر بن هبيرة ، وقد ذكر المؤرخون فضائل جده الذي حازها عون الدين من بعده ،منها ما ذكره أبو الطيب محمد بن اسحاق ابن يحيي بن الأعرابي في كتاب (الفاضل) له،قال العتبي: أشرف عمر بن هبيرة من قصره ذات يوم ،فنظر الى أعرابي قد قصده ،وجمله يرقص به الآل،فقال لحاجبه إن أرادني الأعرابي فأوصله إليّ . فلما رآه الحاجب سأله عن حاله ،فقال: قصدت الأمير .فأدخله اليه ، فلما مثل بين يديه ، قال : ما خطبك ؟ فقال :

أصلحك الله قلّ ما بيدي ... فما أطيق العيال إذ كثروا
ألحّ دهر أخنى بكلكله ... فأرسلوني اليك وانتظروا

فأخذت ابن هبيرة أريحية ،فقال:أرسلوك إليّ وانتظروا ؟وكررها مرات، ثم قال :إذاً والله لا تلبث حتى ترجع اليهم غانماً، وأمر له بالفي دينار وصرفه(١) .

والآل: السراب.

وقبض الخليفة على جماعة من المتعلقين بالسلطان مسعود ، وأخذ جميع ما كان بأيديهم من الاقطاعات ، وحشد الأجناد ، وأقطعهم البلاد ، وخرج الخليفة بنفسه يقاتل من ناوأه ، ويقتل من عاداه ، وقد هزم غير واحد ، ودفع بنفسه وكذلك وزيره ابن هبيرة حمل على الأعداء عدة حملات . وكان محدثاً عالماً بالصحيح والسقيم آخذاً على يد الظالم آخذاً بيد المظلوم . وتوفي المقتفي لأمر الله ليلة السبت مستهل ربيع الأول وقيل : ليلة الأحد ثاني شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة (١١٦٠ م) ، وصلى عليه بكرة الاثنين .

---

(١) قال ابن خلكان هذه المكرمة جرت لعمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين في دولة بني أمية . وظن ابن دحية أن الوزير المذكور من ذريته . فالوزير شيباني النسب وذاك فزاري الى آخر ما قال (ج ٢ ص ٣٧٣) .

ومات بعلة التراقي ، فكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وواحداً وعشرين يوماً (١) .

ثم صارت الخلافة الى ابنه المستنجد بالله

أبي المظفر يوسف . بويع له يوم الاثنين البيعة العامة بعد الصلاة على أبيه ومواراته ، فأظهر السيرة الجميلة ، وردّ أموالاً كان ابن المرخم الحاكم قد غصبها من أموال المسلمين ، فردّها على أربابها ، وسجن قوماً ينسبون الى الظلم ، ويخاف بوائقهم ، واسقط مكوساً كانت تؤخذ في الطرق وغيرها ، وأطلق ضريبة الغنم ببغداد ، وجميع ما كان السلاطين يتناولونه على طول السنين ، وذلك باشارة وزير أبيه ووزيره أيضاً ، المحدث العالم عون الدين بن هبيرة (٢) ، الى أن توفي على أجمل أحواله ، يوم السبت بعد الظهر ثامن شهر ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة (١١٧٠ م) . (٣)

استعجل منيته بعض مماليكه ، وهو قطب الدين ، بل خارج دائرة المهتدين ، قايماز ، برأي ابن صفية النصراني المتطبب وكان قد برأ من القولنج والسحج ، فأطلعه الخليفة على سرّ في جانب قايماز مقلق مزعج . فبلّغه النصراني مرارة ذلك الكلام ، ولعن الله كل واش ونمام .

---

(١) ذكره ابن الأثير في الكامل ج ١١ ص ١٠٣ وابن أبي عذيبة بتفصيل (ج ٤ ص ٢٧٥) .

(٢) ابن هبيرة توفي في جمادى الآخرة سنة ٥٦٠ ه ابن خلكان (ج ٢ ص ٣٦٦) وله (اختلاف الفقهاء) وهو مستل من كتاب الافصاح في شرح الصحيحين .

(٣) وفي تاريخ الدولة الأتابكية تفصيل حياته أيام خلافته (ص ٢٧٥ طبعة باريس سنة ١٨٧٦ م) وكذا في الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٤٥ وفي المنتظم ج ١٠ ص ٢٣٦ وفي تاريخ ابن أبي عذيبة ج ٤ ص ٣٥٠ .

وكان الخليفة قد نحل جسمه ، ولم يبق منه إلا رسمه ، وكان النصراني يعالج بدنه بالمرطبات ، وينوّمه في موضع يهب عليه فيه الرياح من جميع الجهات .

فلما أيقن قايماز بالقتل،دبّر شربة مسمومة على يدي ابن صفية الفسل وأمره أن يسقيها للخليفة ثم يدخله الحمام، فانه يعجل له الحمام ،فحمله عدو الله قايماز اليه، وغلق عليه الأبواب ، وأذاقه العذاب ، وهو يصيح ويستغيث ، لو كان له ملبّ أو مغيث حتى هلك بحرّ النار ، وقد أحرز عند الله عقبى الدار ، ولحق بآبائه الأئمة الأطهار ، وهذا جزاء من يحكم خساس العبيد على دولته ، ويجعلهم أولي بطانته ودخلته . فكانت خلافته إحدى عشرة سنة وشهراً واحداً (١) .

ثم صارت الخلافة الى ابنه المستضيء بأمر الله

أبي محمد الحسن . بويع البيعة العامة بكرة يوم الأحد تاسع شهر ربيع الآخر ، سنة ست وستين (١١٧٠ م) فاستضاءت الدنيا ببيعته وهاجر الناس الى بغداد لعدله وحسن سيرته ،ولاحت أعلام الهدى ، وأمن الناس من الردى .

وأمر باطلاق المسجونين ، وكانو نحواً من سبعمائة رجل . وفرق أموالاً جسيمة حتى عم أكثر الناس فضله، وغمرهم جوده وطوله ، وأمر باسقاط الخراج المجدّد والضرائب والمكوس،وأمر بتفرقة الخلع والثياب النفيسة على أكثر الناس من الأشراف والفقهاء والعلماء والغرباء ، فرد الشريد ، وأغنى الفقير ، وأمّن الخائف ، وطيب الله ذكره ، وأعلى أمره .

---

(١) قال ابن خلكان في ترجمته : وهنا نكتة لطيفة وهي أن المستنجد بالله رأى في منامه في حياة والده المقتفي أن ملكاً نزل من السماء فكتب في كفه أربع خاآت فطلب معبراً فقص عليه مارآه فقال له : تلي الخلافة سنة خمس وخمسين وخمسمائة فكان كذلك . (هامش الأصل) .

وعادت في أيامه الخطبة للخلافة العباسية ببلاد مصر بعد انقطاعها مدة من مائتي سنة وخمسة عشر عاماً عند تبلّج صبح دولة بني أيوب (١) ، الموفين بفضل دولتهم ودولة فضلهم على كل مطلوب ، حسب حرّي ، ونسب درّي ، الطعن بالأسل أحلى عندهم من العسل :

مستلئمين الى الحتوف كأنما　　بين الحتوف وبينهم أرحام

وهم الذين لم يبق فضل في دولة إلا أدركوه . وكان مبدأ ذلك على يدي الملك المنصور أسد الدين شيركوه . ثم كان تمام الدعوة وكمال الكلمة على يدي السلطان الناصر لدين الله ، جامع كلمة الايمان ، قامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، أبي المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المومنين ، الذي أهلك طغاة مصر ، وأخلق إهابهم ، وأطفأ شهابهم ، وخشن أديمهم ، ونفر عنهم صاحبهم ونديمهم ، فبدّلهم من النعيم البوس ، ومن البشر القطوب والعبوس ، ومن الاعزاز بالاذلال ، ومن الاكثار بالاقلال ، فطالما ركبوا السرير ، ولبسوا الحرير ، وصبت اليهم الكعاب ، وانقصفت دونهم الكعاب ، ومنهم معزهم معدّ ، ولم تكن جنوده تعد ، ولا لما أوتيه كان حد ، من كل ما يسعد فيه جد ، وينتضى لمقتناه حد ، وقد أجمع المؤرخون على أنه لم يكن في زمنه ملك أرفه عيشاً من عيشه ، وعلى أن لم يطأ الأرض بعد جيش الاسكندر جيش أكثر عدداً من

---

(١) كانوا من أمراء أتابكة الموصل عماد الدين زنكي وأخلافه ، وبدأت علاقتهم بمصر في سنة ٥٥٩ هـ ، ونالوا الوزارة فيها . وفي يوم عاشورا سنة ٥٦٧ هـ توفي الخليفة العاضد فأعلن صلاح الدين حكومته وخطب للخلفاء العباسيين . وتوفي في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ فخلفه ابنه الأكبر الملك الأفضل ، فلم ينتظم له الأمر ولا لأولاده الآخرين فطلب الملك العادل أخو صلاح الدين الأمر لنفسه فتم له سنة ٥٩٦ هـ ، وبويع لابنه الملك الكامل بولاية العهد ، فولي بعد أبيه ، ودام الملك في الأيوبيين بمصر الى منتصف المائة السابعة للهجرة ، وفي الممالك الأخرى الى ما بعد ذلك ثم زالت دولتهم .

محمد بن الامام العالم السجاد،أبي محمد علي ، كذا كناه الزبير نسابة قريش.وذكر الهيثم بن عدي في تأريخه أنه يكنى أبا عبدالله.والهيثم متهم بالكذب عند العلماء. وعليّ هذا هو ابن بحر العلم الذي لا تكدره الدّلاء ، ولا يفنيه الاستقاء ، ولا ينتهي اليه الانتهاء ، أبي العباس عبد الله بن سيد الوادي وساقي الحجيج وحليم البطحاء ،الذي فاق الناس طولاً وطولاً ، ووسعهم عقلاً وعدلاً الذي استشفع به عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -عام الرمادة الى الملك الرحمن ، فسقوا في الحين حتى قلّصوا المآزر وخاضوا في الغدران ، أبي الفضل العباس بن شيبة الحمد الفياض ، الذي كان يرفع من مائدته لجميع من حضر في مكة من الرجال والنساء والوحوش في رؤوس الجبال ولطير السماء ، ذي المناقب الشهيرة ،والأحساب المنيرة، حافر زمزم بأمر الله الأعظم ،أبي الحارث عبد المطلب ، وفيه يجتمع مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

هذا هو النسب الذي لا يمترى فيـه وليس بجائز أن يجهلا

بويع له البيعة العامة يوم الأحد ثاني ذي العقدة المذكور . وولد يوم الخميس العاشر من رجب الفرد سنة أربع وخمسين وخمسمائة . وولي الخلافة وهو ابن احدى وعشرين سنة ،وولد له وهو ابن ست عشرة سنة ، وفقه الله لصالح الأعمال ،وسدده في الأقوال والأفعال ،بمحمد وآله خير آل .

وبويع له بولاية العهد في يوم الجمعة ثاني عشرين من شوال من سنة خمس وسبعين وخمسمائة (١١٨٠ م) وبويع بالخلافة يوم الأحد مستهل ذي القعدة من سنه خمس وسبعين المذكورة .وأخذ الأمر حقاً وقوة ، وفتح البلاد طاعةوعنوة ، وطبقت دعوته جميع الآفاق ، وطلعت شمس كلمته باهرة الاشراق ، وأوقع بوزراء السوء على الاطلاق ، وقام بما عليه من العهد والميثاق .

قال ذو النسبين - أيده الله - : وقد دخلت بغداد مراراً ، واستأذنت سدة الخلافة الناصرية جعل الله الأقدار لها أنصاراً ، في الرواية بهـا وبواسط القصب فأذن لي سراً وجهاراً ، فامتثلت الاذن وقطعت من كبار المصنّفات أسفاراً ، واستضأت من علوم السنّـة بما يعد مع الصبح إشراقاً وإسفاراً .

فحقه أول واجب يؤدى ، وأوجب حق يبدّى ، فهو الخليفـة الامام الأهدى (١) ، صنو الغمام الأسكب الأندى ، ومليك الأمة الذي جاوز ملكه المدى ، واحتاز الملوك عبدّى ، وتبدّى علمه نوراً على علم الهدى ، فعلم وهدى ، وغمر بالجدى ، وحكّم المناصل في هام العدى ، وحكم للبأس تارة وطوراً للندى :

ترتاح أندية الندى والبـاس من ذكر مولانا أبي العباس
نجل الخلائف وابن عمّ محمد خير البرية من جميع الناس

قال ذو النسبين - أيده الله - : وبعد هذا الشرف الفخم ، والملك الضخم ، لم ينجهم من الموت شرف بني هاشم ، ولا وقى عنهم كل عاد وغاشم ، ولا وقاهم أيضاً الراجل والفارس، ولا الحامي والحارس،ولا المواكب والمضارب ،والنجائب والجنائب ، ولا العساكر والدّساكر (١) والمقانب والكتائب ، لما نفذ العمر والوفر ، ودار السماك والغفر ، وهذه عادة الله -تعالى- في الأمم السوالف ، كان آخرهم الى المهالك والمتالف .

---

(١) سبحانك هذا بهتان عظيم (هامش لم يكن من خط الأصل) .

(٢) الدساكر جمع دسكرة وهو بناء كالقصر حوله بيوت . والمقانب جمع مقنب . والمقنب الجماعة يغزى بها . والكتائب جمع كتيبة وهي ما تجمع فيه ما يحتاج اليه للحرب وأصل الكتب الجمع . (هامش من املاء المصنف) .

ولما رحلت في طلب العلم الى البلدان ، من بلاد بني عبد شمس إلى بلاد بني عبد المدان ، ودخلت خراسان ، وعاينت ملك بني ساسان ، وسلكت على إقليم طوس إلى مدينة طابران ، وقصدت الراوية باسفرايين وانحدرت الى جرجان ، وركبت البحر الى بلاد مازندران ،وقرأت بمدينة آمل وهي طبرستان، قاعدة ملك الأرض كلها الضحاك الذي عاش ألف سنة في عدوان وطغيان ، الى أن قتله الملك العظيم أفريذون بن افقيان .

ووصلت بلاد قهستان إلى ساوة ، إلى آوة إلى مدينة قم ، الى قاسان ، الى المدينة الكبرى أصبهان ، موضع عبادة النيران ، ومراقبة القران ، والكفر بالرحمن ، في أول الزمان. وعبرت منها إلى اصطخر قاعدة النبي سليمان، وأخذت من طريق خوزستان ، الى طريق حلوان ، وقاسيت من الغربة أصناف الألوان ، ومررت على مدائن كسرى أنو شروان ، وزرت بها قبر صاحب النبي - صلى الله عليه وسلم الزاهد العابد المعمّر سلمان ، وأعملت منها السير والاغذاذ الى مدينة بغداذ ، فنظرت اليها معالم وربوعاً ، وأقمت بها مرة عاماً ومرة أسبوعاً وأسبوعاً ، وأنا أبدىء في ندائهم وأعيد ، والترب قد علا على منازلهم والصعيد، وأسأل عن الخلفاء الماضين وأنشد ، ولسان الحال يجاوبني وينشد :

يا سائل الدار عن أناس   ليس لهم نحوها معاد

مرّت كما مرّت الليالي   أين جديس وأين عاد؟

بل أين أبو البشر آدم الذي خلقه بيده الكبير المتعال؟ أين الأنبياء من ولده والارسال ، أهل النبوة والرسالة، والوحي من الله ذي الجلالة ؟ أين سيدهم محمد الذي فضله عليهم ذو العزة والجلال ، وجعله شفيعهم مع أمته والناس في شدائد الأهوال ؟

أين القرون الماضية والأجيال ؟ أين التبابعة والاقيال ؟ أين ملوك همدان ؟ أين أولو الابلق الفرد أو غمدان ؟ أين أولو التيجان والأكاليل ؟ أين الصيد والبهاليل ؟ بل أين النماردة وأكبرهم نمروذ ابراهيم الخليل ؟ أين الفراعنة ومن هو بالسحر عليم ، الذين منهم فرعون موسى الكليم (١) ؟ أين ملك الهذبانية هدد ابن بدد الكردي ، الذي لم يكن غدره بمفيد له ولا مجدي ، وقد أخبر الحق جل جلاله عنه أنه كان يأخذ كل سفينة غصبا ؟

وزعم المؤرخون أنه كان أيضاً يملأ القلوب رعباً ، ويسوم أصحابه قتلاً وصلبا ، مع الطمع في المال وعدم النظر في عقبي المآل.

أين دارا ملك الفرس ؟ وابن ملوكها وعدلها وابن عدولها ابن دارا ابن دارا بن بهمن ؟ أين الاسكندر بن فليبس اليوناني المجدوني الذي غلبه وملك بلاده في ذلك الزمن ، وأطاعته جميع ملوك الأقاليم . وقدر الله به امتحان (٢) ذلك تقدير العزيز الحكيم ؟ أين هرقل وقيصر (٣) ، غلبها من الموت الأسد القسور ، بعد أن أخرجها من بلادهما أمير المومنين أبو حفص عمر ، لما ظهرت الملة الحنيفية كما ظهرت الشمس وبدا القمر ؟ أين أولاد جفنة وملوك غسان ؟ أين مماديح زياد وحسان ؟ أين هرم بن سنان أين الملاعب بالسنان ؟ أين أولاد مضر بن نزار ابن معد بن عدنان ؟ أين بنو عبد المدان ؟ أين أرباب العواصم ؟ أين قيس بن عاصم ؟ أين العرب العرباء الأمة الفاضلة ، والجماعة المناضلة ، أولو البأس والحفاظ وذوو الحمية

---

(١) قوله تبارك وتعالى : واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب . أي يسومونكم أشد العذاب أي يذيقونكم ويوردونكم . يقال سام يسوم سوماً ، وساومه مساومة واستام استياماً ، وتساوموا تساوماً وسوم تسويماً ويقال ساء يسوء سوءاً وأساءه اساءة (هامش الأصل) .

(٢) كلمة لم تقرأ .

(٣) هامش لم يقرأ .

جيشه وهو الذي شبّهه محمد بن هانىء [١] وقرنه بتبّع الأقرن ، حيث شاهد أمثال الرعان تمشي على الأرض من جيشه الأرعن [٢] ، وعاين من أوليائه المجرعين لأعدائه كؤوس العلاقم ، أمثال الأسود على صهوات الوعول مجتابي جلود الأراقم ، وقد أشكل مكانه عليه لاختلاطه بعسكره في الزيّ المشار اليه ، فرفع عقيرته في ذلك الجمع بما يدخل على القلب من غير استئذان من باب السمع :

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر ... وأمدّكم فلق الصباح المسفر

وجنيتم ثمر الوقائع يانعاً ... بالنصر من ورق الحديد الأخضر

من فيكم الملك المطاع كأنه ... تحت السوابغ تبّع في حمير ؟

فترجل عن صهوات الجياد عندما وصل الى هذا البيت جميع الجنود ، وأوموا الى صاحبهم بالسجود ، فدخلوا بلاد مصر بالأبطال الكماة ، والأبسال الحماة ، فدوّخوا البلدان ، وذلّ كل ملك لهم ودان .

وكانت لهم أيام مأثورة ، ومواقف منظومة ومنثورة . غير انهم تمذهبوا بمذهب الباطن الباطل ، وتحلّوا من اعتقاد التعطيل بالاعتقاد العاطل ، وقالوا بتناسخ الأجساد والحلول والاتحاد ، وأتوا من شنيع الأقوال الفادحة في المعاد ، بصريح الالحاد . واحتقبوا بالكفر معنى واسماً ، وتنوّعوا في مظالم العباد ، وقد خاب من حمل ظلماً .

وأملى الله لهم ليزدادوا إثماً ، فملكوا مائتي عام وخمسة عشر عاماً .

ثبت باجماع وصحت به متون متواترة وأسانيد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : ان الله - تعالى - ليملي للظالم فاذا أخذه لم يفلته . ثم قرأ : « وكذلك

---

(١) طبع في هذه الأيام ديوانه طبعة متقنة .

(٢) قال اللغويون : يقال جيش أرعن اذا كان كثيراً ، شبه برعن الجبل وهو أنفه (هامش الأصل) .

أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة .ان أخذه أليم شديد » .

فغشيهم من الله يوم عصيب ، وقدر مصيب . فخذلهم الأصحاب ، وضاقت عليهم الرحاب ، فعثر الجد ، ونبا الحد ،وقلب المجن ظهره ، وأنكر الشقي دهره ، وذلك على يدي السلطان الناصر لدين الله صلاح الدنيا والدين (١) ، كهف المهتدين .

فاذعنوا له أي إذعان ، وساروا في مثل الأسير العان ، فسلبهم المنة والأيد ، ويدّلهم بها الغل والقيد ، وأقام منار الاسلام بعد قعود ، وأعاد الشريعة المحمدية مورقة العود ، وأطلع في سماء الدين كواكب السعود ، ورفع الراية العباسية بيد الخلافة ، وواصل الحق وقطع دابر من يظهر خلافه ، وأعطى القوس باريها ، وكان السابق الى الخيرات ومباريها .

وعلم الله باطنه الذي صحّ فوافق ظاهره ، فجعل حزبه المنصور ، وفئته الظاهرة ، وجمع له بين رفع راية الخلافة ، وخفض راية الاشراك ، ووقعت طيور ملوك الكفر من معاركه المشهورة في أوثق الأشراك ، ففتح وفتك ، وسفح وسفك ، وأطلق عنان غزوه في ميادين الأقاليم ، وقطع بحد سيفه حدود أصحاب الأقانيم .

وكان حد حسامه مفتاحاً لبيت المقدس ، ومصباحاً للمسجد الأقصى المشيد على التقوى والمؤسس ، فأعاد الاسلام بعد ذهابه ، وردّ النصل في قرابه ، والحق في نصابه .

وكل ذلك بتدبير أخيه السلطان الملك العادل ، المحامي عن الدين والمناضل

---

(١) جاءت مناقبه وحوادثه في مؤلفات عديدة مثل سيرة ابن شداد ، والفتح القدسي للعماد الكاتب الأصبهاني ، وكتاب الروضتين ، وابن خلكان ج ٢ ص ٥٥٩ وغيرها .

سيف الدنيا والدين ، سيد الملوك والسلاطين ، أبي بكر محمد بن أيوب خليل أمير المؤمنين ، واستعمال آرائه ، وإعمال مطيّة سياسته التي لا يرجع راكب ظهر سعادتها الى ورائه ، فرأيه يفتح مغلقات الأمور ، ويشرح منقبضات الصدور ، ولا جرم أنه قام بعده بما قعدت عنه ملوك الدول ، وأربى بتأييد تدبيره وتدبير تأييده على غاية الأمل (١) . ولما وصل الخبر بذلك الى بغداد ، في شهر ربيع الأول سنة سبع وستين وخمسمائة زينت بغداد ، وضربت القباب على كل روض أريض ، ومسرح عريض ، ودوحة غيناء ، وروضة غنّاء ومذانب ومدافع ، ومسارب ومرافع ، في جمع قد اتسق اتساق النظام ، وتكنف بالاجلال والاعظام ، والانس يوسعهم طياً ونشرا . حتى أقاموا عشرة أشهر وعشرا .

وفي يوم الأربعاء رابع عشر شوال من سنة سبع وستين مات السلطان نور الدين (٢) في قلعة دمشق ودفن بها ، وكان ملكاً صالحاً ظاهر الدين ، والتمسك بذوائب اليقين ، بنى المساجد والمدارس والرباطات ، وفتح الأمصار وأعلى الكلمات ، وغزا في الفرنج عدة غزوات ، نفعه الله ، وجعل ذلك له ذخراً ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، ووصل ولده الملك الصالح إسماعيل الى قلعة حلب يوم الجمعة مستهلّ المحرم سنة سبعين وخمسمائة وكان ملكاً صالحاً عند اسمه ، جارياً على عهد أبيه في الدين والخير ورسمه .

ولما ولي الخليفة المستضيء بأمر الله طلب قاتل أبيه قايماز المذكور ففرّ منه

---

(١) ترجمة الملك العادل في ابن خلكان ج ٢ ص ٦٩ وتوفي في ٧ جمادى الثانية سنة ٦١٥ هـ — ١٢١٨ م .

٢) ترجمته في ابن خلكان ج ٢ ص ١٢٨ وفي كتاب الروضتين . توفي في ١١ شوال سنة ٥٦٩ هـ ولعل ما جاء في النبراس كان سهواً .

إلى ناحية همذان ، فأمر العامة بنهب داره فنهبت في الحين ، وأقام في الخلافة عشر سنين تنقص أربعة أشهر . وكان ضئيل الجسم ، كثير الحلم ، عزيز العلم ، جبر الكسير ، ووهب الاكسير ، وآنس الغريب ، وواسى البعيد والقريب ، فكم له من منقبة تتلى وتنسخ ! وفضيلة محكمها على الأيام لا ينسخ ! وقد يكفي من التصريح ايماء ، ويغني عن الصريح ماء . توفي ليلة الأحد ثاني ذي القعدة من سنة خمس وسبعين وخمسمائة (١) (١١٨٠ م) .

فصارت الخلافة بعده لابنه الامام الناصر لدين الله

أمير المؤمنين ، أبي العباس أحمد بن الامام أمير المؤمنين المستضيء بالله ، أبي محمد الحسن بن الامام أمير المؤمنين المستنجد بالله ، أبي المظفر يوسف بن الامام أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله ، أبي عبد الله محمد بن الامام أمير المؤمنين المستظهر بالله ، أبي العباس أحمد بن الامام أمير المؤمنين المقتدي بأمر الله ، أبي القاسم عبد الله ابن الأمير ذخيرة الدين ، أبي القاسم محمد بن الامام أمير المؤمنين القائم بأمر الله ، أبي جعفر عبد الله بن الامام أمير المؤمنين القادر بالله أبي العباس أحمد بن الشريف الأمير إسحاق بن الامام أمير المؤمنين المقتدر بالله ، أبي الفضل جعفر بن الامام أمير المؤمنين المعتضد بالله ، أبي العباس أحمد بن الموفق بالله الناصر لدين الله ولي عهد المسلمين ، أبي أحمد طلحة بن الامام أمير المؤمنين المتوكل على الله ، أبي الفضل جعفر بن الامام أمير المؤمنين المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن الامام أمير المؤمنين الرشيد بالله ، أبي جعفر هرون بن الامام أمير المؤمنين المهدي بالله ، أبي عبد الله محمد ابن الامام أمير المؤمنين المنصور ، أبي جعفر عبد الله بن الامام العالم أبي عبد الله

---

(١) ذكره في تاريخ الدولة الأتابكية ص ٣٢٦ وفي الكامل ج ١١ ص ١٨٧ وابن أبي عذيبة ج ٤ ص ٣٧٠ .

والأحفاظ ، حيث الوفاء والعهد ، والنجاء والوفد ، الى علو الهمم ، والوفاء بالذمم ، والعطاء الجزل والضيف والنزل ، وهبة الافال والبزل ، وانها لا تدين عزاً ولا تنقاد ، ولا ترام أنفة ولا تقاد ، أين قريش المعروفون في الجاهلية بالحيّ اللقاح ، والشعب الرقاح ؟ أين الماضون من ملوك بني أمية ، ذوو الألسن الذلق ، والأوجه الطلق والحمية ؟ أين خلفاء بني العباس بن عبد المطلب الذين شرفهم بالأصالة وليس اليهم بالمنجلب ، ذوو الشرف الشامخ ، والفخر الباذخ ، والخلافة السنية الرضية ، والمملكة العامة المرضية ؟

بلغتنا (والله) وفاتهم، ولم يبق إلا ذكرهم وصفاتهم ، قبض ملك الموت أرواحهم قبضا ، ولم يترك لهم حراكاً ولا نبضاً ، ومزق الدود لحومهم قدداً ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ، إلا ما كان من أجساد الأنبياء عليهم أفضل التسليم ، فان الله ـ تعالى ـ حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ، وقد تكلمت على هذا الحديث وأبنت أنه من الصحيح لا السقيم ، وخرجت طرقه في كتاب العلم المشهور بعون من العزيز الرحيم .

فما أبعد المرء عن رشده وما أقصاه ! كم وعظه الدهر وكم وصاه ! يخلط الحقيقة بالمحال ، والعاطل بالحال ، ولا توبة حتى يشيب الغراب ، ويألف الدم التراب . فيا لهفي لبعد الدار وانقضاض الجدار ، وأنت هامة ليل أو نهار ، وقابل من عمرك على شفا جرف هار ، تقرأ العلم وتدّعيه ، ولا تفهمه ولا تعيه ، فهو عليك لا لك ، فأولى لك ثم أولى لك !

أما آن لليل الغي أن يتجلى احلا كه ، ولنظم البغي أن تنتثر أسلا كه ، وأن يستقطع الجاني جناه ، ويأسف على ما اقترفه وجناه ، وأن يلبس عباءة وبتاتاً ، ويطلق الدنيا بتاتاً ، ويفرّ منها فرار الأسد ، ويتيقن أنه لا بد من مفارقة الروح للجسد ؟!

نبهنا الله من سيئات غفلاتنا، وحسّن ما ساء من صنائعنا الذميمة وفعلاتنا ،
وجعل التقوى أحصن عددنا وأوثق آلاتنا .

اللهم اليك المآب ، وبيدك المتاب ، وقد واقعنا الخطايا ، وركبنا الجرائم
رواحل ومطايا ، فتب علينا أجمعين ، وأدخلنا برحمتك في عبادك
الصالحين ، وصلّ على سيد ولد آدم محمد شفيعنا يوم القيامة .
وصاحب الحوض المورود والمقام المحمود والكرامة ،
وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه أهل الرضوان
المنتجبين ، وسلام عليه وعليهم
إلى يوم الدين .

ملحق بالأصل

من التاريخ الكامل لابن الاثير

سنة اثنتين وعشرين وستمائة فيها توفي الخليفة الامام الناصر [1]، وولي بعده ابنه الظاهر وكان أبوه يبغضه وخلعه عن ولاية العهد وولى أخاله صغيراً ثم ولاه العهد ثانية لتوفي الأخ الصغير وكان الظاهر هذا - تغمده الله - حسن السيرة جداً حتى قيل: انه ثالث العمرين فانه أحيا العدل [2]. وفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة مات الخليفة الظاهر فكانت خلافته تسعة أشهر وعشرين يوماً .

قال الكاتب عفا الله عنه :

عليك سلام الله مهلاً، فانني رأيت الكريم الحر ليس له عمر

ولما توفي - رحمه الله تعالى - وجد في بيته رقاع مختومة كثيرة لم تفتح كلها سعايات لم يلتفت اليها .

وتولى بعد الظاهر المستنصر بالله [3] باني المستنصرية ببغداد وسلك في مبدإ أمره نحو مسلك الظاهر ، ودامت خلافته ثلاث عشرة سنة ومات في جمادى الأولى سنة أربعين وستمائة ، وولي بعده الخلافة الامام الشهيد المستعصم [4] ،

---

(١) توفي ليلة الأحد سلخ شهر رمضان سنة ٦٢٢ هـ - ١٢٢٥ م . وكانت خلافته ٤٦ سنة و ١١ شهراً وعمره ٦٩ سنة وشهرين وعشرين يوماً .

(٢) ولي الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله يوم الأحد سلخ شهر رمضان سنة ٦٢٢ هـ - ١٢٢٥ م . وتوفي في يوم الجمعة ١٣ شهر رجب سنة ٦٢٣ هـ - ١٢٢٦ م .

(٣) بويع له في يوم وفاة والده . وهو أبو جعفر المنصور بن محمد الظاهر . وتوفي بكرة يوم الجمعة ١٠ جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ هـ - ١٢٤٢ م وعمره ٥٢ سنة و ٦ أشهر و ١٧ يوماً .

(٤) المستعصم أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله بويع في يوم وفاة والده . وتوفي شهيداً في ١٤ صفر سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م .

ودامت خلافته ست عشرة سنة واستشهد على يد التاتار - رحمه الله تعالى - سنة ست وخمسين وستمائة وبعده أسقطت الدعوة العباسية ببلاد العراق . فما ظنك بغيرها ؟

هذا ما وجد ملحقاً بالأصل . ثم جاء النقل من
حياة الحيوان فلم نر ضرورة لنقله . وبهذا
ختم الكتاب . والله ولي الأمر .

فهارس كتاب النبراس

١ ـ فهرست المواضيع

(*)

٢ — فهرست الكتب

٣ ـ فهرست الامكنة والبقاع

(*)

٤ — فهرست القبائل والشعوب والمعتقدات

(*)

٥ — فهرست الأشخاص

٦ — فهرست الالفاظ الغريبة والدخيلة

الخطأ وصوابه

ص	س	الخطأ	الصواب
ز	١٣	النبوايغ	الذوايغ
ز	١٩	أيدوا	أبدوا
ط	١٤	اعده	عدّه
ل	٥	يراعته	يراعيه
م	١٧	شادى	شاذي
ص	١٢	للوبير	للزبير
٥٦	٢٠	أمثل	امتثل
٥٩	٢	أقضل	أفضل
٦٠	٢٠	لأسعد	للادريسي صهر أسعد
٦١	١٥	طرطوس	طرسوس
٧٧	١	قبطه	خليفة
٧٧	١٦	باخرج	باخراج
٨٧	٢	لأ	لا
٨٩	١٥	أمامه	أيامه
١٠٩	١٩	القراظمة	القرامطة
١١٤	١٦	أوعزني	أوزعني
١٢٦	١٩	العبتي	العتبي
١٢٨	٢١	العبتي	العتبي
١٦٤	٢	عزير	غزير
١٦٦	١٥	نفذ	نفد